

الناس دوُل
حكايات من لحم ودم
أحمد عطا اللـه
دار العين للنشر
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

الناس دول

حكايات من لحم ودم

الناس دول

حكايات من لحم ودم

أحمد عطا الله

الطبعة الأولى / ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، ٢٤٥٨٠٩٥٥ فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥
www.elainpublishing.com

الغلاف : حاتم عرفة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:٢١٣٩/ ٢٠١١
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 099 - 0

الناس دول

حكايات من لحم ودم

أحمد عطا الله

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عطا الله، أحمد.

الناس دول: حكايات من لحم ودم/ أحمد عطا الله.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١١

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٠٩٩ ٠

١- المقالات العربية

أ- العنوان

٨١٤

رقم الإيداع / ٢١٣٩ / ٢٠١١

الإهداء

إليهم.

فقط لا غير.

شكر مخصوص

إلى الذين يلعبون في دماغي باستمرار

رانيا جمعة

حازم الحديدي

شاندو

الدكتور محمد الباز

الشاعر أشرف يوسف

عبيد الحميدي

المحتويات

بعد الصلاة على النبي..

كلنا متشابهون..

نحلم بالسعادة.. بالصحة.

نبحث عن الاستقرار، نسعى إلى النجاح.

تقلقنا نفس الأشياء تقريبًا.

ما يختلف فقط.. هو القصة التي يرتديها كل واحد منا،

الحكاية.. التي ترسم تفاصيل حياته،

الحدوتة التي تعطيه هوية لتميِّزه عن غيره.

الفصل الأول

أقدام وأعتاب ونواصٍ

"مسكين من يطبخ الفاس
ويريد مرق من حديدة
مسكين من يصحب الناس
ويريد من لا يريده"

ابن عروس

بلبل... خمارة الغلابة

لديّ إحساس أن محمود المليجي سيدخل الآن، يشرب ويشرب، ثم يضرب كرسيًا في الكلوب، وتبدأ الخناقة.

هنا.. عالم آخر غير الذي تعرفه وتعيشه.

وكأنك دخلت آلة الزمن السحرية، فخطفتك فجأة إلى قاهرة الخمسينيات والستينيات، ووجدت نفسك في زمن الأبيض والأسود، تقف بجوار محمود المليجي وفريد شوقي في فيلم قديم، تشاركهما لعبة الخير والشر.

هنا بشر غير البشر، وجوه كالحة ربما صادفتك من قبل لكنك أبدًا لن تتخيل أن تجدها في مكان واحد، جلاليب قديمة بالية، طواقي صوف، رائحة نفاذة، لا هي تشبه البيرة ولا هي تشبه رائحة حبوب القمح المطحون.

على الأرض، على حصر مصنوعة من جريد النخيل، يجلسون،

يقتسمون حكايات معجونة بالهم والغلب، وأمام كل واحد مهنم "كوز البوظا"، وطبق خيار وطماطم، يصنعون معهما أجمد دماغ في مصر، بجنيه ونصف الجنيه فقط، دماغ درجة تالتة، لا يمكنك الحصول عليها إلا هنا، عند "بلبل" في "درب المهابيل"، على بعد خطوات قليلة من شارع عبد العزيز بالعتبة، خطوات قليلة تنقلك من عالم إلى عالم آخر، يجعلك تتساءل متى يبدأ محمود المليجي الخناقة؟

أشعر كأنني غريب، غير مرغوب في وجوده، العيون التي تتفحصني من فوق لتحت تقول ذلك، البنطلون الجينز والجاكيت اللذين أرتديهما يؤكدان أنني غريب بالفعل، درجة الدهشة المرسومة على وجه الساقي تقول لي "إنت إيه اللي جايبك هنا؟" وتضيف "إنت مين أصلا".

صحيح، أنا مين؟

ممثل بالألوان وسط نجوم أبيض وأسود، يبدو لي كذلك... فجميع الذين يوجدون هنا يرتدون الجلاليب، نصفهم تقريبًا يرتدي طواقي الصوف القديمة تبرز كل واحدة منها شعرًا بارزًا، متمردًا لصاحبها.

يجلس، يدخن، ويشرب "بوظا" من "الكوز" الذي أمامه، "كوز" بلاستيك يستوعب تقريبًا نصف ما تستوعبه زجاجة مياه معدنية كبيرة، الجميع على نفس الحال، واحد فقط هو الذي يقف بجواري الآن أمام الرجل الذي يملأ هذه "الأكواز".

أخرج الفلوس من جيبه، سلمها له، أخذ "الكوز" وطبق "المَزّة"،

ووقفت كما أنا مكاني حتى سألني الساقي "عايز حد يا أستاذ؟"

تظاهرت بأنني واحد من رواد المكان وأنا أطلب بثقة "كوز"، لكن سؤالي عن السعر فضحني.

فى النهاية أخذت "الكوز" الصغير ودفعت الجنيه ونصف الجنيه، وجلست في مكان خال على أحد الحصر، بجوار رجل يشرب بنهم شديد رفعت "الكوز" إلى فمي! أبعدته بسرعة، الرائحة مفزعة في الوقت الذي كان يشرب فيه الرجل من "كوزه " باستمتاع يُحسد عليه، سألته "البتاع ده تقيل أوي"، رد بحدة "ولما ما تعرفش تشرب، جاي هنا ليه؟"، شعرت بجملته أنني أقترب من علقة ساخنة، شعور كافٍ لأن أقف بـ"الكوز" وأذهب للجلوس في مكان آخر بجوار ماسح أحذية، الصندوق الخشبي الذي يضعه أمامه يؤكد أن هذه مهنته.

"مزوِّدين السبيرتو أوي"، قلت له محاولا فتح أي حوار، وهو ما حدث بالفعل حين بدأ يتحدث "باين عليك مالكش في الليلة، دا مش سبيرتو، بص يا سيدي عارف قشرة القمحاية الصغيرة"، هززت رأسي، فراح يشرح مكونات "البوظا" كأنه حاصل على دكتوراه فيها وهو يقول: "بيجيبوا القشرة دي اللي بتطلع مع الدقيق، وبعدين بيحطوها في القمع الكبير اللي هناك ده – مشيرا إلى قمع إسطواني كبير خلف الساقي– عشان بتخمر فيه وهو بيتقلب وبعدين بيحطوها في أحواض يسيبوها كام يوم لحد ما تتخمّر كويس وبيرموا عليها كام إزازة بيرة، ويجينا يا سيدي نشربها، إنما سبيرتو، أوقات بيحطوا كده كده، لكن مش دايما عشان بتوع الصحة".

صحة إيه؟ سألته ليجيب وهو يعزم عليّ بسيجاره، أخذتها منه، وهو يقول: "آه، مش الحاجات دي لها تصريح، أمال إنت فاكر إن المسألة كده، يقدر يطلّع بلبل "كوز بوظا" واحد من غير تصريح، عشان يحطوه في حديد".

مين بلبل؟

يجيب: "صاحب المكان ده ".

عزمت عليه "بالكوز" بتاعي، مؤكدا أنني أعاني من "مغص"، وسألته "وعلى كده فيه أماكن تانية بتبيع "بوظا"؟". قال: "فيه مكان قديم زي ده برضه في السيدة عيشة، أعرف إن فيه مكان هناك بس أنا ما رحتوش وعلى ما أعتقد برضه فيه مكان تاني في شبرا، شبرا مصر بس مش شبرا الخيمة، لكن إنت شغال إيه"؟

أنهى كلامه بالسؤال الأخير، ليراودني نفس الشعور بأنني أقترب من علقة، مؤكده ربما لو قلت له "صحفي"، لذلك أجبت "طالب في معهد السياحة، وواحد صحبي قال لي على المكان فقلت آجي أشوفه، بس طلع مكان غريب، على كده الناس دي شغالة إيه، تعرفهم"؟

أنهيت كلامي بالسؤال السابق ليجيب: "زي حالاتنا، ناس على باب الله، طالعين على لقمة العيش وبييجي الواحد منهم آخر الليل يشرب له كوز ولّا اتنين، يعني اللي عندك ده- مشيرًا برأسه إلى شخص يجلس أمامنا- عم محمد شغال لا مؤاخذه عربجي، بيجري على كوم لحم، واللي

قاعد جنبه ده أبو فاتن، نفس الماركة، (لحظة صمت تبعها سؤال)، والمعهد بتاعك فين؟

صوت الحديث الذي يدور بين شخصين والذي بدأ في الارتفاع أنقذني من الإجابة، بالضبط كما فتح لي منطقة جديدة لمتابعة تفاصيل أخرى.

تهيأ لي أنني أشاهد فيلمًا قديمًا، ربطت ملامح أحدهم بملامح زكي رستم، الإحساس كامل.. المشاهد حقيقية 100 % وتحدث على أرض الواقع الآن، الأفلام القديمة تخلو من الكلمات البذيئة، وصلة ردح وشتيمة متواصلة، دخان السجائر المتصاعد في دوائر منتشرة في المكان كله أضافت للخناقة نكهة الأكشن، الآن فقط تدخل أحد الجالسين ليس لحل المشكلة، لقد انضم للرجل الذي أتخيله زكي رستم، الثلاثة ماسحو أحذية، والمشكلة بين الاتنين كانت على الأماكن، درجة حرارة الخناقة الكلامية ترتفع، زكي رستم يتهم الرجل الآخر بالجشع وعدم وجود الدم، معظم الجالسين مساطيل يتابعون المشهد مع تبادل تعليقات بسيطة، بعضها خرج بصوت عالٍ "ما تخلصوا يا ولاد الـ..."و.. خرج الساقي من المكان الذي يشبه المكان الذي يقف عليه البارمان في البارات السياحية، خرج وبصوت عالٍ أيضا قال وهو ينظر للاثنين "فيه إيه، ما لكم، عايزين تتخانقوا اطلعوا بره مش ناقصكم".

انتهى المشهد في اللحظة التي قرر فيها الرجل الذي يشبه زكي رستم استخدام يديه، لكنه سكت ليعود المكان كله إلى ذلك الضجيج المتبادل والذي لم يمكنني من استخلاص كلام أحد روّاده ومعرفة معناه ومقصده.

أقعد يا أستاذ مكانك؟ قالها "بارمان البوظا" موجها كلامه لي، لأكتشف فجأه أنني واقف منذ ما يزيد على نصف ساعة، التوقيت الذي بدأت فيه الخناقة، سألته: هو عم بلبل فين؟

غريبه لم يسألني "البارمان"، لماذا؟ و لم يقل لي إنت عايزه في إيه؟ فقط أجاب "موجود بره على القهوة، على اليمين كده أول ما تطلع من الباب".

ملامحه تقول إنه من السودان أو ربما من النوبة، قصير بجسد مربع وكرش، يجلس يدخن شيشة، اقتربت منه عرّفته بنفسي طالبًا إجراء حوار معه، وتصوير المكان. طلب لي واحد شاي قبل أن يقول بصوت "لدغته" الظاهرة في الكلام "حوار عن إيه؟ أصل أنا كل يوم بيجيني صحفيين زي حالاتك كده عايزين يعملوا حديث برضه ويصوروا المكان.. بس أنا ما بتكلمش للصحافة والتصوير بفلوس".

فلوس؟

آه لو عايز تصور آخد 10 آلاف جنيه، أنا عندي كذا قناة من بتوع الفضائيات متفقين معايا يصوروا ويدفعوا فلوس منهم دريم ومنهم سامية الإتربي عايزة تيجي تصور هنا.

أيقنت أن تصوير المكان من الداخل مغامرة نتيجتها النهائية، لا شيء، إذا كان وجودي ببنطلون جينز جعل بعض الرواد يتعاملون معي على أنني سائح و لم يكفوا عن مراقبتي، تركت "بلبل" حاملاً معي بعض المعلومات التي أخذتها من لسانه منها، "كل يومين تلاته بيجينا تفتيش من وزارة

الصحة "، "فى رمضان ما بنشتغلش "، "أنا مولود هنا بس أبويا أساسا من السودان "، "فيه كوز بجنيه ونص وكوز بـ 3 جنيه "، "فى القاهرة 4 أماكن فقط "للبوظا" القديمة"، "ما ينفعش أغير مهنه أبويا وجدي "، "الزباين زي ما إنت شوفتهم، ناس على باب الله، وفيه ناس بتيجي كده زي حالاتك، لكن زبايني ناس غلابة"، "طبعا معايا تصريح من وزارة الصحة".

تركت بلبل لأعود لنفس المكان. ألقيت نظرة أخيرة وأنا أفكر في رواد محل "البوظا" الذين يشتركون في الملامح الكالحة. معظمهم عمال يوميات، وأنفار شغيلة، وماسحو أحذية، وسائقو عربيات كارو وحنطور، وكلهم أصحاب كيف أدمنوا "البوظا"، اعتادوا على شربها وعمل دماغ منها دون أن ترهقهم المسألة ماديًا، أصبحوا جزءًا من المكان وأصبح المكان جزءًا منهم، وأصبح الاثنان معا يشكلان عالما آخر. زمن الأبيض والأسود الذي جعلني أتساءل، هل يأتي الآن محمود المليجي، يشرب ويشرب ويشرب ثم يضرب كرسيًا في الكلوب لتبدأ الخناقة؟

30 ساعة في حلايب وشلاتين

أيهما أفضل؟ أن تعيش معهم تحت مظلاتهم الخشبية وخيمهم.. تحت حماية قيم نبيلة تجعل عقوبة الكذب الطرد والمقاطعة؟ أم أن تعيش داخل "خلاط" المدينة الذي تدخله منذ استيقاظك من النوم وحتى عودتك إلى الفراش مرة أخرى حاملا على لسانك كروت مجاملة ونصف ابتسامة توزعها على الجميع؟

هناك مع شمس الشتاء التي توزع أشعتها الدافئة على استحياء مع "الجبنة" وعملة "الجمال" وطبيعه لم تفقد عذريتها بعد رغم وجودها عارية في الصحراء.. أم هنا تشارك الحياة رقصة صاخبة.. يحكمك فيها إيقاع البحث عن لقمة العيش ويسيطر على أعصابك التوتر والتلوث وزحمة المواصلات و"الكوبري واقف " واليوم بيعدي زي الصاروخ "؟

هناك أم هنا؟

سؤال ساذج يولد ببطء من أول خطوة لك على أرض شلاتين وحلايب.. يكتمل نموه لحظة الوداع أثناء قرارك الإجباري بالعوده إلى "القاهرة" والبحث عن "لقمة العيش ".

مدهش أن تغمض عينيك ثم تفتحهما على وجوه لم تعتدها ولهجة لم تسمعها وقوانين لم تخضع لها وقلوب جاهزة لاحتضانك من أول ما تمد يدك للسلام.. مدهش أن تفتح عينيك على أشعة الشمس الطازجة التي تجبر عينيك على أن تلتقط صورا لمشاهد وجوه سمراء متربة.. بجلاليب بيضاء قصيرة.. وبيوت خشبية.

إنه نفس شعوري الآن، فلقد حدث ما أغمض عينيّ، حدث.. أنني لم أجد مكانًا في الأتوبيس الذي استوقفه لي ضابط مرور لأركبه في "القصير"، متجهًا إلى حلايب وشلاتين، لم أجد مكانًا أضع فيه قدمي فاليوم.. هو السبت، نهاية الإجازة، مع أتوبيس لا يدخل حلايب وشلاتين إلا كل يومين، ومع ذلك قبلني الكمساري راكبًا إضافيًا معه، ليدخلني إلى مكان، المفترض أنه مخصص لوضع متاعه الشخصي هو والسائق، مكان له شباك، لم أعرف اسمه، لكني لن أنساه طيلة حياتي، إنه أقرب لـ"الخن"، يوجد تحت كراسي المقدمة، لا يمكن أن يزيد ارتفاعه على 30 سم، لذلك..لا يمكن الدخول إليه سوى زاحف، دخلته، هو اشترط عليّ –الكمساري– عدم الخروج منه إلا بانتهاء الرحلة، ويا ليتني لم أوافق.

لقد شعرت أنني ألمس الموت بيدي مع كل مطب، إنني أتمدد فوق العجلة اليسرى مباشرة، يشاركها عقلي الدوران، مثلما تعلن معدتي مع رائحة

البنزين المنتشرة، رغبة في غثيان، لا أملك رفاهية حدوثه، على مدى 6 ساعات متواصلة، 6 ساعات قلق وبنزين وخوف وظلام ومطبات وإحساس بحادثة قريبة.

لكن.. الحمد لله، ومع أشعة الشمس التي دخلت بثقة إلى المكان، دون الاعتراف بالشتاء، .. وصلت.

و..

الموبايل يرن.."إنت فين"؟

أرد: "أمام كافتيريا مكتوب عليها الحجاج".

عوض السيد على "32 سنة" مواليد أسوان.. محل الإقامة شلاتين.. إنها المدينه التي يعمل بها منذ "5" سنوات حين قرر أن يؤجر أحد المحلات ويجعل نشاطه إكسسوارات سيارات النقل.. "بدفع 300 جنيه في الشهر.. المحلات هنا رغم أنها خشب وضيقه بس إيجارها غالي.. عشان المنطقه أصلا كلها تجارة بين السودان ومصر".

ويضيف: "إحنا نفطر الأول.. يكون المكتب اشتغل عشان نجيب تصريح نروح "أبو رماد" ومن هناك نطلع على حلايب.. المشوار بتاع ساعتين نقضي اليوم هناك ونرجع آخر النهار شلاتين".

ينهي جملته في الوقت الذي تقف أمامنا فيه سيارة نقل يقترب لونها من البرتقالي الداكن وعلى لوحتها رقم "ش. ق".. وعوض يعلق: "دي جاية من السودان.. جاية سمسم" "ش.ق" يعني "شئون قبائل".

بداخل الكافتيريا - التى في حقيقتها مقهى شعبي متواضعة إمكانياته للغاية- يتراص مجموعة من السودانيين على كنب، معلقين عيونهم على شاشة التليفزيون.. يخيل لي أنه لو أحد مات خلفهم لن يتراجعوا عن النظر إلى هيفاء وهبي وهي تغني "رجب..حوش صاحبك عني".

أخذنا تصريح المكتب، وانطلقنا في اتجاه أبو رماد، ينبعث من سماعات السيارة، صوت مطرب سوداني يردد "وين أدسك"، في الوقت نفسه أستسلم لنصائح عوض: "وإنت بتصور بعّد تماما عن الحاجات العسكرية".

أهز رأسي علامة على الموافقة، أما هو فيستمر.. "ما ينفعش تتكلم هنا مع حد غير بإذن من رؤساء القبائل ".."أكبر قبيلتين هنا العبابدة والبشارية".. "وفيه الرشايدة ودول رحّل بيمشوا تبع المراعي والمطر ودول ما بيعلّموش ولادهم.. والسنة اللي فاتت كان لهم مشكلة كبيرة مع رئيس مجلس المدينة عشان رفض دخول عيالهم المدارس لأنهم مامعهومش أوراق ".. "عادات العبابدة والبشارية مخالفة للصعايدة.. لما توصل للشيخ حسن يحكيلك ".

أستمع إلى عوض في صمت مستمتعًا بمنظر الصحراء العارية التي تتلاحم مع البحر فجأه وتختفي منه فجأه أيضًا.. كل كام كيلو يهدىء عوض السرعة للمرور من أكمنة الشرطة العسكرية التي تسيطر على الطريق.. فجأه يتوقف تمامًا.. "يا ساتر يا رب عربية مقلوبة ".

ننزل.

كراتين شيبسي ملقاة على الطريق.. وكراسٍ وأطباق بلاستيكية كبيرة وزيوت.. وشخص نائم على ظهره يدندن بأغنيه لم أفهمها..و..

نعود إلى السيارة مرة أخرى، بعد أن قال لنا ذلك الشخص "متشكرين.. فيه واحد راح يجيب عربية بدالها وييجي".

أشعر بدرجة حرارة مرتفعة، في حين يستكمل عوض حديثه.. "العربيات السودانية بتجيب سمسم وكركديه وجمال وحلف بر ولب وسوداني ونباتات طبية، وبتاخد حلويات وزيوت ورابسو ومواعين بلاستيك".. و.."الرحلة بتاخدلها بتاع 3 أيام من شلاتين لحد ما توصل الخرطوم".

أطلب من عوض أن يهدىء السرعة على مشهد قطيع من الجمال.. أحد الجمال تخلف عن القطيع.. ثم ركض فجأة ناظرًا إلى باقي جمال القطيع.. الراعي ينظر إليه في عدم اهتمام، عوض يجيب عن سؤالي له عن السبب.." الرحلة بتاخد 10 أيام من السودان إلى شلاتين بلا زاد في الصحراء الجمال تتحمل أو تأكل ما يصادفها في المراعي.. الراعي لن يوقف الرحلة لأن جملاً تعبانًا ".

أضحك، وأنا أردد "القافلة تسير..والحياة لا تقف على أحد ".

أمام مكتب أبو رماد نزل عوض ليعود بعد 10 دقائق وفي يده تصريح دخول إلى "حلايب" -بخلاف التصريح السابق لدخول أبورماد- حلايب.. القرية التي تسبق خط 22 درجة، الفاصل الحدودي بين مصر والسودان بـ 10 كيلو مترات فقط.

وصلنا.

"وين الشيخ حسن".. يقولها عوض لأحد الواقفين أمام المحلات التجارية والذي يشير بدوره إلى أحد المقاهى قائلا "بيسمع الماتش".

أمام المقهى، على الباب الخشبي، ترك الزوار أحذيتهم و"شباشبهم" وجلسوا حفاة على الأرض، أما الشيخ حسن الترابي.. شيخ مشايخ البشارية فاكتفى بالسلام علينا.. طالبًا -بلطف- أن يستكمل المباراة.. عرفت منه بعد ذلك أنه أهلاوي صميم.

على كراسي مقهى مجاور جلسنا.. الشيخ حسن يحدثني عن عادات وتقاليد البشارية..عن المجالس العرفية.. عن طقوس الزواج وأعياد الميلاد.. هو يتحدث وأنا أكتب.

الآن اقرأ ما كتبت : "المجالس العرفية تتبع شئون القبائل.. مهمتها حل المنازعات بين القبائل.. الأحكام هنا بالدية.. والشيخ يقدر ثمن الخطأ، والدية قد تكون مبلغًا ماديًا أو تقدّر بالجمال ".

"نختلف عن الصعيد في الثأر.. وهو نادرا ما يحدث في حلايب وشلاتين، وإذا حدث لابد أن يتم قتل القاتل نفسه، وفى وجهه، ولا يؤخذ غدرًا من الظهر، وبشكل عام في حلايب وشلاتين لا يوجد قتل، وإذا وجد، تكون الدية هي الحل.. الدية حكم إجباري لابد أن يدفعه المخطىء - حتى لو رفضه صاحب الحق- لتحاشي تكرار الخطأ.. وحتى يحاسب الذي يتعدّى على الآخر.. الجميع يسمع كلام المشايخ "الأجاويد".. يرتضون حكمهم.. ومن يخرج عنهم تتم مقاطعته اقتصاديًا..، لكل جريمة ديتّها.. الكذب جريمة والضرب جريمة والسبِّ جريمة.. مثلا دية

الضرب على الوجه يتم حسابها بعدد الأصابع كل إصبع يقابله مبلغ من المال".

معلومات أخرى، حصلت عليها، من آخرين، غير الشيخ حسن.

عرفت.. أن عادات وتقاليد البشارية والعبابدة واحدة تقريبًا، ربما يكون الفرق الوحيد هو اللغة البيجاوية أو ما يسمى هنا بـ"الرطانة"، والتي يتحدثها البشارية فيما بينهم.. بل إن بعضهم لا يعرف غيرها لغة في التعامل بينهم.

كما عرفت أن الزواج.. يظهر فيه بوضوح الاختلاف بين عادات وتقاليد العبابده والبشارية -تشكل القبيلتان 90 % من سكان مثلث حلايب وشلاتين- وأى مكان آخر..فهنا -كما حكى لي عيسى لباب - الأب هو الذي يحدد متى يتزوج الابن، والبنت ليس لها حق الاختيار.. والدها من حقه أن يرفض بشرط أن يعلن أسباب رفضه على مجلس القبيلة.

وأن.. العريس يدفع كل شيء، بداية من "القبض" أو ما يسمى أيضًا بـ"فتحه الخشم" -ما يوازي قراءة الفاتحة- والذي يقدمه العريس إلى العروس وخالها ثم يجهز "البرش" الذي يعيشان به، ويقدم أيضا ما يسمى بـ"متلويب" والذي يساوي ناقة عشارا ومجموعة من الماعز.. ليكون شركًا بين العروسين كمشروع استثماري يتقاسمان أرباحه المستقبلية فيما بينهما.

يوم العرس، تعكف النساء منذ الصباح الباكر على تجهيز "الدلكا".. تلك المادة التي تصنع من الدقيق ويتم دهن جسم العروس بها ليجعل

جلدها قويًا، ناعمًا بعد إزالته، وتقام الاحتفالات لمدة 7 أيام متواصلة.. سباقات جمال.. رقص بالسيف.. مبارزات في الوقت ذاته يرافق العريس "الوزير".. وهو أحد أصدقائه المقربين الذي يتولى مهمة قضاء طلبات العريس ومصادقته منذ قرار الزواج وحتى اليوم السابع.

نفس الأمر عند العروس و"وزيرتها".

في العرس يستقبل العريس ضيوفه ويحييهم بضربهم بالكرباج.. إنها التحية والتهنئة التي لا يسلم منها أحد.

طوال فترة العرس لا تكف الذبائح لإطعام المهنئين الذين يقيمون في الغالب بجوار بيت العروسين حتى يأتي اليوم السابع والذي يسافر فيه العريس "سفرية التشويق".. وهي أيام معدودة يجعل العروس تتلهف عليه وهو أيضًا.. ليعود مرة أخرى إلى بيته الجديد.

طوال الـ 40 يومًا الأولى من الزواج، يحرم على العريس الوجود بعيدًا عن عروسه طالما أذن لصلاة المغرب، وإذا حدث، يعقد له مجلس عرفي تتم محاكمته فيه وتغريمه.

نعود مرة أخرى إلى شلاتين بعد قضاء ساعة ونصف الساعة في حلايب.. قابلنا خلالها عبد الناصر الحميدي، موظف الشئون الاجتماعية الذي يقيم في استراحة الشئون.. قنائي.. متزوج.. يقضي أسبوعين في حلايب وأسبوعًا مع أولاده وزوجته.. "الحياة هنا حلوة جدا، الناس طيبون يعرفون بعضهم جميعًا.. المشكلة الوحيدة الماء والملل، "برميل" المياه البلاستيك

بشتريه بـ60 جنيهًا، توجد محطه مياه تحلية لكن مياهها تفسد الملابس أثناء الغسيل فما بالك إذا تم شربها"!

تودع الشمس شلاتين في الوقت الذي ندخلها فيه.

هل يمكن أن أعود الآن إلى القصير؟

أسأل عوض وهو يجيب: مستحيل.. أولاً ممنوع خروج أي سيارة بعد الخامسه مساءً من هنا، ثانيًا أتوبيسات النقل العام هي الوسيلة الوحيدة لعودتك وهما أتوبيسان واحد منهما يخرج الخامسة مساء متجهًا إلى القاهرة في رحلة لا تقل مدتها عن 17 ساعة بسبب الأعطال الكثيرة..، ويقول، وهو يشير إلى مجموعة من الجالسين والنائمين بأمتعتهم بجوار المكان الذي تقف فيه الأتوبيسات: لا تندهش من تجمع هؤلاء في المحطة، أحيانا الأتوبيس يأخذ يومين أو ثلاثة حتى يجيء وهم أيضًا ينتظرون بحقائبهم.. لا توجد لديهم مشاكل، اعتادوا على ذلك.. إنها حياتهم".

السابعه مساءً ولا يوجد أحد في شوارع شلاتين.

"الناس هنا بتنام بدري.. بدري".. يقولها عوض ونحن نتجه ناحية الفندق هو الفندق المدني الوحيد هنا.. يمتلكه سر الختم –أحد المشايخ.. "نام والصبح يسهلها ربنا ".

لا نزلاء بالفندق تقريبًا، حجرة واحدة فقط التي تسكن.

أضحك على كلمات الشاب الذي استقبلني.." وهطلّعك أحسن أوضة عندنا، الليلة بـ40 جنيهًا.

هو في النهاية ابن صاحب الفندق، حين سألته عن النزيل الآخر بعد ذلك..رد.. "سواق".

الماء منقطع.. الحمامات مشتركة.. صور للمحافظ وهو يفتتح الفندق.. مشهد عام.

وفي الحجرة، على سريرها بطانية خفيفة..كانت كافية لدخول جسدي نزلة برد.. مع تلك العواصف الليلية الباردة التي لم تكف عن لسعتي رغم غلق شباك وباب الحجرة.

صباح جديد.

الشيخ "سر الختم" ينتظرني في طرقة الاستقبال.. وبعد السلام، نذهب معًا إلى اللواء علي شوكت رئيس مجلس مدينه شلاتين.

استقبال حميم ونصيحة بمقابلة رؤساء القبائل.

أريد أن أعرف بقية عادات وتقاليد المنطقة؟ أقدم طلبي لمحمد طاهر سقم، شيخ قبيلة البشارية في شلاتين.. لأكتب معلومات جديدة:

العبابدة والبشارية لا يطلقون على المولود الجديد أي اسم حتى اليوم السابع وفى هذا اليوم يذبحون له ذبيحة –خروف– يعزمون عليه الأهل.. كإعلان رسمي عن انضمام مولود جديد إلى حياتهم.. فى هذا الوقت فقط، يعلن الأب الاسم الذي اختاره لمولوده.

أسأله، وإذا أراد أحدكم الزواج بأخرى؟

فيجيب لابد أولاً أن يقدم "رضوة" لزوجته الأولى...بمعنى أن يشتري لها مثلما يشتري لزوجته الثانية بالضبط على أن يعدل بينهما بعد ذلك، وإذا اشتكت زوجته منه وثبتت شكواها يتم تغريمه ماديًّا.

أترك الشيخ طاهر بعد اقتسامنا مجموعة من الحكايات عن فنون القتال والصيد في الصحراء مع أكواب فناجين "الجبنة".

أسلِّم على عوض بعد أن قدم لي خبر وجود سيارة تستعد للذهاب إلى إدفو.

أركب مودعًا عوض.. وأنا أفكر في خلاط المدينة الكبيرة..

القاهرة.

حكاية الشهيد أحمد

إلى من يهمه الأمر..

يرجى أخذ العلم بأن المواطن المصري أحمد يوسف عوض – 38 سنة– الذي دخل مستشفى الباسل بطرطوس بتاريخ 2006/7/15 برقم (39352) إثر إصابة السفينة التي يعمل عليها في البحر وأسعف مع زملائه في المستشفى المذكور.. قد توفي في الساعة الثانية عشرة ظهرا من يوم الأربعاء الواقع في 2006/7/19 متأثرا بالإصابات والجروح الشديدة في جسمه.

يرجى الاطلاع.

"دمياط..دمياط"..التباع ينادي.

"الأجره 14 جنيها إن شاء الله.. البنزين غلي".. السائق يشترط.

"ما هى كل حاجة بتغلى في البلد دي ما عدا البني آدم ".. أحد الركاب يعلق. جملة.. أضافت مساحة حزن على الخبر وأنا أعيد قراءته مرة أخرى:

"شيّع الآلاف من أبناء عزبة البرج جثمان أحمد يوسف عوض، من قرية شطا بدمياط بعد أن فارق الحياة في مستشفى الباسل بسوريا إثر إصابته في قدمه وأجزاء متفرقة من جسده أثناء وجوده على السفينة المصرية "مون لايت" التي غرقت نتيجة القصف الصاروخي الإسرائيلي لها. فى حين أنقذت العناية الإلهية 11 بحارا آخرين ".

...

...

دمياط، لافتات الموبيليا..محلات الحلويات..و.. "عربيات عزبة البرج قدام..عند النافورة". نصف ساعة.. هى المسافة الزمنية الفاصلة بين دمياط المدينة وعزبة البرج قرية التجارة التي يحتضنها البحر المتوسط. الفنارة.. مراكب الصيد.. هواء البحر الممزوج بنكهة السمك..و.. "زوجة الشهيد وأولاده آخر الشارع..على اليمين".

هنا تشم رائحة الحزن.. تلمسه في عيون طغى عليها اللون الأحمر..ومع ذلك مستمرة في البكاء..ومصرة على مصادقة الدموع حتى آخر قطرة.

درجة سخط مرتفعة.. تسمعها في عبارات متتالية يطلقها كل من تقابله ضد إسرائيل.. ضد الحرب.

"اتفضلوا".

قالها الدكتور محمد القللي.. أستاذ علم النفس.. صديق الشهيد.. وأخو زوجته والذي شارك في عملية نقل جثمان "أحمد" من مستشفى الباسل بسوريا إلى مطار القاهرة ومنه إلى مثواه الأخير في عزبة البرج..و.. "شقة أحمد في شطا.. دا بيت أهل مراته".

يتحدث: "اتصل بي واحد صاحبي قال إن فيه مركبا على الحدود السورية واللبنانية انضربت.. كلّمت الشركة، عرفت إنها "مون لايت".. السفينة التجارية اللي بيشتغل عليها أحمد.. عرفت أن طاقم المركب كله في المستشفى وعرفت إن كلهم اتصلوا بزوجاتهم ما عدا أحمد ".

يستمر: "كلمت مدير مستشفى الباسل الدكتور طلال، قال لي على الإصابات. هرس كامل للقدم والساق اليسرى.. تهتك تام باليد اليمنى من أول الساعد حتى الكتف.. قطع في الجانب الوحشي بالقدم اليسرى.. توقف تام في عمل الرئة..و..".

الاسم : أحمد يوسف عوض.. السن 38 سنة، حاصل على الثانوية البحرية بالإسكندرية، واضطر لترك الدراسة بعد توقف والده النجار عن العمل نتيجة تعرض إحدى يديه للبتر أثناء عمله، اضطر أحمد أن يتولى مسئولية والده ووالدته وأخيه "وليد".. الطالب.. –وقتها– في كلية الحقوق، في الوقت الذي يحاول فيه تدبير مصاريف زواجه بعد خطوبته من الآنسة ولاء القللي لمدة 6 سنوات.

فى 1990: استخرج جواز سفر بحريا وعمل في الخطوط البحرية، السويس - جدة، السويس - السودان.

فى 2000 التحق بالعمل على السفينة التجارية "مون لايت" صاحبة الخطوط البحرية المتعددة.

مرة أخرى يتحدث الدكتور محمد القللي: "سافرت أنا ووليد إلى سوريا.. المستشفى أسوأ من حميّات دمياط..عرفت أن أحمد قعد ينزف 12 ساعة..فقد من جسمه حوالى 4 لترات دم، كانت عنده قدرة غريبه على تحمل الألم.. دخل بيتكلم ويضحك.. الممرضة سألته وهي بتاخد بياناته اسم أمك إيه؟ قالها: لأ..هو أي حد يسألني أقول له على اسم أمي".

يمتزج حديثه بالدموع رغم محاولاته المستمرة للحفاظ على نفس الابتسامة التي استقبلنا بها.." دخلت عليه أنا ووليد العناية المركزة.. بالمناسبة العناية المركزة دي كان فيها 4 مرضى تانيين منهم مريض بالربو.. المهم قعدت جنبه كان فاقد الوعي تمامًا.. نجحت العمليات الجراحية في الجسم.. لكن الخلايا الدماغية كانت واقفة.. قعدت أقول له قوم يا أحمد.. مراتك بتسلم عليك. ولادك عايزينك، حصل ذبذبات في الجهاز المراقب.. رئيس هيئه التمريض كان مندهشًا جدًا.. خرجنا.. بعد دقيقتين كان.. مات".

(يبكي).

6 سنوات خطوبة.. كانت كافية لزهق أم العروس.. كافية لإصرارها على عدم الاستكمال.. فالشقة التي "قدّم" عليها "أحمد" لم تأت بعد..

مصاريف أسرته تلتهم ثلاثة أرباع مرتبه.. لكن إصرار ولاء القللي على عدم التخلي عنه.. وحبها له.. كانا كافيين لاستكمال المسيرة حتى لو كانت في شقة الوالد الإيجار بقرية "شطا".

ثوب أسود.. دموع لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد.. كلمات متقطعة.. ولاء زوجة الشهيد تتحدث: "كنا متفقين إن دي آخر سفرية.. إحنا متجوزين بقالنا 6 سنين.. لكن ما قعدش معايا شهرين على بعض، كان يطلع 3 شهور وإجازته يوم.. ييجي بالليل ويمشي الصبح.. قلت له.. ناكل عيش وجبنة بس ما تسافرش تاني، اتفقنا.. وكان كده كده جواز سفره هينتهي في شهر 7 اللي جاي، وعشان يطلع واحد تاني هتكلف الشهادات حوالي 7 آلاف جنيه".

تبكي.. "كان جاي بالليل الساعة 11 يوم الثلاثاء.. زمايله اتصلوا بيه قبل الفجر..لبس عشان يمشي.. وهو نازل قعدت أشده.. خليك شوية 4 مرات.. آخر مرة.. قلت له ما تسافرش.. عيّط.. خدني في حضنه 10 دقايق.. قال لي.. آخر سفرية، نزل.. طلعت البلكونة.. شاور لي.. باي.. باي".

تشتد دموعها.. :"ومات".

لحظات صمت متواصلة، ثم تستكمل: "بيسألني محمد بابا فين؟.. باقول له مسافر عند ربنا.. بس هيتأخر شوية.. هناك بياكل كويس.. ويشرب كويس".

تنطلق دموعها مرة أخرى: "وهو جاي.. وفي عربية الإسعاف ركبت معاه.. قعدت حضناه.. لحد ما نزل في عزبة البرج.. وخدوه على المقابر، طلبت منهم إنه يندفن بدبلة الجواز الفضة بتاعته".

تتماسك لتكمل: "صاحب العمل بعث لي شيكًا بـ 10 آلاف جنيه، سألنا عن التأمين.. قالوا لنا أيوه أحمد متأمن عليه، بس تأمين ضد إصابات العمل.. طب هو ما كان بيشتغل.. قالوا لا.. دي إصابة حرب.. ده اللي قالته الشركة الإنجليزية، تأمين البحار 175 ألف دولار..دا اللي نعرفه يبقوا 10 آلاف جنيه..إزاي؟".

صحيح.. إزاي؟ ألم يكن أحمد على السفينة وقت أن ضربها الصاروخ الإسرائيلي؟ الإجابه تأتي من مهندس ثاني السفينة محمد لبيب وأحد البحارة الـ11 الذين رافقوا أحمد في الرحلة: " كنت في وردية وسلمت الساعة 8.. الساعة 9 حسيت بزلزال.. النور قطع.. النار مولعة في كل مكان.. كان أحمد نايم جنب الماكينة اللي ضربها الصاروخ.. هو وحده.. قبلها كان معاه حسن أبو السعود.. طلب أحمد أنه يمشي لأنه عايز ينام.. قال له وهو بيهزر تقدر يا أبو علي تستأذن.. وبعدها انفجرت الكابينة.. النار شدت.. حاولنا نعمل أي حاجة لـ أحمد.. لكن الرمّاس (لانش مرافق السفينة) كان انخرم.. عرفت أن إسرائيل عرضت تبعت طيارة للإنقاذ.. رفض القبطان بتاعنا، طلعنا كلنا على بوز المركب.. بعد ما فشلنا في إطفاء النار.. جتلنا مركب سوري.. خدتنا على مستشفى سوريا ".

الساعة العاشرة مساء.

الظلام الحالك تمكن من عزبة البرج.. أحاطها..وتملك من شوارعها.. ومحمد ابن الشهيد أحمد يسأل خاله الدكتور محمد القللي عن حجرة الكمبيوتر.. أما أنا فأسأل على عنوان والد الشهيد ووالدته في بورسعيد.

"بعد ما تنزل بورسعيد.. خد تاكسى لحد المعدية.. وأول ما تنزل بورفؤاد.. خد تاكسي لحد جامع الشعراوي أنا هاكون مستنيّك".

قالها محمد عطية المحامي.. خال أحمد.

"والده مش قادر يتكلم.. وليد أخوه حالته النفسية صعبة.. أمه ما بتبطلش بكا ".. قالها خاله.

المشهد نفسه لم يكن في حاجة إلى كلام.. حالة من الصمت المؤلم المعجون بالحزن.. صمت.. يقطعه كل فترة صوت حزين لشخص يبكي.

عبارات متفرقة تأتي من الخال محمد عطية.."جاني خبر وفاته مع خبر نجاح ابني وطلوعه الأول في الثانوية العامة في بور سعيد ".

"الجنازة كانت عبارة عن حالة غضب ".

"مشوار الدفنة لو ماكنش قريب كانت اتحوّلت لمظاهرة ".

"إحنا قادرين نعيّش ولاد أحمد في أحسن مستوى..لكن أنا مش عايز حد يبقى ليه حاجة عندهم لما يكبروا ".

يدخل وليد عوض.. أخو الشهيد.. ملامح الحزن ترتسم على وجهه.. حالة اكتئاب حادة.. لم يخرج بعد من الصدمات والتفاصيل التي عاشها أثناء نقل الجثمان..و..

"أنا مش عايز غير حاجة واحدة بس.. عايز أقابل الريس".

يهدأ، ويستمر.. "السفارة المصرية في سوريا وقفت معانا وقفة محترمة، السفير حازم كان يكلمني وهو بيعيّط.. الناس في سوريا كانت بتيجي تسأل علينا.. فيه قبطان اسمه سعد طبالة..سوري، لا كان يأكل ولا يشرب، قاعد معانا وعمل حاجات كتير جدًا عشان تسهيل أخد الجثمان والإصرار على عمل تحقيق.. وخلص المسألة.. ما كانشي بيعمل حاجة غير إنه يفكر يساعدنا..إنما هنا في مصر..بعدما رجعنا..ما حدش سأل علينا..غير الإعلام..المسئولون اهتموا بالبحارة الناجين..لكن أخويا اللي مات ولا حد قال لنا البقاء لله ".

والدة الشهيد تدخل.. وفي يدها زوجها والد الشهيد أحمد..كل واحد منهم يحاول تهدئة الآخر.. في حين أن كل واحد منهم يفتقد القدرة على إيقاف دموعه.

الأم: بعدما ركب المركب كلمني في التليفون.. قال لي يا أمه عايزة حاجة؟ قلت له سلامتك يا بني.. قال لي.. لأ.. خلاص هاجيبلك ياميش رمضان ".

تبكي بحرقة.. الأب يقتسم معها نفس الدموع الساخنة.. أحاول التدخل.. الأب: "ما عنديش حاجة أقولها ربنا موجود ".

3 دقائق من الصمت.

الأم تتحدث :"كان بيقول لي يا أمه أنا بافحت في الصخر بإبرة..قال لي آخر مرة.. أنا هاخد الواد يوسف 3–سنوات – للدكتور، يوسف ابنه

العين الشمال ما بيشوفش بيها كويس".

تتمالك أكثر.."قال إيه المحافظ هيدّينا شقة.. قرينا كده في الجرايد، يعني الحكومة هتتكَرم على أحمد.. لا.. دي الشقه اللي دافع أحمد مقدمها من زمان.. مقدم فيها من 5 سنين وكل ما يروح يسأل يقولون له لسه دورك.. لحد ما جاله دور الموت".

آخر جملة قالها أحمد في مستشفى الباسل قالها للممرضة ونقلتها إلى وليد أخيه..كما هي.

"أنا عايز أموت شهيدًا.. بس نفسي أموت في بلدي.. خلّي بالكم من ولادي".

السابعه صباحًا

"اتنين مصر..مصر".. التباع ينادي.

"النهارده ما تسواش في الدنيا حاجة".. صوت المطرب الشعبي المنبعث من سماعات كاسيت البيجو!

معالي أصحاب قصر القبة

لو جرت الأمور كما يشتهي ساهر محمد محمود لأصبح مالك قصر القبة.. له الحق أن يتصرف فيه كيفما يشاء.

وهنا، لا أتحدث عن قضية سياسية، لكنني أتحدث عن وقف جده صالح باشا فهد الذي ترك له مع 89 فردًا آخر من أسرته 1715 فدانًا من بينها 294 فدانًا مبنيًا عليها قصر القبة وعمارات الشركة السعودية، الغريب أن القضية يتم تداولها في لجنة القسمة بوزارة الأوقاف منذ ما يزيد على 45 عاما ظلت تطارد جيلا وراء جيل بحلم "الوقف"، الأغرب "إن مافيش حد فينا خد باله من القضية"!

ماذا لو كسبها الرجل؟ خاصة أن الأوراق التي بين يدي الآن تؤكد أن الوقف من حقه؟ ثم ماذا لو أصر على تسلم قصر القبة رافضا أخذ بديل عنه؟

تبدو أسئلتي ساذجة.. لكن الحكاية في حد ذاتها تفتح شهيتي لتناولها، فهذا الوقف كونه الباشا التركي الأصل صالح باشا فريد عام 1819، هو وزوجته السيدة عائشة خاتون..ليصبح بعد مرور 150 سنة تقريبًا أكبر وأقدم وقف في مصر موزع على محافظات :القاهرة والغربية والمنيا وبني سويف..ويصبح استرداده من وزارة الأوقاف حلمًا يداعب أحفاد الباشا جيلاً بعد جيل.

ومنذ دخول قضية "الوقف"..لجنة القسمة بوزارة الأوقاف عام 1966، وأحفاد الباشا يحرصون على حضور الجلسات في انتظار الحكم..ربما يتحقق الحلم.

سنوات طويلة مضت..يدخل الأحفاد قاعة الجلسة في اليوم المحدد للحكم ويخرجون كما هم..فى أيديهم ورقة تأجيل للقضية..مره بـ 3 شهور ومرات بـ6، لتبقى حكاية الوقف معلقة كما هى..مجرد حلم خلق لهم حيرة بين ثراء فاحش ويوم يودعهم بالستر.

الحكم الوحيد الذي يعرفونه جيدًا هو ما صدر من لجنة القسمة الثانية بوزارة الأوقاف في جلسة عقدت في 22ديسمبر 1966، والذي جاء فيه أن "وقف صالح باشا فريد عبارة عن أطيان زراعية وعقارات مبنية تبلغ 1715 فدانًا، منها 294 فدانًا بتفتيش القبة، و616 فدانًا بتفتيش رشدي، والبقية موزعة بين محافظات الغربية والمنيا وبني سويف.

ويعد هذا الحكم هو الوحيد الذي استطاعت أن تؤكده لجنة القسمة بالأوقاف، من قبل قامت الوزارة بتسليم المستندات اللازمة للسير في

إجراءات القسمة بين الورثة..كما انتدبت خبيرًا لمعاينة تلك الأعيان وإعداد مشروع قسمة له.

قدم الخبير تقريره في 27 نوفمبر 1963، ليؤكد فيه تعذر قسمة حصص الأوقاف في كل من أطيان تفتيش القبة ورشدي واضعًا سبب أن الحصص تقع شيوعا مع حصص أخرى، كما استبعد 4 أفدنة من مساحة الوقف في أماكن مختلفة لأنها تقع في وقف الخير أو في أوقاف أخرين، وقد تم اعتماد تقرير الخبير وقتها.. لكن الورثة قدموا اعتراضًا إلى لجنة القسمة في جلسة 22 ديسمبر 66 في المادة 39 وقف صالح باشا فريد.

الاعتراض الذي أدى إلى عقد جلسة أخرى بدار القضاء العالي يوم الثلاثاء الموافق 30 يونيه 1969.. وهي الجلسة التي أعادت الحلم مرة أخرى إلى الورثة، بعد أن قضت بأن "ما قضت به اللجنة من تعذر قسمة الوقف في أطيان القبة ورشدي لشيوعها في أوقاف أخرى لا يرتكن على أساس وأنه من الممكن قسمة نصيب هذه الأطيان".

وقررت إحالة أوراق القضية إلى مكتب خبراء وزارة العدل لمعاينة الأطيان وقسمتها بين المستحقين. وحدث وجاءت بوادر القسمة وتسليم الوقف لأصحابه..حينما حصلوا على نصيبهم من أطيان طنطا – غربية. لكن.. توقف كل شيء في أطيان رشدي والقبة – التي يأتي ضمنها قصر القبة – وعجز الورثة عن استلام الإرث..وامتنعت وزارة الأوقاف عن إفادتهم بأية معلومة جديدة.

الورثة، رفعوا العديد من الدعاوى لعل أكثرها كان بين عامي 1978

و1980، وظلت هيئة الأوقاف كما هي ساكتة، حتى اكتشف الورثة أن هيئة الأوقاف قامت بالإعلان الباطني عن بيع جزء من أطيان القبة عام 1977، وأعلنت الشركة السعودية المصرية للتعمير (من خلال مكاتبات متبادلة مع الهيئة) رغبتها في شراء 52 فدانًا من أرض القبة ستقوم باستغلالها لإقامة حي سكني متكامل، وأن الشركة تريد أن تحظى باهتمام عاجل بالموافقة على بيع هذه الأرض وتحديد السعر المناسب.

وفي 19 يناير 1978 قامت هيئة الأوقاف بتوقيع عقد بيع بين الهيئة والشركة السعودية على أساس أن الأرض مملوكة للهيئة.

وتم البيع كما هو ثابت في العقد على أساس المتر بـ 30 جنيهًا، على أن تستلم الهيئة 500 ألف جنيه أثناء توقيع العقد ويسدد باقي الثمن خلال 3 أشهر من تسجيل العقد وإلا يعتبر العقد مفسوخًا من تلقاء نفسه.

جاء البيع كعقده أخرى للحكاية..حين وقف حائلا دون تحقيق حلم الورثة خاصه أن الشركة قامت ببناء 3 آلاف وحدة سكنية باعت الواحدة منها بـ 100 ألف جنيه، بخلاف المحال التجارية والوحدات الإدارية والتى باعتها أيضا ليبلغ السعر الإجمالي الذي حصلت عليه الشركة30 مليون جنيه.

..وبهذا ازدادت المسألة تعقيدا..لكن حدثت مشكلة أكبر بين الشركة وهيئة الأوقاف حين لم تقم الشركة بتسجيل الأرض أو دفع باقي المبلغ المكتوب في العقد، فأرسلت الهيئة عام 1994، مكاتبات للشركة تطالبها

بتسديد المبلغ الباقي بعد مرور 17 سنة، لترد الشركة بأن الهيئة لم تقم بالتسجيل..ومن مكاتبة إلى أخرى لا تزال المشكلة قائمة.

أما أحفاد صالح باشا فريد، فوجدوا أنفسهم داخل دائرة طويلة سحبتهم إلى أماكن عديدة..لكنهم لم يتخلوا عن إقامة دعوات قضائية متتالية.. اتهموا فيها الهيئة بإبرام عقد بيع باطل والادعاء بأن أطيان القبة وقف خيري وأنها اعتدت على أملاك الغير دون وجه حق وقبضت الثمن!

وما زال الأحفاد يطالبون في دعواهم - التي يتولى إقامتها جيل بعد جيل - بالتحقيق في الواقعه السابقة وتسليمهم وقفهم.

هذا عن أرض القبة.. لكن ماذا عن باقي الوقف؟

يقول ساهر محمد محمود، أحد الأحفاد الذين تسلموا الراية لتحقيق الحلم، وصاحب شركة أدوية في طنطا: "الهيئة تحرس الأوقاف وتديرها مقابل حصولها على 3 % من المبالغ التي تحصلها عنها، والهيئة أرسلت لنا 13 ألف جنية هذا العام 2007، عن هذه الأطيان لمدة 5 سنوات من 2002 إلى 2006 تخيل 13 ألف جنيه، نكتة أليس كذلك؟ النكتة الأهم أن البنك رفض صرفها أيضا على أساس أن الأسعار قديمة، مضى عليها أكثر من 100 سنة وقدر على أساسها أن سعر الفدان بـ 1200 جنيه.. لا عايزين يسعّروا الأرض ولا عايزين يدُّونا حقوقنا ".

أسأل ساهر..مازال لديك الأمل؟

يرد.."طبعا، وهفضل ورا حقي، لغاية ما آخده ".

يعني إنت عايز تاخد قصر الرئاسة؟

.."بلاش قصر الرئاسة..ده برضه رمز لمصر كلها..بس يدوني بداله.. يدوني حتى أرض في الصحرا المهم يدونى حقي ".

إنت عاصرت جدك الباشا ده يا عم ساهر؟

.."عاصرت منه شوية نياشين لقيتهم في البيت بس ضيعتهم..كنت أشتري بيهم بسبوسة" (يضحك).

الحكاية فعلا تدفعك للضحك..كما تدعوك أيضًا للتفكير وأنت تشم منها رائحة الفساد الممزوجة بالحلم.

وأسأل ساهر..لسه عايز الوقف؟

ويرد بثقة: "أنا وراه طبعا، ولما أكسب قضية وقف جدي صالح باشا فريد هادخل على وقف زوجته السيدة عائشة خاتون ووقف أختها زينب التي لم تتزوج و لم تنجب فكان من نصيب جدتي السيدة عائشة".

ميت خاقان.. لتصدير الموتى إلى إيطاليا

من المسئول؟

من ذلك المجرم الذي يشير لهم على الشط التاني.. يحرّضهم عليه.. ويجلس ليفصل لكل واحد منهم كفنًا جاهزًا للاستخدام في أي وقت أثناء الرحلة؟

أحلامهم.. أم اليأس والإحباط الذي يلتف حولهم؟ أنفسهم المتمردة.. أم الحكومة التي فقدت السيطرة على البطالة..فتركتها لتبعثر كل الخطوط التي رسموها للمستقبل في كشاكيل أحلامهم القديمة؟

المجتمع الذي مازال "ينشّف" رأسه ويصر على أن تكون الشبكة بكام ألف والشقة كام أوضة، والبنت أختها اتعمل فرحها في المكان الفلاني.. أم سماسرة الهجرة الذين اتخذوا من أرواح البني آدمين تجارة مكسبها مضمون؟

الإجابة، على بعد 60 دقيقة من القاهرة.. موجودة هنا في قرية اسمها "ميت خاقان"/ شبين الكوم /منوفية.

ابتسم وأنت تدخلها، وحاول الابتسام - إذا استطعت - وأنت خارج.

10 دقائق مشيًا تتحول بالتاكسي إلى 3 دقائق بالضبط، إنها المسافة الزمنية التي تفصل بين "شبين الكوم" و"ميت خاقان"، في الأوراق الرسمية مازالت تحمل اسم قرية، على أرض الواقع تتشابه معظم مبانيها وعماراتها مع أي مدينة أخرى، الاختلافات بسيطة جدًّا تجدها في تلك الشوارع الضيقة التي تتغلغل داخل القرية في خيوط معقدة.. متشابكة.

اختلاف آخر يفاجئك وأنت تمضي بين شوارعها، تجده بين كل مسافة تراصت فيها العمارات الخرسانية..متجسدا في منزل ريفي.. وقفت بجوار بابه "جاموسة".. ليكسر لك حدة المباني الخرسانية..ويذكِّرك أنك داخل قرية..وكأنه يدافع عن هويتها الريفية..ثم كتل من البيوت الريفية الأخرى التي هجرها أصحابها.

"ميت خاقان "، اسم غريب لقرية نصف عدد سكانها - أو ما يزيد بقليل -مسيحيون والباقي مسلمون، وهى واحدة من القرى المصرية التي تعرف باسم "ميلانو" بعد أن هاجر ثلاثة أرباع شبابها، أو ما يزيد إلى إيطاليا.

والآن..إذا طرقت أي باب بها أتحداك..أن تجد بيتا واحدا فقط لم يسبق لأحد شبابه أن جرب السفر..الحلم الذي يولد مع ميلاد الصيف من كل

عام، حلم يحتاج إلى 7 آلاف جنيه مقدمًا وقدرة على المغامرة..على تحمل الإهانة، على صراع البحر..على مواجهة الموت في أي لحظة.

منذ 6 أسابيع.. والسماسرة يتفقون على وجوه جديدة تسافر.. 6 أسابيع فقط خرج فيها حتى الآن 5 رحلات إلى ليبيا أملا في الوصول إلى "إيطاليا" كل رحلة بها من 40 إلى 60 شابًا. 5 رحلات..تم القبض على 3 منها في ليبيا ينتظر شبابها الآن الترحيل أو السجن.. رحلتان في التخزين..ينتظران دورهما في ركوب المركب.

رغم أن دموع أم محمد التي لم تجف بعد..تعرفها؟

منذ 10 شهور ودموعها لا تتوقف، تتسلل إلى بيتها أشعة الشمس لتعلن عن ميلاد يوم جديد..وتعلن أيضا عن ميلاد دموع جديدة على محمد.. ابنها..ضناها..الذى خرج و لم يعد. رغم أنه وعدها بالرجوع.. قال لها أيضا: إنه بمجرد أن يصل لـ "إيطاليا" سيتصل بها..ليطمئنها، ليخفف عنها وحدتها.

لكن الذي حدث أن محمد سيد أحمد أحمد عتمان، المولود في 21 فبراير 1981 لم يعد. وأن الاتصال الذي وصل إلى والدته..وصلها من أحد أصدقائه، وبدلا من أن يطمئنها، وبدلا من أن يخفف عنها وحدتها حسب الاتفاق السابق، جاء ليؤكد أن محمد مات وهو يحاول أن يضع خطوته الاولى على الشط الثاني..صدمت رأسه قطعة حديد في المركب القديمة أثناء مصارعة الركاب للموت وهم عليها..و..

ما زالت تبكيَ.

"كل اللي بترجاه منكم..شهادة وفاة لابني.. أبوس إيديكم عايزة شهادة وفاة.. طب أروح فين".

اسمها مديحة إبراهيم سلطان. 58 سنة، زوجها توفي منذ سنوات.. تاركا لها 320 جنيها معاشًا شهريًا..و4 أبناء.. والبيت الذي تقيم به دون أرض.. دون زرع.. ومحمد هو ابنها الأصغر.. وهو.. "واخد كلية التجارة.. خلص جيشه وقعد.. ما لقاش شغل، راح الغردقة شهرين مالقاش شغل ورجع تاني لقى أصحابه بيتفقوا مع بعض على السفر.. وكل واحد منهم بيستلف فلوسًا علشان يديها لـ عصام الليبي و...".

تبكي.."طلّع الجواز وتصريح السفر من غير ما أعرف وفي يوم لقيته بيجهز شنطته قلت له يا ولدي بتعمل إيه..قال لى يا أمى ادعيلي، قلت له روح يا ولدي ربنا يسهلك طريقك خير؟ قال لي أنا مسافر ليبيا؟

ليبيا.. يقطع ليبيا وسنين ليبيا، مين شار عليك الشورة دي.. لا ما تروحش.. اقعد يا ولدي آدينا بناكل وبنشرب وربنا بيسترها.

قال لي سيبيني يا أمي أشوف حالي.. هاقعد في البلد الفقرية دي أعمل إيه.. والناس بتروح وتيجي مافيش حاجة، ادعيلي يا أمي.. ولا عايزاني أقعد جنبك.. ما إنت عارفة الحكاية".

هي فعلا كذلك تعرف الحكاية.

تعرف أن الذهاب إلى ليبيا يعني الذهاب إلى الموت.. ومع ذلك حضنته.. ودعت له.. وخرج في 29 يونيه 2005.

"شنطته كان واخد فيها تي شيرت رصاصي وبنطلونًا جينزًا وقميصًا وغيارًا واستلف 21 ورقة من اللي اسمها "يورو" دي، كان سالفها من واحد في البلد..ومات".

دموع.

"واحد اسمه وليد الجدع من البلد من هنا، كان ماسكه لما خبطته الحديدة.. قال له مش هاسيبك يا محمد.. قال له لا.. اجر إنت لأحسن الشرطة تمسكك، ونطق الشهادتين.. ومات في شهر 9 اللي فات.. بهدومه.. لا بيغسلوا ولا بيكفنوا.. ولا بيعملوا حاجة.. والله أعلم إن كانوا صلوا عليه ولا لأ ".

ما سبق هو حصيلة معلوماتها عن محمد.

معلومات غير مؤكدة.. المؤكد لديها.. "رحت السفارة عشان أطلّع شهادة وفاة.. قالوا لي هيجي وسمعت أن المحكمة حكمت له هناك أنه يروّح.. وقالوا لي أصحابه إنهم بيجمعوا فلوس مع بعض عشان ينزّلوه.. ميت من 9 شهور.. هيبقى فيه جسم ييجي، أنا عارفه أنه مش جي.. يدوني بس شهادة وفاته.. كل اللي بترجاه من ولاد الحلال شهادة وفاة ".

مات.. أخدت فيه العزاء.. وصلت عليه "ميت خاقان "صلاة الغائب و..

لكن كيف مضت الرحلة بـ"محمد"؟ وكيف تمضي بشباب "ميت خاقان" إلى إيطاليا؟ ما أسماء السماسرة الذين يجمعون الفلوس.. من يشترك معهم ومن.. ومن.. ومن؟

منذ أسبوع عاد إلى القرية.. بعد أن فشل في استكمال الرحلة التي بدأت منذ عام.. وخسر معها 7 آلاف جنيه.. و4 شهور سجنًا في ليبيا وقبلها 35 يومًا تخزين، صارع فيها الموت أكثر من مرة..الموت الذي ترك له طعنة خنجرٍ في إحدى قدميه. لم تكن رحلة عماد حمدي أبو السعود، العائد ترحيلاً من ليبيا هي الأولى ولن تكن - كما قال لي - الأخيرة. عماد 26 سنة، دبلوم صنايع دفعة 98 و..

"كنت شغالاً في فرن عيش، وأول مرة أفكر في موضوع السفر ده كان سنة 2001، كان سفرًا رسميًا دفعت فيه 16 ألفا راحت عليا، كنا هنسافر إيطاليا من روسيا.. كنا 4 شباب سافرنا لحتة اسمها "مولدوفيا"، ورجعنا تاني من هناك بعد 9 أيام، بعدما شطبوا هناك على التأشيرة بالقلم الأحمر".

الصيف الماضي قرر عماد أن يكرر التجربة..أن يخوضها هذه المرة بالطريقه غير الشرعية. "اتفقت مع محمد الصاوي - سمسار - على 7 آلاف جنيه وبعد التعديل بقوا 9 آلاف.. وحسب الاتفاق الرحلة بتبدأ من ليبيا.. يستلموني هناك في طرابلس، وفعلا طلعت من هنا في تويوتا لحد طرابلس، وخدوني هناك على فندق اسمه "الأندلس" في الساحة الخضراء، وفيه مننا ناس راحت فندق تاني اسمه "العالم العربي" قعدنا هناك 15 يوما.. المعاملة عادية لحد هنا.. أو لحد ما خدونا على التخزين.

تخزين؟ سألته ليوضح لي.."عنبر بتاع فراخ في الصحرا..بيستخدموه لتخزين الناس لحد ما ييجي دورهم في السفر..ممنوع تطلع من المكان دا خالص، قعدنا فيه 35 يوما ما شوفناش شمس، ما كانش فيه حمامات.. عملنا حمامين لنفسينا، ماحنا معانا سبّاكين وبنايين ".

أمين مرعي بدر، 32 سنة- دبلوم صنايع دفعة 91، متزوج ويعول. شارك عماد نفس التجربة، تجربة السفر غير الشرعي.. اقتسما نفس الفكرة ونفس الصراع وإن اختلف اسم الرحلة وتوقيتها. معهما.. بولا الأسمر، 17 سنة، الثلاثة قاموا بالمغامرة.. عاشوا أيامها.. وتحدثوا عنها سويا.

أمين يتحدث: "فى التخزين..كل شيء مباح، ضرب..تعذيب..قتل.. وحاجات تانية ما ينفعش تتقال ".

ليه؟ أسأل.. ويجيب "فيها إهانة ليّا "!

بولا : "ساعة ما رحنا كنا 36 واحدا من "ميت خاقان"، ودخل معانا المخزن 250 مصريا، وكان فيه ناس من غانا وبنجلاديش..بس مقارنة بالمصريين..العدد بتاعنا كان ضعفهم ".

أمين: "بس فيه حاجة.. قبل ما نطلع من مصر أصلا لازم نمحي أي حاجة عليها اسم مصر.. نشيل "التكيت".. ما ينفعش تاخد معاك فانلة قطن.. الغيارات القطن معروف أنها مصرية".

عماد : "لو وصلت شاطئ "لامبادوزا" في إيطاليا واتعرف إنك مصري..

هترجع.. هناك بتقول إنك فلسطيني أو عراقي أو حتى من نيجيريا أو جنوب إفريقيا.. لأنها دول لها حق اللجوء السياسي ".

بولا: "أول ما بنوصل ليبيا أصلا بنسلم الجواز، بس تعرف دلوقتي إنهم بيعرفونا منين.. من حقنة المدرسة "التطعيم " اللي في الدراع، أصل مصر البلد الوحيد اللي بتدي الناس الحقنة في المنطقة دي ".

نعود إلى التخزين.. ما الذي يحدث هناك..ها تكون عليكم حراسة؟

أمين يجيب: "فيه عربيات حراسة علينا ماسكة الطرق..وحراسة حوالين المخزن..فيه ناس أصلا ماتت معانا في المخزن بسبب المشاكل اليومية على الأكل والنوم".

بولا: "في اليوم بيِّدوك رغيف فينو وحتة جبنة وبيسلموك شيكارة رز، مالهمش دخل تطبخها إزاي؟ ولا هتتوزع إزاي على 600 واحد، بتوع إفريقيا معاهم دايما خناجر..ماحدش يعرف يتكلم معاهم ".

عماد: " أحيانا بتعمل حمام وتشيل مطرح ما خلصت، كفاية أقولك انك بتقعد أكثر من 35 يومًا مفيش نقطة مية تلمس جسمك "!

كل واحد من الثلاثة..يذكر الآخر..ينقله من موقف إلى موقف..من مأساة تخرج مرة ممزوجة مع ضحكة..فى صيغة سخرية.. في شيء من الألم.. في..

عماد: "بعد ما أخدت الـ35 يوما، بييجي "قلاب" بيحمل كل 100 نفر مع بعض.. الناس فوق بعض كأنك بترص بيض.. فيه ناس كانت بتموت..

دا غير وإنت طالع الضرب والشتيمة.. بيعاملوك معاملة الغنم".

أمين : "الغنم ليها كرامة.. صاحبها بيخاف عليها من الموت.. إنما البني آدمين هناك.. اللي يموت يترمي في الصحراء.. مالوش دية".

بولا: "القلاب بينقل الناس من المخزن الكبير إلى مخزن تاني صغير على بعد حوالى 3 كيلو مترات من البحر، وعملية النقل حتى الوصول إلى شاطئ البحر وتحرك المركب تتم من الساعة 12 بعد نص الليل ولغاية الساعة 3".

عماد: " في يوم النقل أصلا بيتفق السماسره مع شركة الكهرباء وشرطة السياحة على قطع النور".

بولا: "بعد ما توصل المخزن الصغير..تتقسم الناس لـ3 مجموعات..كل مجموعة ياخدها دليل.. ودليل يسلمك لدليل تاني، لحد ما توصل البحر.. والدليل هناك بيمشي على ضوء الموبايل وإشارته، والدليل ده بيكون عيل صغير يعني عنده مثلا بتاع 16 سنة".

عماد :"على الشط.. بيكون واقف لانش صغير عشان ينقل الناس للمركب الكبير "اللانش " كل مرة يركب على اللانش 20 نفرًا اللي يوقع وهو بيركب ما حدش له دخل بيه ".

مراكب انتهت صلاحيتها.

أمين : "سماسرة الهجرة في ليبيا واللي معروفين باسم حسن وفولكس وبشار، وبالمناسبة دي أسماء وهمية.. ما عدا فولكس اللي بيشتغل في

مكتب الجوازات الليبي، اسمه حقيقي، السماسرة دول بيشتروا المراكب المنتهية الصلاحية.. المركب بحوالي 50 ألف جنية، بتطلع على الشط بتاخد "ستوك" معجون مع لاكيه، فتبان إنها جديدة، وعلى فكرة معظم المراكب دي متاخدة من هنا.. من مصر".

بولا: "إحنا ركبنا من حتة اسمها "زوّارة"، وفية حتة تانية اسمها "الزاوية" فيه ناس بتركب منها..دول المكانين اللي بيتحرك منهم الناس للمركب، والمشكلة إن حمولة المركب الأساسية 100 نفر، هي كلها على بعض 16 مترا..لكن تفاجأ أن السماسرة بيحملوا عليها 300 نفر ".

أمين : " المركب اللي أنا طلعت فيها كان ارتفاعها متر..لكن لما طلعنا عليها كان المتر ده اختفى بعدما اتحركنا شوية المركب فتحت من تحت.. القبطان كان مصري.. بعد ما مشينا شوية في المية زادت في المركب.. لف ورجع تاني.. أنا كنت تحت.. المية وصلت لرقبتي.. اتشاهدت.. وسبت الأمر كله لربنا، بعدها بشوية لقيت ضوء كشاف كانوا بيشوفوا فيه ناس تحت ولا لأ فتحوا خرجت أجري.. ما لقيتش حد على ظهر المركب.. كله بيجري، الصدفة بس هي اللي أنقذتني من الموت، طلعنا.. خدو شوية مننا على المخازن مرة تانية.. ناس تانيه تم القبض عليها واترحلت ".

عند الشاطئ الليبي وقفت رحلات عماد وأمين وبولا.. دون أن تكتمل، المأساة تزداد إذا اكتملت.. ففي حالة الوصول إلى إيطاليا.. إلى شاطيء "لمبادوزا" أو "سيسليا".. بمجرد الوصول إلى هناك يمضون جريًا في الغابات لمدة 3 أيام متتالية.. 3 أيام جريًا متواصلاً حتى الوصول إلى

الكوايتة والتوانسة الذين يعيشون في تلك المنطقة.. والذين يستقبلون المهاجر ليقوموا بالاتصال بأهله.. بأحد أصدقائه.. أو أقاربه.. أو معارفه.. أو بلدياته ليضع باسمه في البنك 300 يورو على الفرد، والمقابل.. استقبال هذا الفرد ومضايفته..ليحلق ذقنه..ويبدل ملابسه، ويأخذه من يده حتى أقرب قطار إلى إيطاليا، بعد أن يكون ساعده في الهرب من الصليب الأحمر والشرطة الإيطالية..ليذهب إلى الحلم.. عاملاً في شركة نظافة!

إنها المهنة التي يعمل بها الشباب المصري لمدة 6 شهور متواصلة، حتى يتقن اللغة الإيطالية ويستطيع أن ينتقل إلى مهنة أخرى أكثر رقيًا، وإذا لم يعمل زبالاً يعمل في المعمار، والمقابل الشهري 1000 يورو، واليورو يساوي 7 جنيهات ونصف الجنيه تقريبًا.

وبعد أن يتعلم اللغة، وبعد أن ينتقل إلى مهنة أخرى، يصبح المرتب 3000 يورو × 7جنيهات ونصف الجنيه، الناتج = ما يزيد على 22 ألف جنيه..هل يغنيك هذا السعر عن كرامتك يا عماد..عن صراعك للموت يا أمين..عن مغامرتك بحياتك يا بولا؟

أمين بمرارة يحاول الإجابة: "كنت باشتغل شغلانة في شركة 12 سنة وصل مرتبي فيها لـ 300 جنيه، خده أنت وقسّمه على الشهر وقُل لي إزاي تفتح بيها بيت.. تصرف على مراتك وبنتين ووالدتك.. قسّمه عيش بس.. مش هاقولك لبس وسكن ولا هاقولك أنا لسه باكوّن نفسي عشان أبدأ، تعرف.. الشهرين اللي فاتو دول رحت أجيب قرضًا بتاع الشباب الـ 20 ألف جنيه عشان أعمل مشروعًا.. وخدت معايا عقد البيت..

مضّيت أخواتي على توكيل، عشان يبقى البيت ضمانًا للقرض، قالوا لي عايزين كمان 2 موظفين وعايزين يحولوا مرتباتهم للبنك ويقبضوا من هناك عشان هيضمنوني.. طب مين الموظف العاقل اللي يجيب لنفسه وجع الدماغ".

عماد : "أنا خاطب بقالي 8 سنين وفسخت قريِّب على فكرة، كنت باشتغل هنا في أي حاجة علشان أسقّف شقتي، حسبت من 5 سنين تكاليف "الصبة الخرسانية طلعت 4 آلاف جنيه.. دخلت جمعيّات حوّشت الـ4 آلاف ولما جيت أسقف لقيت السقف هيتكلف 8 آلاف.. الحديد زاد من 1400 جنيه إلى 3200 جنيه، أنا لو متأكد إني هاموت.. هاموت وعندي فرصة سفر.. هسافر.. الموت صدقني أحسن بكتير".

بولا: "لما تلاقي واحدًا في سنك سافر.. وهو مش لاقي ياكل، وبعد سنتين رجع.. بيعامل الناس بـ "تناكة"، وبيتعامل معاهم من فوق.. يبني عماره.. ويشتري عربية.. ويتجوّز واحدة عمره ما كان يحلم بيها.. يبقى لازم تسافر.. مش عايز أبقى أقل من أي حد".

شيء ما خطأ.. أقرب للانقلاب الاجتماعي. انقلاب يقول عنه عم سمير – صاحب – محل تجاري – : "هنا ولعت.. قيراط الأرض الزراعية وصل لـ 15 ألف جنيه، وقيراط المباني وصل إلى 300 ألف والسبب.. إيطاليا، من يومين سمعت واحد بيقول أنا هطلق مراتي.. صاحبه قاله يابني المؤخر كبير عليك.. رد عليه: يا عم هييجي شهر شغل في إيطاليا"!

السفر إلى إيطاليا أصبح جنونا.. "الكل عايز يسافر، عيل من الشباب

الصغير كان بيكلمني من فتره قال لي: أنا هابيع الجاموسه.. ويا أعدي.. يا أموت".

الجميع في "ميت خاقان"يبحث عن السفر.. يفتش عنه مع أي طريقة.. وكل يوم هناك حيلة جديدة لذلك.. لم يكن آخرها – ولن تكون– الهجرة مع الفرق الموسيقية، لقد دخل القرية أخيرًا سمسار جديد يسمى "ميمي" يقوم بمساعدة الشباب على الهجرة يسفّرهم في فرق موسيقية.. لعل أشهرها فرقة المطرب "حكيم".

ليست "ميت خاقان" وحدها..لقد أصاب قرى "شنتينة" هوس شراء أراضي قرية "جنزور"، الأرض التي كانوا يعملون فيها قديمًا.

إنها عقدة أفرزتها فلوس إيطاليا.. ودخلت بأصحابها في نزاعات مستمرة. فى مصر قرى أخرى تتآكل بسبب إيطاليا. الجوسق، وميت جابر، وشبرا النخلة، وعزبة هارون بمركز بلبيس في محافظه الشرقية، ميت ناجى، تطوان، شبراملس.. تلبانة..كفر عوض.. السنيطة.. الناصرية.. إبراش.. كلها قرى مصرية يحكمها اليورو الإيطالي.

الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء يؤكد أن في إيطاليا 90 ألف مهاجر مصري.

وزارة الخارجية تقول إنهم 210 آلاف مصري والفرق بين الرقمين يمثل الهجرة غير الشرعية.

والسؤال للمرة الأخيرة : من المسئول؟

الصلاة في مسجد حنّـــا

في عيد الغطاس كانت تقول: "يا وليدي روح هات عود قصبك واعمل صليبك من دلوقتي قبل الليل ما يليّل"، وفى رمضان كانت تقول: "النايب ده بتاع عمك ميشيل هو يحب اللحمة الملبسة.. اوعى الصينية تتكب من على راسك.. ارفعها من قدام".

الآن افترقنا.. لم أعد أخرج بعود القصب والصليب، ولم يعد يأتي عم ميشيل لإفطار أول يوم رمضان عندنا، ولم تعد جدتي تنصحني.

هي نسيت، وعم ميشيل النصراني نسي، وأنا نسيت.. حتى ذهبت إلى طنان –إحدى قرى محافظة القليوبية– لأجد مسجد حنا الذي بناه واحد من بهاوات الزمن الجميل قبل أن يشرع في بناء الكنيسة التي يصلي فيها.

أهالي "طنان" لم ينسوا.

رغم أن اللافتة التي وضعتها وزارة الأوقاف كُتب عليها "المسجد

الكبير"، رغم أن حنا بيه مات ومرت على وفاته 89 عامًا..ورغم أن أولاده وأحفاده تركوا السرايا بعد أن اعتبرتها وزارة الآثار جزءا من تاريخ مصر.

رغم كل هذا مازال الناس يرددون "قصدك جامع حنا بيه اللي بناه النصاري".

الكادر مختلف.."لسعة" الهواء الممزوجة بنكهة الزرع الأخضر والترع.. ولد بداخلك إحساس بالألفة، الوجوه التي أخذت من لون الأرض سمرتها.. تقول لك "خليك حدانا.. البلد دي أحسن من العمارات والزحمة وعساكر الأمن المركزي".

عم إبراهيم عطية إبراهيم، 69 سنة، مزارع، يحكي لك حكاية "حنا بيه" صاحب الوقف الذي بنى أول مسجد للمسلمين قبل أن يبني الكنيسة التي كان يصلي فيها.

" ما حصّلناش إحنا حنا بيه..بس كانوا يحكون لنا عنه".

يحكون عنه.. "كان راجل طيب..كان ماسك البلد كلها أيام الملكية.. كان معاه 800 فدان وكل الأراضي اللي إنت شايفها دي كانت الوقف بتاعه".

ويحكون عن مسجده.."هو اتبنى سنة 05 - يقصد 1905 -، كان حنا بيه بيجيب بنايين وياخدوا فلوس منه ويتغدوا عنده"، وهو"مابناش الكنيسة..بنى الجامع بس..الكنيسة اللي بناها حفيده فهيم بيه خليل".

ومن فهيم "بيه"هذا؟. سؤال أجاب عنه عم مختار سرور، 55 سنة، "مسك

العمودية بعد حنا بيه..بنى ضريح الشيخ البنهاوي والمسجد بتاعه وعمل الكنيسة".

وفي البلد 36 مسجدًا، و..كنيسة واحدة.

و"الشيخ البنهاوي ده راجل بركة.. فهيم بيه عمل له الضريح ومن ساعتها البلد بتعمله مولد يوم 10 شعبان ".

"ناس زمان ما يتعّوضوش..ماكانش فيه حاجة اسمها مسلم ونصراني.. كله خالط مع كله..لما يكون فيه جنازة هنا أو هنا تلاقي الناس كلها مع بعض ".

والآن "دلوقتى ماعدش حد بيروح ولا بييجي..كل واحد بيقول ياللا نفسي..والناس خلقها ضاق ". لم يبق في "طنان " غير السيرة العطرة لرجل مسيحي إقطاعي يدعى "حنّا خليل شويل" توفي عام 1917، تاركًا حكايات متناقضة عن المسجد الذي بناه، والسرايا..المبنى الذي يدخل بك أفلام الماضي..يسحبك إلى "رد قلبي"وكأنك جزء من أبطاله.. غير أن التراب الذي حاصره من كل جانب والقطع التي وقعت منه على الأرض والأشجار التي اصفرت أوراقها تذكرك بأن شيئا ما خطأ..تؤكده لك تلك المباني العشوائية التي أحاطته من كل جانب..وتلك العلاقة المرتبكة التي بدت تطفو على لغة البسطاء بعنصرية موجودة، وإن ادعى البعض اختفاءها.

حكايات متناقضة عن حنّا خليل، حاول جمعها في خيط واحد حفيده لواء متقاعد شاكر نصيف بقوله: "هو كان عمدة البلد ورئيس لجنة

الشياخات اللي مهامها اختيار العمد، وكانت زمان البلد إيد واحدة مسلمين ومسيحيين.. أية قضية كانوا يلجأون فيها لحنا بيه.. ماكانشي فيه قضية توصل للشرطة عشان ما تعملش حساسية بين الناس ".

"وهو بنى المسجد وكان باسمه – جامع حنا بيه– بدأ في بناء المسجد مع بناء الكنيسة وكان العمال يعملون هنا وهنا ويتقاضون أجرهم منه، وانتهى من بناء المسجد والكنيسة معا عام 1905، وعمل لهما "وقفيّة" خصص من خلالها 64 جنيهًا للمسجد..للأوقاف الإسلامية، و100 جنيه للكاتدرائية تستمر مدى الحياة، ويتم دفع هذه المبالغ حتى الآن، كما خصص للوقف ناظرًا يكون كما جاء في الوقفية..الابن الأكبر.. فالأرشد..فالأرشد..فالأرشد..إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ".

تغير اسم المسجد بعد أن تسلمته وزارة الأوقاف والتي رأى المسئولون فيها وقتها أنه من الأفضل تغييره إلى "المسجد الكبير " لكن "الوقفية" مسجلة كما هي والناظر لا يزال موجودًا.

مكرم نصيف..ناظر الوقف. يتحدث الآن: "البلد كلها شاركت في بناء المسجد، حنا بيه هو اللي اقترح الفكرة وكان بيتولى مهمة شراء المواد الخام، يدفع أجور الصنايعية والعمال من أهل البلد كانوا يشتغلون في الجامع يومًا والكنيسة يومًا..ثوابًا لله".

وحرص حنا بيه حتى وفاته على عمل مائدة رحمن بخلاف مبنى "التكية" الذي يعمل طوال العام مقدما الأكل والإقامة لكل عابر سبيل أو ضيف قادم على البلد.

انتهت التكية منذ سنوات، أما مائدة الرحمن فلم تختف من طنان إلا منذ عامين فقط بعد أن انشغل الأحفاد، كل واحد بعمله في القاهرة.

ضريح البنهاوي والمسجد الملاصق له تختلف حكايته كثيرا عن حكاية "جامع حنّا" حكاية نعود فيها إلى الحفيد لواء شاكر نصيف.

"فهيم عمل أساس المسجد وطلّع المباني فقط، وتوقف عند هذا الحد بعد أن سلم المجلس العرفي المسألة، على أن يستكمل ما يفشل في عمله المجلس للمسجد، وقتها شارك معظم أهالي القرية في التبرع للمسجد.. منهم من كان يتبرع بـ 1000 طوبة أو طن أسمنت والباقي يأتي من الفلوس التي يتم تحصيلها من حل المشكلات في الدوّار.. من خلال صندوق كان يتولى مهمته رجل يسمى الشيخ حسن غنيم".

مات حنّا بيه، وأحفاده في الطريق إلى النسيان، بالضبط مثلما أنا نسيت وجدتي وعم ميشيل.

الفصل الثاني

أرزاق

"وصبحت ندمان..
وشربت المرار في الحال
من ميلة الضهر..
مش قادر تقف على الحال
أوصيك وصية يا فقير الحال
لو ضاق بيك الحال
رب العرش واشكيله"

علي جرمون – السيرة الهلالية

رجل قديم في زمن ديجيتال

ومع ذلك.. لم يشتك.

لم يفكر طيلة حياته أن يمد يده..أن يطلب مساعدة.

على العكس، إن أسوأ ما في عم عطا.. غضبة، وأسوأ لحظات غضبه تلك التي يواجه بها من يحاول مساعدته، من تدفعه نيّته الحسنة لأن يمد يده ببضعة جنيهات ناحية يد عم عطا. هنا، فقط، يصرخ ويتشنج، يلم حوله خلق اللـه، وهو يردد "إنت فاكرني إيه؟ شحات "، وتصبح مهمة احتوائه صعبة.

صعبة جدًّا.

الواقع يقول، إن عم عطا، لم يعرف سوى صنع الحبال..مهنة، لا يتجاوز مجموع أجره منها، بأى حال من الأحوال، سوى ما يقرب من الـ 100 جنيه في الشهر، المشكلة.. إن هذه الجنيهات القليلة مهددة الآن

بالانعدام، بعد إصابة عينيه بالضعف، وعدم سماح الناس له من الحصول على"ليف" نخيلهم.

الآن.. تتراجع الـ 100 لتصبح 80 ، 70، 60، إنها في الطريق إلى رقم صفر.

نجح الأستاذ دسوقي، موظف الوحدة المحلية، أن يقنع- أخيرا -عم عطا بقبول الجنيهات الشهرية التي يمكن أن يحصل عليها من الشئون الإجتماعية، أقنعه ان مبلغ الـ 100 جنيه التي ستأتيه من وزارة التضامن.. ليست منًا عليه من الحكومة، لكنها حقه، ولا يعيبه أي شيء في الحصول على هذا الحق.

صباحًا والشمس تتسلل إلى الأرض في استحياء، وقبل أن تمد أشعتها بالكامل، تجد عم عطا أمام بيته الطيني الذي ورثه عن والده، يجلس على المصطبة، بجوار كنكة شاي، ورغيف عيش شمسي، وكوب زجاج صغير. إنه يفطر. إنه يعزم على من يلقي السلام عليه بأن يشاركه فطوره..، إنه يسأل المارة عن أحوالهم، أحوال أهاليهم، ربما عرف أن أحدًا مريضًا.. فيقرر زيارته.

نسيت أقول لك.. كيف يعيش عم عطا، بدخل لا يتجاوز الـ 150 جنيهًا.. في الشهر، بمزيد من الحمد والشكر، بقناعة تامة، برفض كامل لأى نظرة، مجرد نظرة عطف.

الموضوع باختصار إن هذا الرجل السبعيني، ضبط معدته، ومن قبلها

نفسه، على الحياة بالفول والعيش والشاي والسكر والمش، ربما زاد عليه.. مرة واحدة في السنة، مرتين على الأكثر، "فشّة" والتي تعني بطن بهيمة.

كل 20 يوما يشتري 1/4 شوال دقيق، تخبزه له أخته على مرتين في الشهر، كل مرة ينتج عنها 10 أرغفة عيش شمسي، ربما زاد العدد إلى 11أو 12. من الدكان، يشتري 3 كيلو سكر و 1/8 شاي، ومن السوق يشتري "رفطاو" فول = 7 كيلو. المجموع، في الشهر يساوي، 100 جنيه.

الفطار..عيش يُغمس في الشاي، الغداء.. العيش يغمس في طبق المش، ليلاً في طبق الفول. أحيانًا، لا يجد عم عطا الرغبة في طهو الفول وتدميسه، يكتفي هنا فقط، بأكله نيِّئًا بعد أن أصبح لينا قليلاً نتيجة بياته في الماء مما يسمح له، لما بقي من أسنانه، من التعامل معه والدخول إلى المعدة.

منذ زمن، كان عم عطا، يذهب منطلقًا إلى أراضي الناس، حاملاً على كتفه، منجله الكبير، ينظف النخيل من الجريد والكرنيف، ليأخذ هو الليف ويترك باقي ما تجود به النخلة، لصاحبها..، لم يكن الأمر يحتاج منه استئذانًا. لكن، بعد اعتراض واحد من الناس قرر أن يجلس في بيته، حتى يتم طلبه، أنه مؤمن تماما بأن "اللي عنده كرامة..أحسن من اللي عنده فدان أرض". وأخيرًا، ضعف بصره، واهتزاز رجليه لم تعدا يسمحان له حتى تلبية طلبات الناس وتسلق النخيل، منذ زمن، وهو ينتظر أمام داره، لمن يأتي له حاملاً الليف، طالبًا منه صناعة حبل. الحبل الواحد يستغرق من عم عطا ثلاثة أيام، في يومه الأول يضع الليف في الماء حتى يلين، في الثاني

يحوّله إلى أجزاء صغيرة ملفوفة، وفى الثالث، وهو عمل اليوم الشاق، ينتهي من صناعة حبله، بمقابل 5 جنيهات، فقط لا غير.

مع كرامته، يمتلك عم عطا، خفة دم مذهلة، تبدأ من أن يناغشه أحد، ويستفزّه بأن قوته راحت، ليقف عطا..طالبًا منه أن يواجهه، وعن المواجهة، التي لاتحدث، تتولد ضحكات الحاضرين. خفة الدم.. تصل أيضًا إلى المسألة الجنسية، حين يقترب منه أحد ليرفع جلباب عم عطا بسرعة كاشفا عن عورته، فهو لا يرتدي شيئا تحت الجلباب، ربما هذا ما جعله يتحول إلى نكتة قديمة وطويلة وممتدة المفعول أثناء تسلقه إحدى النخلات.

منذ أن أعلن عم عطا عن رغبته في الزواج – مجرد إعلان –، تحول السؤال عن العروس التي يحلم بالارتباط بها، إلى سؤال بايخ يطارده باستمرار، أينما ذهب، سؤال قديم جدًّا..قدم هذا الرجل.

المقربون، يعرفون، أن عم عطا اشترى كفنه، يحتفظ به في بيته، اشتراه خوفًا من أن يقال عليه، بعد موته، إن فلانًا – أي فلان – اشترى له كفنًا، بل..أصر أن يصنع 3 حبال مجانًا لعبد العزيز الفحار، الذي يتولى مهمة الدفن والحفر، مقابل دفنه بعد الوفاة دون الحصول من أحد – أي أحد– على أجر.

لايزال عم عطا يتنفس، لايزال بنفس تركيبته القديمة، القديمة جدًّا، وكأنه يعيش في حكاية من حكايات ألف ليلة، حكايته لاتختلف كثيرا عن حكاية الحطّاب والصياد والتاجر الصغير، الفرق الوحيد بينه وبينهم، أنهم

جميعًا ارتبطوا ببنت السلطان، أما هو..فلا. لم يعد السلطان موجودًا، حتى نعرف له بنتًا، لكن عم عطا لايزال يعيش. رجل قديم، في زمن ديجيتال.

ناس اسمهم "بنات الترحيلة"

وحدهم، يهضمون الخوف والفقر وقلة الحيلة، يقتسمون الحزن مع لقمة عيش مغمسة في طبق "مش" يبتلعونها على أمل أن "تتعدل" "وتتسهل"، ويحمدون الله على ستر في الحقيقة غير موجود وصحة في الطريق إلى الضياع إن لم تكن ضاعت بالفعل، وحين يموتون يفعلونها في صمت.. يذهبون بآلامهم وحزنهم وأحلامهم التي لا تتخطى أبدا الهدمة واللقمة التي تسد الجوع.

تخيل أن منهم أختك أو أخاك. فقط.. مجرد تخيل.

صرَّت في المنديل حتة الجبنة القديمة ورغيف العيش الشمسي ولم تنس "فحل البصل"، بالضبط كما لم ينس والدها العجوز أن يودعها بنظرة الشفقة اليومية المعتادة، والتى لا تخلو من الحزن ولا ينقصها الانكسار والإحساس باليأس.

الخامسة والنصف صباحًا. في يدها "صرة المنديل"، وفى عقلها تصور ليوم شقا جديد..تجلدها فيه أشعة الشمس الملتهبة التي كست ملامحها بسمار داكن، لون الأرض التي تمشي عليها وهي تجني القطن.

يوم شقا لا يخلو من كلمه "ناقصة"من مقاول الأنفار، كلمة ناقصة.. تبتلعها من أجل بضعة جنيهات..أو بالتحديد من أجل أسرتها التي تحتاج لها ولهم، ولتحاول جاهدة طوال النهار أن تجفف عرقها بنصف ضحكة ونصف نكتة وبقايا حكايات يومية مكررة تقتسمها مع بقية البنات اللائي يقتسمن معها الشقا.

ماتت. لم تشفع لها أحلامها بأن تشتري لأخويها لبس المدرسة، ولا أمنيتها بأن تشتري لأمها حتتين قماش أسود ولوالدها راديو صيني يسمع عليه النشرة والست أم كلثوم.

ماتت. رغم أنها أكدت لأمها في حكاية الأمس أنها ستعود آخر النهار بكيس السكر وباكو الشاي ونص كيلو الفول المدشوش، أكدت ذلك قبل أن تسلم جسدها للنوم على حصير مصنوع من خوص النخيل ومخدة صنعتها هي بنفسها من بقايا ملابس إخوتها وملابسها. مجرد حصير ومخدة، ونظرة ليلية أخيرة أطلت فيها على النجوم..نظرة أخيرة.. اعتادت أن تلقيها على السماء قبل أن تنام وهي تفكر في أحلام عمرها ما تخطت هدمة لأخواتها وأكلة كويسة.

خرجت من المنزل و لم تعد. لم تأت بكيلو السكر وباكو الشاي والفول المدشوش..حتى تلك الأغنية التي ظلت ترددها مع البنات على "مقطوره"

الجرار لم تكملها..انقطع اللحن فجأة..استبدل بصرخات مكتومة بطعم الخوف..بكلمة جماعية واحدة "ياباي"، صرخة أخيرة لم تنجدهن من الموت بعد أن انقلبت "المقطوره" عليهن في قلب الترعة.

إنه الطريق الذي اختاره السائق..طريق ضيق لجأ إليه حتى يصل بهن إلى "الشقا"..إلى لقمة العيش..إلى الجنيهات القليلة التي ينجو معها من جوع قريب وعراء محتمل وخوف دائم من بكره. طريق، أراد من خلاله أن يبتعد عن غلاسة الشرطة وإهانتهم له والتى لا يشفع له عندهم سنوات عمره التي تخطت الـ 50، انقلبت المقطورة..ليموت 13 بني آدم معظمهم بنات.. خرجن من بيوتهن من أجل أب مريض وأم قليلة الحيلة وأخ داخل على مدرسة وأخت على وش زواج.

خرجن من قريتهن الصغيرة في بني سويف إلى قرية مجاورة ليقطفن زهرة القطن البيضاء.. خرجن و لم يعدن إليها إلا جثثا مطبوخة في الطين مع بعضها ولاد وبنات.

يا باي، يا وجع قلبي.. ترى كم واحدا يعرفكم في البلد التي لا تعرف أحدًا؟

كم واحدًا يشعر بما يشعر أهلكم الآن به؟

وكم واحدًا يعرف كيف تتذوقون الحزن والخوف واليأس ومرارة الشقا كل يوم لتقول لكم سيروا في الأرض..غلبا ويأسا وفقرا وحزنا وخوفا وقلة حيلة ولطما على الخدود وأنتم تبحثون عن لقمة عيش حلال وتحاولون جاهدين الوصول إلى حياة كريمة معلقة بين السما والأرض،

تحمدون الله..تصبرون..تصلون..تدعون ليل نهار..وحين تموتون.. تذهبون هباء..كده ببلاش!

لو يعرف باقي أبناء البلد دي كيف يعيش عمّال التراحيل. لو قرأ حتى رواية "الحرام" ليوسف إدريس وعرف أن كل سطر قهر وحزن وخوف وألم يتكرر في مصر في اليوم 1000 مرة..لو شاهدها فيلما وتابع أحداثها وعامل أبطالها على أنهم شخصيات حقيقية وليس مجرد مسألة تمثيل..لو فعل ذلك أى مسئول مازال يمتلك شيئا من الإحساس لمات. لما استطاع أن يضع في فمه لقمة.. ولما استطاعت عيناه أن تنام!

إذا كان أصحاب الأراضي في الصعيد يلطمون على خدودهم من بنوك القرية التي تحاصرهم بالديون ولولا وجود واحد أو ربما أكثر لهم في الخارج يرسل لهم شوية فلوس متمرمغين بالإهانة، ولولا عاداتهم التي تطالبهم بالحفاظ على الأرض، لتحولوا جميعا إلى شحاتين فما بالك بالأنفار الشغّيلة.. بعمال التراحيل الذين لا يملكون إلا الدعاء بالستر وعدم البيات بالجوع وهم في انتظار يوم رزق على الله.

"هي فين البلد دي..البلد دي فيها رجالة أساسًا"

تذكرت الجملة الآن وتذكرت صاحبتها "شربات"، بنت الشرقية التي جمعتني بها الظروف في منطقة بئر العبد بمحافظة شمال سيناء..وقتها سألتها سؤالا واحدا" إيه اللي جبرك على البهدلة.. إيه اللي يخليكي تشيلي "بالقروانة" – القصعة – أسمنت ورمل وزلط؟

ردت: الشديد القوي. الشديد القوي.. دفعها أن تترك هي و12 بنتا قراهن في الشرقية، والذهاب إلى بئر العبد للعمل في المعمار. الشديد القوي.. جعلها تبات بعيدًا عن بيت والدها الذي يغسل كبده مرتين أسبوعيًا، ووالدتها مريضة بالسكر. والشديد القوي كان سببًا في عدم دخولها المدرسة، وهو نفسه الذي جعلها تسلم جسدها تقريبًا يوميًا للمقاول أملاً في منحها دقائق معدودة تستريح فيها طالما أنه لن يفقدها شرفها حتى تتجنب سبابه وشتائمه التي يداري خلفها رغبته في أى واحدة حلوة منهن.

مشهد واحد وشربات تشيل الخرسانة على راسها وتصعد السقالة.. كاف لأن يجعلك تكره هذا البلد خاصة إذا عرفت أن هناك مليون شربات بأسماء مختلفة وفي مناطق مختلفة جمعهن الفقر والبحث عن لقمة العيش بأقل قدر من الخسائر!

شربات تشيل الخرسانة..وشربات تجني القطن..وشربات تبيع مناديل.. وشربات تبيع جسدها وكله بسبب الشديد القوي وبسبب لقمة العيش.

في الوقت الذي تتحدث فيه الحكومه عن محدودي.

عمومًا، للحكومة معذرة، .. فهي مشغولة بالعبور إلى المستقبل.

يوم من عمر عامل محارة

لا يعرف "لا".

وأقصى أحلامه أن يصبح "صنايعي".. معلم.. ليحق له الحديث مع الباشمهندسين وأصحاب الشقق والمقاولين. المهنة: "عجان"، الترجمة الحرفية..عامل يساعد مبيض المحارة، الاسم: امبارك مصطفى، السن: 15 سنة – الصف :الثاني الإعدادي..طالع تالته– مكان العمل: الغردقة. الغردقة، اسم المدينة يوحى لك بأشياء كثيرة ليس من بينها مهنته..يوقظ بداخلك رائحة البحر ومشهد السياح الأجانب..يذكرك بالصيف والمايوه واللانش والفنادق دون أن يطرأعليك "إمبارك".

حافيًا يعمل وفي يده "المسطرين" و"الطالوش"، وفي عقله رغبة بأن يمسك "المحارة"..ليصبح المعلم – الصنايعي– المبيض– اختر الاسم الذي تريده في النهاية المعنى واحد.

أجره اليومي 20 جنيهًا، ويتمنى أن يصبح المعلم ليصير أجره 50 جنيهًا.. آه لو حدث ذلك.. سينجح وقتها في شراء سرير ينام عليه بدلا من النوم على الأرض حيث يجعل من شكاير الأسمنت الفارغة.. مرتبة، ومن قالب طوب مستوي.. مخدة، ربما تمكن وقتها من شراء بطانية ناعمة.. غير تلك البطانية الجيشي الخشنة التي اعتادت أن تجرح الوجه واعتاد الوجه على جراحها ورائحتها المتربة.

احتياجه الشديد للفلوس ومسئوليته عن والده ووالدته وأخته ومصاريف مدرسته وملابسه سبب عمله في هذه المهنة.

هل تعرف فيما يفكر "امبارك" الآن؟ إنه يفكر في يوم الجمعة.. يوم الإجازة.. يوم غسيل الملابس ونشرها.. يوم طبيخ اللحمة.. وحق النوم بعد صلاة الضهر. والأهم أنه، يوم الذهاب إلى المقهى ومشاهدة فيلم هندي لأميتاب باتشان أو أمريكي لفاندام أو جاكي شان أو عربي لعادل إمام. كل واحد منهم بطل يهزم ظروفه ويتغلب عليها.. وينقذ حبيبته ويقبلها في فمها.. يضرب ويضرب ويضرب وينجح في النهاية. نهاية الأفلام هي نقطة الأمل الوحيده التي يثق فيها "امبارك". هل تعرف كيف يعمل؟متى يستيقظ؟ كيف تمضي أحداث يومه؟

أنا أقول لك : إنه يستيقظ على صوت زعيق المقاول اليومي "اصحى" قبل أن تستيقظ الشمس، وينطلق قبل أن تنطلق أشعتها إلى الأرض.. يبحث هنا وهناك عن بقايا الخشب المتكسّر ليشعل فيه النار بعد أن يضعه بين "قالبي" طوب فوقهما "سيخين" حديد تجلس عليهما كنكة سوداء، ليتركها تغلي

حتى يغسل وجهه من "براميل" المياه التي يعمل منها ويستحم بها ويشرب أحيانا.

لا يعود إلى "الكنكة"..إنه يهرول إلى السلم..إلى الدور الأرضي.. يرفع "شيكارة" الأسمنت..ويصعد بها إلى الشقة التي ستشهد يوم شقاه الجديد.."شيكارة"تلو الأخرى..حسب ما تحتاجه "الخلطة"..ويقلب حتى يختلط الأسمنت بالرمل جيدًا..ثم يفتح خلطته لتصبح على شكل دائرة يضع فيها المياه..ويتركها تتشرَّب.

من حقه الآن العودة إلى الكنكة..أشعة الشمس بدأت تتسلل إلى المكان..المعلم وضع الشاي والسكر في الماء المغلي..حان وقت تسخين الفول. "افطر بقلبك..خلص..ورانا شغل".

جملة قاسية، تخرج من فم المعلم، وخلفها أوامر..أوامر:

قلّب.. اعجن.. ارفع، ناول.. إيدك.. انزل.. اطلع.. هات.. اخلص.. ياللا.. ها، رُحت فين..يااد؟

هكذا يمضي يومه..أوامر..إنها طبيعة المهنة وحكم الشقا..وصبر التحمل من أجل لقمة العيش والفلوس..و..

الله أكبر..الله أكبر.

إذا كان للصائم فرحتان..لحظة ما يفطر وساعة ما يلاقي ربه..فلـ"امبارك" فرحتان أيضا..لحظة أذان الظهر وساعة ما ينطق المعلم.."نضف العدة" إعلانا منه عن انتهاء يوم العمل.

الله أكبر..صوت المؤذن..صلاة الظهر..ووقت غداء "امبارك"..، وهو"ميت جوع"..وجسده"ميت تعب"..والاثنان يبحثان عن راحة.. ساعة تمضى في غمضة عين..ليبدأ العمل من جديد وينتهي قبل غروب الشمس.

"امبارك"..آخر من ينتهي من عمله..تنظيف عدة الشغل..يأخذ وقتًا طويلاً، النظافة من الايمان، وهى أيضا تمنع عنه شخط المعلم..ونرفزته إذا وجد بقايا أسمنت أو جبس على "المحارة". يذهب المعلم بعد استحمامه إلى المقهى..ربما ينتظر "امبارك" لكي يذهب معه بعد الانتهاء من الاستحمام في أحد البراميل..لكنه في الغالب يتركه ليشتري طلبات العشا ويجهز الأكل حتى يعود. و"امبارك " لا يملك أمام المعلم، وحياته، وأسرته، سوى كلمة..حاضر.

إن قاموسه الشخصي لا يضم كلمة.. لا.

الفصل الثالث

يعملوها.. ويخيلوا

"اللي علـى الخـيـر.. هنّيـه
وبـشـره بـالـغـنـيـمـة
والـلي علـى الـشـر عـزّيـه
بـكـره يـلاقـي الهزيمة"

ابن عروس

الحالة.. ياسين التهامي

لا تمتلك مع هذا الرجل سوى أن تترك له نفسك تمامًا..أن تنسى الدنيا بكل ما فيها لتسمو روحك بعيدًا.. بعيدًا، تزور عالمًا آخر.. غير الذي تعيشه، تتكلم لغة أخرى.. غير التي اعتدت التحدث بها، تقابل بشرا.. غير هؤلاء الذين مللت وجوههم وحكاياتهم وحساباتهم وأكاذيبهم اليومية.

حالة.. لا يمكن أن تتذوقها إلا مع ياسين التهامي، بحسه المرهف الذي يمنحك جناحين تطير بهما في رحاب اللـه.. وحين تفوق تجد قلبك صوفيًا زاهدًا يرى الحياة بشكل آخر.

كان من "العبط" أن أسأل عشاقه ومريديه، ومن "الهبل" أن أحاوره وأناقشه فيما يفعله في قلوب هؤلاء. لم يكن أمامي وأنا أخترق الدرب الجديد بالسيدة زينب بحثًا عن حفلته التي تلت الليلة الكبيرة للمولد..

لم يكن أمامي منذ رؤيتي لذلك الحشد الذي انتظره 5 ساعات كاملة واقفًا على قدميه.. لم أجد شيئًا في عقلي وأنا أتابع لحظة اختراقه زحام جمهوره الذين خطفوا عمامته وكادوا يمزقون ملابسه حبًا فيه.. سوى أن أكون واحدا منهم.

إيه ده؟ تركيبة بشرية غريبة..من قاع القاع..تبدأ وتعلو لمثقفين وأجانب وأمراء عرب حجزوا تذاكر ذهاب وعودة في نفس اليوم من أجل أن يستمعوا ويستمتعوا ويصفوا ويسموا لصوته..أو بالأدق لحالته.

ومنذ أن بدأ الحفل في الثانية من صباح هذه الليلة فور انتهاء ابنه محمود من وصلة مديحه..ومن أول ربع ساعة بدأ يشدو فيها الشيخ ياسين، تساقطت علامات اندهاشي ودهشتي.

لم أتعجب كثيرًا لذلك "القس" الذى جاء خصيصًا للاستماع إليه..ولم أسأل عن هؤلاء النسوة الفقيرات اللائي تركن بيوتهن وأطفالهن من أجل الاستمتاع به..وهؤلاء الأكثر وجودًا..أصحاب الجلاليب الذين تركوا قراهم ونجوعهم جريًا وراء صوته، ولا لهؤلاء الأميين الذين لا يعرفون من الشهادات سوى شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" وهم يتوحدون مع قصائد ابن الفارض ورابعة العدوية والجيلي ومحيي الدين بن عربي وأبومعين الغوث والمتنبي وأبو فراس الحمداني وأحمد شوقي وإيليا أبو ماضي.. يحفظون بعضها كما يحفظون أسماءهم.

أدعي أنني واحد من الشغوفين بحضور الحفلات..شاهدت حفلات لايف لـمحمد منير وعمرو دياب وتامر حسني وإليسا.. وتابعت بروفات

وتجهيزات بعضهم لكنني لم أجد في جمهور كل هؤلاء تلك "الحالة" التي خلقها ياسين التهامي مع جمهوه رغم فقر التجهيزات وبساطة المسرح وعدم ملاءمة المكان لاستضافة أحد، هنا في المولد.. لا ستديوهات لابروفات ولا لحن واحد لقصيدة محددة.

إن الاستديو في رأى ياسين..غناء استهلاكي لايقبله لذلك يطرح أشرطته من حفلاته مباشرة، وهو لا يحب البروفات لأنها تفقد اللحن والقصائد عفويتها..كما أن الحالة التي يستدعيها تجعله يغني القصيدة على أكثر من لحن. لا يحتاج صوت التهامي إلى فرقه من ألمانيا وعازفين من أمريكا ومهندسي صوت من فرنسا..إنه يحتاج "الحالة" فقط..، الحالة التي جعلت عدد فرقته لم يزد على 4 أفراد، كمان واحد –عماد– و3 إيقاع وصوته الرخيم.

ياسين لم يدرس الموسيقى..وهو لم يلتحق بالكونسرفتوار.. لم يكن طالبًا في معهد الموسيقى..وهو لم يدخل دار الأوبرا إلا مغنيًا ومنشدًا على مسارحها، ومع ذلك أبدع لونًا جديدًا لم يكن موجودا في الإنشاد الدينى من قبل، مزج بين إيقاعات النغم الأصيل والنغم الشعبي، تميز عن النقشبندي ونصر الدين طوبار وطه الفشني.. لم يوقف الابتهالات عند حد الدعاء والمناجاة.. لم يرتبط بإيقاع بعينه.. لم يجعل خلفه بطانة تردد ما يقوله، لكنه طوّر كل هذا حين لجأ إلى شعراء لم ينتبه أحد لقيمتهم.. واستعان بالمقامات المهجورة التي لايقدر عليها صوت الآن سوى صوته.. مزج بين إيقاعات النغم الصعيدي والشرقي الأصيل.. وكانت كلمة السر في نجاحه "الحالة".

التهامي.. حاصل على درجة التصوف من قرية "الحواتكة" بمحافظة أسيوط.. تلك القرية التي ولد فيها في 7 ديسمبر1949.. وتلك القرية التي حفظ فيها القرآن صغيرًا.. وتلك القرية التي خرج منها نجمًا يطوف مسارح لندن وباريس وعواصم ألمانيا وهولندا وإسبانيا وفنلندا ويصبح الصوت الأول بلا منازع في الموسيقى الروحية بالعالم.

هل تعرف قيمة صوت التهامي؟ إن مساحة صوته هي التي دفعت "مايكل فريشكوف" الباحث الأمريكي الشهير لتخصيص دراسة عن أدائه الصوتي، وهى التي أغرت "كولن" المستشرق الألمانى لأن يخصص له قسمًا مستقلاً في كتابه "الموسيقى الشرقية"، ياسين التهامي الذي وصفته هيئة الإذاعة البريطانية بـ"صاحب صوت فضفاض يستوعب أي إنسان على اختلاف لغته وموسيقاه "، وهو الذى دفع مقدم حفل مهرجان الموسيقى الروحية الذي تستضيفه لندن كل عام إلى أن يقف ليقول أمام الجمهور.. "ياسين شيء مختلف لا نستطيع تقديمه، لذا فمن الأفضل أن نتركه يقدم نفسه من خلال غنائه وموسيقاه وشكل أدائه الذي يشبه البوح".

هو ذاته نفس الصوت الذي دفع باحثة نفسية بريطانية لإعداد دراسة سيكولوجية عنه كطريقه للعلاج النفسي، انتهت فيها لأن تعالج مرضاها بصوت ياسين التهامي في مركزها الخاص للعلاج النفسي ببريطانيا.

نعم..صوت ياسين التهامي علاج نفسي..علاج لايحتاج أن يفهم فيه المريض القصائد التي يشدو بها ياسين..ليس مطالبًا معه أن يفهم ما أشعره عمربن الفارض..يحتاج فقط لأن يحس الصوت.

إن الإحساس هو الذي يقود جمهور ياسين للتفاعل مع حالته..لقد ضبطت نفسي أتمايل مع صوته يمينًا ويسارًا، وعرفت سر تمايل وإنسجام عشّاقه وقول أحدهم "حرام عليك اللي بتعملو فينا"، وصوت آخر "الله".. وثالث يتحدث مع ابنه أحمد "حسبي الله ونعم الوكيل في أبوك".. يقولها من شدة التجلي التي وصل إليها معه..وعذرت ذلك الشاب الذي ترك قريته في سوهاج سعيًا وراء ياسين التهامي، وقف بجواره على المسرح يستعطف أحد أفراد"الخدمة" لأن يتركوه بجوار المسرح..بالقرب من ياسين لأنه محب.

"والخدمة"..هى التي تعني المنظمين..مجموعة من الناس مهمتهم تنظيم المريدين والدراويش والعشاق وتقديم الينسون للشيخ ياسين أثناء شدوِه، والشاي والقهوه للمقربين منه.

ساعتان من الشدو والغناء والابتهال دون توقف..ساعتان من التوهج والتألق دون ملل، دون أن تشعر أنك تقف على قدميك منذ ساعات، وأنك تعرضت "للزق" والشد والجذب طوال وقوفك.

ساعتان..أنهاهما ياسين التهامي لينزل من المسرح إلى مكان "الخدمة" الذي يصنع به الشاي..متسللاً من جمهوره..يجلس على الأرض.

لكن العشق يدفع سيدة لأن تخترق حصار الأمن الصعيدي الذي التف حول المكان..ولماذا؟ لتقبل يديه..وهو يسحب يده سريعًا قائلاً بلهجته الصعيدية وكأنه يتوسل إليها: "لا..كفاية..أنا شايل كتير "، مشيرًا بإصبعه إلى السماء..إلى الأعلى الذي يستحق الشكر.

ما الذي يفعله هذا الرجل الذي لم يكمل تعليمه - ترك الدراسة في الصف الثاني الثانوي الأزهري - بهؤلاء العشاق؟ هم يحرصون عليه وهو أحرص عليهم، إنه لا يتقاضى أجرًا من إحيائه لليالي الموالد.. وما أكثرها.. يذهب ليغني لهم..للبسطاء مجانًا في موالد السيدة زينب وسيدنا الحسين وابن الفارض والسيد البدوي.

لكنه في الخارج..يمنحوه بالدولار واليورو المهم أن يأتي الشيخ ياسين الذي تطلق عليه الصحافة الإسبانية "ياسين العظيم.. ظاهرة الشرق".

السر في "الحالة".

في ضيافة خُط الصعيد

حين جاءني صوته حادًا مندفعًا متهورًا كعادته.. "عليّ الطلاق بالتلاتة عندي استعداد أبندقك في قلب بيتكم"..ضحكت رغم معرفتي التامه أنه يستطيع أن يفعلها..فهل أكون أعز عليه من ابن أخيه؟ ثم..أليس هو من يرعب الصعيد ويجعل الداخلية تفكر ألف مرة قبل أن تخطو خطوة واحدة بمصفحاتها وعساكرها وضباطها تجاه "أبو حزام"، إحدى قرى نجع حمادي بقنا والتى يعيش فيها ورجاله على صدى أسطورة معجونة بالدم والخوف والثأر والقلق، أسطورة يتعاطاها الصعايدة يوميًا في حكاياتهم بعد أن يضيفوا إليها الفلفل والشطة..لتكتسب نكهة أخرى لا تخلو من المبالغة عن نوفل سعد ربيع... تعرفه؟

حين قالها لي من قبل.. أجبت فورا "طب إيه رأيك أوفّر عليك المشوار وآجي لحد عندك تقتلني براحتك".. وحدث، وذهبت إليه للمرة الثانية مصاحبًا معي زميلاً صحفيًا ومصورًا، وبمجرد وصولنا إلى مركز نجع

حمادي.. وخروجنا من القطار وجدت - كما اتفق معي- سيارة في الانتظار.. بها أحد رجاله الذي أصر - كعادة الصعايدة- أن نأخذ واجبنا قبل أن نمضي معه إلى نوفل أو "أبو أحمد" كما يناديه.

وبمجرد أن رأى الزميل والمصور الصحفي معتز عبد الحق البنادق الآلية في انتظارنا، وبمجرد أن سمع صوت إحداها والتي كانت موجهة إلينا كاد أن يقع من طوله..الكاميرا وقعت من بين يديه، المشهد غريب..هل يطلق علينا نوفل النار ونحن في بلده؟

ولماذا لا؟ ماذا سنكون سوى ثلاثة أرقام في قائمة ضحاياه المليئة بالدم؟..لا..نوفل لن يفعلها نحن في النهاية ضيوفه، وقد سبق لي زيارته وكان حريصا على حمايتي حتى الخروج.

أسئلة مخيفة كانت تدور عقولنا وقلوبنا جميعًا.. لم يستطع الإجابة عنها سوى نوفل نفسه، باستقبال حميم وواجب ضيافة وتليفونات مستمرة أثناء العودة بحوار معه وصور جديدة نشرت على 6 صفحات في الزميلة الأهرام العربي. لكن ما لم ينشر.. ما لم نكتبه ونقترب منه في الموضوعات.. تركيبة نوفل والتجربة الأولى للوصول إليه.

عند أقاربه وأهله ورجاله، هو.. أبو زيد الهلالي سلامة، الفارس والمقاتل الذي يحتاج إلى من يسانده في محنته مع الشرطة. عند الصعايدة -أهل قنا تحديدًا- هو "الراجل"، الذي لم يستطع أحد كسره، محبوب إلى حد الهوس، يرونه السلاح الذي ينتقمون به من الحكومة.. ويأخذون به

الثأر..ثأر فقرهم وبطالتهم وأحوالهم الاجتماعية التي لا تسر عدوًا ولا حبيبًا.

عند الحكومة، فى ملفاتها الرسمية، هو مسجل خطر، عليه العديد من الأحكام التي يصل بعضها إلى المؤبد بقائمة قتلى ملطخة بالدم.

ما لم تسجله الأحكام الصادرة عليه، وإن ما أكدته تقارير الأمن السرية أنه واحد من أخطر الأشقياء وأكبر تجار السلاح في الصعيد.. بالأدق في مصر كلها. ومقاوم عنيد للسلطات.

من الأساطير التي ينسجها الصعايدة عنه، هو..الخط..طول وعرض، عمره 60 سنة – يزرع 12 فدانًا أفيونًا معه 500 رجل مسلح، استطاع من قبل أن يخطف مدير أمن قنا ليلاً بعد اختلافهما على قطعة آثار.. بالمناسبة..تجارة الآثار إحدى أهم التجارات التي يتكسب منها وهو أيضا الذي خرج من خلف الأسوار بعد الحكم عليه..بتهديد صريح للداخلية بقتل مجموعة من السائحين الأجانب إذا لم يخرج ويتجاوز عدد قتلاه الـ100 شخص..هكذ يهمسون عنه.

من الوقائع التي يعرفها الصعايدة وتؤيدها تقارير الداخلية وتتضمنها الأساطير أنه صناعة حكومية.. استخدمته وزارة الداخلية في القبض على الإرهابيين، خاصة أولئك الذين أحرجوا الحكومة أمام العالم بقتلهم للسائحين الأجانب في حادثة الأقصر الشهيرة.. استخدموه بحكم إلمامه بالدروب الخلفية في جبال الصعيد وهو أدى مهمته بالشكل المطلوب..

بل إنه ساهم في القبض وبالأدق قام بالقبض على المجموعة التي هربت إلى القاهرة.. في القاهرة نفسها.

في بطاقته الشخصية الاسم: نوفل سعد ربيع، المهنة: موظف في طلمبات مياه نجع حمادي، الحالة الاجتماعية: متزوج ويعول "ابنًا" أحمد -تقريبا 14 عامًا -وبنتًا أما عمر نوفل نفسه فهو يقترب الآن "قرب يقفل" بالصعيدي 39 عامًا، يمتلك 120 فدانا و4 ماكينات ري وجرارين.. وبيتا أقرب للفيلا بجوار أرضه.

مرة أخرى.. بين أهله وناسه..هو الشخص الذي يستحق الشفقة طيب حنون لكن وضعه حظه السيئ على طريق الثأر ليجد نفسه مطالبا وهو لم يتخط بعد الـ13 عاما أن يأخذ بثأر والده وعمه و5 آخرين من عائلته لينخرط في هذا الطريق يدخل بقدمه وحين حلم بالخروج.. لم يسمح له أحد..كان قد تحول إلى قاتل وحمل لقب مجرم.

أما نوفل الذي قابلته وجلست معه لساعات طويلة لأكثر من مرة "نوفل" الذي يفاجئني ويخطفني بصوته الذي يأتيني على رقم موبايل جديد كل مرة.. هو توليفة مما سبق.. تستطيع أن تسقط منها صفات..بالضبط مثلما تستطيع أن تضيف إليها صفات.

هو – وجه أسمر مشدود على آخره، طفل صغير يفصل بين مشاعر الغضب والمودة عنده خط رفيع ينتقل فيما بينهما خلال ثانية واحدة، الفرق الوحيد بينه وبين عبث الطفل العادي، أن الطفل من الممكن أن

يفتك بلعبته ويعبر عن غضبه "بالفرفطة" لكن نوفل يستخدم في غضبه سلاحه البندقية "أم خمسة" أحيانا..الحتة الآلي الخاصة به دائما.

قال لي من قبل "ما الذي تريده من شخص قتل 7 من عائلته أمام المركز- مركز شرطة نجع حمادي دون أن تتدخل الشرطة؟

وحين سألته عن عدم ذهاب أحمد ابنه إلى المدرسه قال "يعني هيطلع طيار " يقعد جنب أرضه ويراعي "زرعاياته"!

طوله 150 سنتيمترا..قصير للدرجة التي تتخيل معها أنك تستطيع وضعه في جيب "سيالة"جلباب صعيدي والجري به، صوته..هادئ.. وإن لم يخل من الحدة، عيناه لامعتان.. تخبِّئ خلفهما جبالا من الظلام والقهر..فيهما بئر حزن نظراته..القليل منها فقط ما يعبر عن إجرامه.

أقول لك وصفا آخر أدق؟ إنه عنيد حد الجنون..حد القتل..حد الموت، متهور..مندفع..متسرع وكثيرا ما يفقد السيطرة على فرامل أعصابه بسبب ذلك. ما الذي تستطيع أن تصف به شخصا يخبرك بأنه سيقتلك وسط أهلك لمجرد أن وصفته "بخط الصعيد" ترك كل ما كتبته عنه ومسك في هذه الكلمة، إنها أكثر كلمة تستفزه.. لأنه يرى نفسه بشكل مختلف.

يرى نفسه الضحية التي "انضحك "عليها وأجبرتها الظروف والعادات والتقاليد أن تحمل سلاحا وتأخذ ثأرًا وتعيش مهددة بعدم الاستقرار.. إنه حكم المؤبد.. الذي يقضية الآن..الحكم بعدم الاستقرار.

لذلك لم أصدق نوفل وهو يقول لي: "الخوف ده أنا ماعرفهوش..

الحاجة الوحيدة اللي ماعدتش على.. وأنصحك لا تصدقه.. "نوفل" ليس فقط لا يخاف إنما يعيش في رعب دائم إحساسه بأن الشرطة في أى وقت من الممكن أن تأتي من أجل محاصرته والقبض عليه إحساس كاف لأن يجعله لا ينام سوى 3 ساعات فقط في اليوم الواحد.

شعوره بأنه يمتلك أرضا وزرعا وبيتا يجعله من أشهر أثرياء المنطقة ومع ذلك ينام في وسط القصب ممسكا بسلاحه..شعور في حد ذاته مرعب.

"نوفل"مثلما هو ثائر وقاتل ومجرم هو أيضا ضحية، ضحية لقب حمله بالوراثة.. لقب هواري إنه اللقب الذي خرج ليجد نفسه مميزا به بحكم عادات المنطقة اللقب هناك يمنح صاحبه قوة أخرى يشعره بالتميز والخصوصية الفتاة الهوارية لا تتزوج من غير الهواري حتى مفهوم الرجولة ذاته مختلف، فالرجولة هناك هي الصفة التي تعني أن يكون صاحبها حاملا للسلاح شاربا للخمر يأتي بالغوازي إذا أقام فرحا.

المنطقة نفسها تفرض على صاحبها شعورا مختلفا، الجبل الذي يحتضنها مساحة القصب الشاسعة التي تغطي أراضيها بيوتها المحاطة بأسوار طينية قديمة.. بحجر أبيض الآن الأسلحة الآلية الممنوع ترخيصها يمشي بها الناس في الشارع لا تفرِّق بين من يمتلك الآلاف ومن لا يمتلك ثمن وجبة عيش حاف التعوُّد على سماع طلقات الرصاص أصبح عاديا قانون العائلات والقبائل الذي يتحكم في مصائر البشر ويحل مشاكلهم ولا يعترف بمؤسسة الدولة وقوانينها كل هذه أشياء كافية لأن تضع نوفل في هذا الطريق.

معلومة..هل تعلم أن "حمرة دوم"و"أبوحزام"هما القريتان الوحيدتان الآن في مصر اللتان ترى فيها الرجال يمشون بالسلاح الممنوع ترخيصه في الشوارع كشكل عادي.. إنه الشكل الذي تخلت عنه قرى أخرى مثل قرية السمطا وقرية أبو دياب وقرية الجحاريد بدشنا وقرية الحجيرات بقنا..جميع أهلها تخلوا عن المشي في الشوارع بالأسلحة وإن لم يتخلوا عن الاحتفاظ بها داخل بيوتهم والحرص على شرائها والحرص على أن يمتلك كل واحد من أهل هذه القرية عصاية، كما يطلقون على السلاح هناك.. إلا "أبو حزام" و"حمرة دوم" حرصا على الاحتفاظ بالشكل المتوارث حتى الآن.

ما الذي ننتظره من هذه الجغرافيا التي تشع بالقلق والتي يحيطها الفقر والجهل والبطالة بحزام ناسف قابل للانفجار في أي وقت وأي مكان.. إنها مثل الأرض البركانية التي تفور والتي لن تتردد لحظة واحدة في تدمير من حولها إذا تعرضت قشرتها للتحرش.. للاحتكاك..لتخرج بعد ذلك مليون نوفل..القاتل والضحية أيضا.

جملة واحدة مازالت عالقة في ذاكرتي من نوفل.. جمله تلخصه.. تختصره "بص أنا هريّحك على الآخر.. الحياة والموت عندي مساويين بعض دلوقتي.. عن نفسي عايز أعيش زي باقي خلق اللـه..بس الحكومة مش عايزاني أعيش زيهم.. يبقى الحسبة يا واد أخوي.. خسرانة خسرانة"!

مقتل نوفل سعد ربيع بعد ساعات من تبادل إطلاق النار مع الشرطة.

الراجل المهموم بسلامته متخفي في بلياتشو

المطلوب منك الآن أن تضحك وتضحكني معك.. المطلوب منك الآن أن تتخلى عن همومك ومشاكلك وآلامك الملتهبة..تترك أحزانك جانبا.. تنسى جيوبك الخاوية..لا تفكر في ابنك الذي دفنته صباحًا بيديك ولا في تلك الحادثة التي تعرضت لها بالأمس وتركت لك 5 غرز في الظهر.. وقدمين محروقتين..ويدين مرتعشتين.

الآن..قف أمام المرآة..ضع الـ (Makup)، ارتد الأنف البلاستيك.. وبدلة البلياتشو..اخرج لجمهور المسرح.. واضحك، الأهم أن تضحكني - وتضحكهم - معك.. هل تستطيع؟

كلما صادفتني صورته وحركاته وابتسامته.. وأوقفتني قدرته على إضحاك الأطفال وإضحاكي.. "حسدته"! لم أتخيل قط أن تعيش خلف

هذه الابتسامة كتلة حزن وحزمة همٍّ وأن الثمن الذي يدفعه لرسمها غالٍ جدا لأنه يدفعه على حساب أعصابه وصحته وأسرته ومشاكله الشخصية.. الغريب أن رفعت عبد الرحمن أو "مشمش" كما يعرفه جمهور السيرك ورغم مرور 25 سنة على اعتماده الرسمي كبلياتشو للسيرك القومي لم يتعب.. لم يزهق.. ولم يفكر في الاعتزال، يقترب عمره من الخمسين عاما وهو كما هو.. يأتي في نفس الميعاد.. الخامسة بعد الظهر..يراجع السناريو.. يرتدي البدلة.. يضع الـ (Makup) ويقف أمام المرآة.. يمثل ويخرج ويفكر في الجديد الذي يقدمه الساعة الثامنة. ثلاث ساعات كاملة تتحول مع الجمهور بعد ذلك إلى 30 دقيقة فقط تقسم على 3 فقرات يومية (كل فقرة 10 دقائق) تعرض ضمن برنامج السيرك.

ثلاث ساعات..يحتفظ فيها بدرجة حرارة خوف مرتفعة من الفشل، نفس الدرجة التي وقف معها لأول مرة في حياته بلياتشو أمام الجمهور والتى يقول عنها: "كانت سنة 1980..كنت مرعوب، خايف أدخل وأخرج وأسيب طفل ماضحكش، يوم صعب..اتدربت عشانه 4 سنين متواصلة، يومها دخلت على الجمهور عرقانًا.. متوترًا ومع أول ضحكة طلعت من طفل..رجعت لي ثقتي بنفسي.. ضحكت..والناس ضحكت معايا ومازالت بتضحك لحد النهارده.

أن تضحك طفلا مصريا..مهمة صعبة جدا، مهمة يقول عنها مشمش.. هو ذكى جدا مش من السهلِ إنك تضحك بأي حاجة..وفيه طفل تشوفه تلاقيه واخد ركنًا بعيدًا قافلاً على نفسه، مهمتك بأه يا بطل إنك تدخل

عليه من غير ما يخاف منك..والأهم إنك تقبض منه ثمن شغلك ولبسك للبدلة..ضحكة، وكل ما تكون الضحكة طويلة وعالية يبقى إنت كده خدت حقك منه.

مهمة مُطالب بها يوميا مشمش أيًا كانت مشاكله وهمومه.

"مشاكلي دافنها جوايا مهما كانت صعوبتها بمجرد ما أخرج للجمهور، قضيتي الأولى إني أضحكهم حتى لو كنت باعيط واتقطّع من جوه، استحالة أنسى يوم وفاة ابني عبد الرحمن، دفنته الصبح..ورجعت الشغل بالليل.. أضحك للناس وأبكي جوايا.. وكل ما يزيد ضحكهم يزيد بكايا..

لهذه الدرجة؟ لهذا الحد؟

يجيب عم مشمش وهو يضحك، أنا ساكن في روض الفرج، أوقات كتير مابيكونش معايا فلوس.. باجي للسيرك مشي وأنا بافكر إزاي أجيب لابني دوا (يضحك مرة أخرى).. عارف في يوم عملت حادثة بموتوسيكل رجليا اتحرقت، ضهري كان مفتوحًا.. الدكتور كان عامل لي 5 غرز جيت المسرح.. ربطت جسمي، رجليّا وإيديا حوّلت الكسور والجروح.. وابتسمت.. ضحكت عشان هما يضحكوا".

ابتسامة حقيقية؟

والله العظيم ابتسامة طبيعية.. لو كانت مزيّفة الطفل هيفهمها.. هيحسّها.. عشان كده لازم تكون طبيعية.

مرة أخرى.. لهذه الدرجة؟ لهذا الحد؟

ومرة أخرى يجيب عم مشمش: "أصل الناس والأطفال ذنبهم إيه.. قطعوا تذاكر.. دفعوا فلوس.. خلاص يبقى لازم يضحكوا"!

500 جنيه.. كل يوم باجي الساعة 5 وأمشي الساعة 11 بس أنا عرفت آخد حقي من ضحك الناس.. الضحك كفاية عليا.. بيديني حاجات كتير.

زي إيه؟

بيحسسني إن أنا ناجح علمني الصبر على الأحزان والأزمات لأني بتعامل مع طفل والطفل بيحتاج صبر عشان أخليه يضحك.

جمهورك أطفال بس؟

أهمهم الأطفال..لكن فيه كبار ومنهم مشاهير زي حسن يوسف ومحمد رياض وفاطمة مظهر وأشرف زكي.. بييجوا وبيجيبوا أولادهم معاهم، وإمبارح كان هنا محمد هنيدي..قاللي أنا صورت في السيرك لكن أول مرة أتفرج عليه زي الناس..كان مبسوط أوي..وكنت مبسوط علشانه.

عم مشمش..إنت مبسوط في مهنة المهرج؟

مبسوط والحمد لله..وابني شغال معايا.. وائل دربته على مهنة الطوق.. وهو حابب السيرك رغم أنه بياخد 110، ورغم إنه في كلية زراعة فإنه ناوي يكمل سيرك وعلى فكرة أنا واخد دبلومتين في السيرك واحدة من إسبانيا وواحدة من هولندا.

مرة تانية.. إنت مبسوط؟

أنا باصوّر كليب مع نانسي عجرم جديد.

مدد سيدنا الرفاعي.. مدد

إذا كان حمزة بن عبد المطلب هو سيد شهداء الجنة، فلابد أن يكون إبراهيم الرفاعي هو سيد شهداء أكتوبر.

وأنت تقرأ سيرة هذا الرجل لابد أن تنتفض.. شيء ما تجده يسري في جسدك..هزة داخلية مجهولة المصدر..إنه مبهر كإنسان.. قبل أن يكون قائدا لسلاح العمليات الخاصة في حرب أكتوبر، مدهش كأب..قبل أن يكون قائدا للمجموعة 39 الشهيرة التي قامت بأداء العمليات الانتحارية، تخطى خطوط الخوف.. قبل أن يتخطى خطوط العدو ما بين عامي 67 وحتى 73 لينفذ 72 عملية، دمر الهزيمة المعنوية لنا بعملياته الفدائية.. قبل أن يدمر معبر الجيش الإسرائيلى في الدفرسوار، حصل على احترام زملائه.. قبل أن يحصل على 12 وسامًا تقديرًا لشجاعته.

في الطريق إلى شقته في منشية البكري.. قبل مقابلة ابنته ليلى وابنه

المقدم سامح كنت أراجع ما نشر عنه، ما جاء في كتب مختلفة لعل أهمها ما جمعته الزميله منال نور الدين في كتابها "الشهيد" الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب..كنت أقرأ سيرته الذاتية:

مواليد 1931/6/27، التحق بالكلية الحربية في نهاية عام 1951، وتخرج فيها في 1954/6/27 وحصل على درجة أركان حرب عام 1959.

عمل بسلاح المشاه ثم الصاعقة كما قام بتدريب الفدائيين الفلسطينيين على أساليب الصاعقة. اشترك في حربي بورسعيد عام 1956، وحرب اليمن وحرب 1967، كما شارك في حرب الاستنزاف وذلك بتدمير أطنان من الذخيرة التي تركها الجيش المصري عام 67، وتدمير حقول مدرع قرب رمانة وقاعدة صواريخ هوك موقع التمساح وأنزل بالعدو العديد من الخسائر في الأرواح والمعدات.وأصيب ثلاث مرات في اليمن - ورمانة - ورأس التمساح.

كان قائد للصاعقة أثناء حرب أكتوبر 1973، وقام بضرب آبار البترول في بلاعيم، وتدمير منشآت العدو في رأس سدر ومخازن ذخيرة العدو في الطور ومنشآت مطار الطور، وكبد العدو خسائر فادحة في الأرواح والمعدات. استشهد في ميدان القتال جنوب الإسماعيليه بعد أن اشترك في الهجوم الذي أوقف تقدم هجوم العدو في الإسماعيلية.

كان أحد أبطال ألعاب القوى ومثَّل الكلية الحربية وسلاح المشاه في كرة القدم، كما كان أحد أبطال الرماية.

حصل على العديد من الأنواط والأوسمة منها.

أنواط: الجلاء - الاستقلال- النصر - الشجاعة العسكرية "مرتان" - الوحدة - الجيش- الواجب العسكري "مرتان" - أما الأوسمة: بطولة الجيش- النجمة العسكرية "3مرات" - نجمة الشرف العسكرية - نجمة سيناء- وسام الشجاعة من ليبيا- ووسام شرف من القوات السلحة.

باستقبال حار..يفتح الباب المقدم سامح الرفاعي، وقفت خلفه مدام ليلى بابتسامة صافية، حين استشهد إبراهيم لم يتجاوز سامح الـ9 سنوات من عمره، و لم تكن ليلى تخطت بعد الـ11 سنة ورغم كل العمليات التي قام بها إبراهيم الرفاعى خلف خطوط العدو تلك التي أذهلت إسرائيل وأربكت وأدهشت العالم كله، رغم كل ذلك.. لم يكن الرفاعي غائبا عن البيت، كان أبًا حاضرا دائما.

ليلى تقول: "عمرنا ما حسيًنا إنه بعيد عنا، كان دايما معانا، ولما يغيب يغيب يومين تلاتة بالكتير، وكنا بنروح له الحلمية عند المجموعة 39 ".

سامح يضيف: "لحد دلوقتي لما يقابلني حد من ضباط المجموعه يقول لي: فاكر لما ضربتني بالبندقية الرش "

والعمليات؟ أسأل ليجيب سامح: "مكناش نعرف حاجة عن العمليات وقتها كنا نشوف بس صوَره خلف خطوط العدو، أصله كان يحب التصوير جدا وكان دايما يشيل كاميرا معاه.

ليلى: "ومرة جاب لنا علم إسرائيل، كنا في عيد وطلع عملية جاب

منها أول أسير إسرائيلي والعلم، سلم الأسير وجاب العلم البيت حطّه في البلكونة وقال لنا: دوسوا عليه علشان أصوّركم".

أعود لما نُشر عن الشهيد وأقرأ : عبر إبراهيم الرفاعي القناة أكثر من 70 مرة قبل اندلاع حرب أكتوبر، نفذ خلالها عمليات انتحارية تفوق الوصف، لعل أهمها تدمير مخازن الذخيرة المصرية التي تركتها قواتنا خلال عملية الانسحاب في يونيو 67 عندما تمكن ورفاقه الأبطال من تفجير تلك المخازن، واستمرت النيران مشتعلة فيها ثلاثة أيام كاملة.

وفى مطلع عام 1968 بدأت إسرائيل في نشر مجموعة من الصواريخ أرض /أرض لإجهاض عملية بناء القوات المسلحة المصرية، ورغم وسائل التمويه التي لجات إليها إسرائيل، نجحت وحدات الاستطلاع المصرية في كشف عدد من الصواريخ على طول خط المواجهة، وكان لابد من التحرك السريع حيث اجتمع الفريق أول الشهيد عبد المنعم رياض بالقوات الخاصة بقيادة الشهيد إبراهيم الرفاعي وكان طلبه محددا " لابد من العبور إلى الضفة الشرقية بأي ثمن للحصول على بعض صواريخ إسرائيل ومعرفة مدى تأثيرها على الأفراد والمعدات في حالة استخدامها ضد جنودنا" على الفور شرع الرفاعي في تنفيذ التكليف، كان نجاحه مذهلا حيث عبر مع المجموعة وعاد بثلاثة صواريخ، لا بصاروخ واحد..كانت عملية مذهلة رغم أنها محفوفة بالمخاطر والأهوال، تم على إثرها عزل القائد الإسرائيلي المسئول عن قواعد الصواريخ، ووصف الفريق أول رياض هذه العملية بقوله: " كانت من المهام الخطيرة في الحروب، ومن العمليات البارزة أيضا

التي ارتبطت بإسم الرفاعي، عندما عبر خلف حدود العدو في جنح الليل ونجح في أسر جندي إسرائيلي وعاد به إلى غرب القناة.

"اشرب الشاي" تقولها ليلى في الوقت الذي يتحدث فيه سامح: "من فترة قريبة كانت واحدة صديقة طلبت مني بإلحاح أن أقابل عمها، وبعد أن ذهبت إليه فاجأني بقوله: "أنا اللواء فلان الفلاني كان لي الشرف يا ابني إن أباك عدى النقطة بتاعتي قبل الحرب وشفت سيناء بعدها مولعة 3 أيام".

نفس الموقف تكرر مع ليلى.. حدث معها في الذكرى السنوية للشهيد الرفاعي التي تقام يوم 19 أكتوبر من كل عام يقيمها اللواء محمد نوح في فيللته بالشرقية، وهي الذكرى التي يحضرها ضباط المجموعه 39 بالإضافة لآخرين من أبناء القوات المسلحة وبعض الكتاب مثل جمال الغيطاني.. تقول ليلى: "جاءني شخص يسلم عليّ ما أعرفوش لكن كلامه أدهشني.. قال لي.. أنا ما اشتغلتش مع والدك، بس وقت ما كنت باخدم على القناة وأول ما كنت باعرف إنه معدِّي علينا، كنت أستنى على الطريق علشان أشوفه بس".

تكمل ليلى: "بابا كان محبوبًا جدًا من زمايله في المجموعة 39 وعلى صلة بينا لحد النهارده، بيكلموا ماما يعيِّدوا عليها، وإحنا من صغرنا عايشين مع ضباط المجموعة..مع أسرهم وأبنائهم، لأن والدي كان صديقًا لهم قبل أن يكون قائدا".

ما نشر عن شجاعة المجموعة 39 كان قليلا للغاية.

منه: أنهم قاموا صباح استشهاد الفريق عبد المنعم رياض بعبور القناة واحتلال موقع المعدية 6 الذي أطلقت منه القذائف التي كانت سببا في استشهاد الفريق رياض، وبقيادة الشهيد الرفاعي نجحت المجموعة 39 في إبادة 44 عنصرًا إسرائيليًا داخل المعدية باستخدام السونكي فقط، وكانت النتيجة أن إسرائيل تقدمت باحتجاج لمجلس الأمن في 9 مارس 69 أن قتلاها قتلوا بوحشية.

كما أن المجموعة 39 قتال هي صاحبة الفضل في أسر أول أسير إسرائيلي عام 68، عندما قامت أثناء تنفيذ عملياتها بأسر الملازم أول الإسرائيلي داني شمعون، بطل الجيش الإسرائيلي في المصارعة والعودة به إلى القاهرة دون خدش واحد. وكانوا أول من رفع العلم المصري في حرب الاستنزاف على القطاع المحتل حيث بقي العلم مرفوعًا 3 أشهر فوق حطام المعدية رقم 6.

فى 22 مارس 69 قام أحد أفراد المجموعة، برصد هيلوكبتر عسكرية تحاول الهبوط قرب الموقع وبحاسته المدربة ومن مسافة تجاوزت الكيلو متر ونصف الكيلو متر اقتنص رأس أحدهم وما كان إلا القائد الإسرائيلي العام لقطاع سيناء. وهي الفرقة الوحيدة التي سمح لها الرئيس عبد الناصر بكسر اتفاقية روجرز لوقف إطلاق النار عندما تم تغيير اسم الفرقة من المجموعة 39 قتال إلى منظمة سيناء العربية وسمح لهم بضم مدنيين وتدريبهم على العمليات الفدائية بقيادة الرفاعي، وتم تجريدهم من شارتهم

ورتبهم العسكرية ليمارسوا مهمتهم بحرية خلف خطوط العدو.

ويقال إن أفراد المجموعة هم أول من ألّف نشيد الفدائيين المعروف :

وإن مت ياأمه ماتبكيش

راح أموت علشان بلدي تعيش

افرحي يا أمه وزفّيني

وفى يوم النصر افتكريني.

واسترد أفراد المجموعة شاراتهم ورتبهم العسكرية واسمهم القديم "39قتال" في 5 أكتوبر 73 عندما تم إسقاطهم خلف خطوط العدو لتنفيذ مهمات خاصة واستطلاعات استخبارية أرضية تمهيدا للتحرير، وأطلق عليهم الجيش الإسرائيلي في تحقيقاته فيما بعد مجموعة "الأشباح ".

وظلت المجموعة تحارب وتقاتل على أرض سيناء وقت الحرب في أكثر من اتجاه..رأس شيطاني..العريش.. شرم الشيخ..رأس نصراني..سانت كاترين.. بواقع ضربتين إلى ثلاث في اليوم الواحد بإيقاع وقوة وسرعة أذهلت المخابرات الإسرائيلية وأربكت الجيش الإسرائيلي.

وهاجم الرفاعي محطة بترول بلاعيم صباح 6 أكتوبر لتكون أول طلعة مصرية في عمق إسرائيل، تلاها مطار شرم الشيخ صباح ومساء السابع من أكتوبر، ثم رأس محمد وشرم الشيخ نفسها طوال الثامن من أكتوبر.

ثم شرم الشيخ ثالث مرة في 9 أكتوبر، ثم مطار الطور الإسرائيلي في 10 أكتوبر والذي أدى إلى قتل كل الطيارين الإسرائيليين في المطار.

ثم يعود ليدك مطار الطور مرة أخرى في 14 أكتوبر، ثم آبار بترول الطور في 14، و15 أكتوبر، والتي كان لها أثر قوي في تشتيت دقة وتقليل كفاءة تصوير طائرات التجسس والأقمار الصناعية الأمريكية.

تاريخ مذهل.. ملحمي لا يقدر على صناعته سوى أبطال حقيقيين وقائد مخلص.. هو إبراهيم الرفاعي.

الآن المقدم سامح يتكلم: تعرف، تقريبا كل أبناء العيلة أسماؤهم يا إبراهيم يا سامح، إبراهيم على اسم والدي وسامح على اسم عمي الذي سميت عليه أيضا والذي استشهد في حرب اليمن كما وجدت اسم إبراهيم عند معظم من عمل مع أبي من الضباط والعساكر.

تتدخل ليلى: لتحكي حكاية رجل أراد أن يعلم ابنيه الشجاعة.. هي تقول :وعدنا لما ننجح وكنا في ابتدائي أن يأخذنا مطار إمبابة، وركبنا طائرة هليكوبتر، وكلما كان ينوى الطيار الإقلاع كانت تحدث غارة، وحين وجد والدي ان الغارات مستمرة وعرف أنها لن تنتهي في هذا التوقيت، طلب من الطيار أن يقلع، وحدث بالفعل، ورغم التحذيرات التي وصلته عبر اللاسلكي أصر والدي على الذهاب إلى القناة والعودة مرة أخرى"!

ألم يخف عليكما..سؤال منّي، وإجابة من سامح: كان خايف علينا بس هو من عادته طالما قال لنا حاجة لازم ينفذها، وكان يعلمنا إزاي قلبنا يبقى

جامد وإحنا صغيَّرين، علمنا إزاي نضرب نارًا هنا..فى صالة الشقة ولا أنسى أنه قدم لي بندقيه تحمل اسمي.

ليلى أيضا تجيد ضرب النار..وكانت تحلم بأن تكون ضابطًا، لكن الحربية وقت تخرَّجها لم تكن تقبل البنات فاختارت البيت والزوج بعد حصولهاعلى ليسانس آداب، وعن سبب حلمها بالعسكرية تقول :لأني اتولدت في بيت عسكري والدي إبراهيم الرفاعي وأعمامي كلهم ضباط وجدي كان مأمورًا وجد والدي كان ضابطًا في الجيش وأخوالي الخمسة ضباط، وأعتقد أن العسكرية جين وراثي في العائلة.

يتدخل سامح: كلنا بدأنا في العسكرية مبكرا، والدي إبراهيم الرفاعي بدأ أثناء وجوده في بيت جده بميدان العباسية وهو في ابتدائي، وهو البيت الذي يقابل إحدى الثكنات الإنجليزية، كان والدي يصعد للسطوح لينشن على الإنجليز ببندقيته الرش، والآن ابنتي شاهيناز"9سنوات " تلح على لأعلمها ضرب النار تقول لي: فى المدرسة قالوا لي الإسرائيلين وحشين بس جدي إداهم علقة ".

ما لم يعرفه الكثيرون أن الشهيد إبراهيم الرفاعي كان مريضًا طوال عملياته خلف خطوط العدو، قصة تحكيها لنا ليلى ابنته: كان مصابا بقرحة حادة تسبب له نزيفًا في المعدة، أصابته في 5 يونيو 67، حدثت له صدمة كبيرة أثناء النكسة، لم يكن يصدق انسحاب الجيش المصري، وبعد النكسة وتكوين المجموعة 39 والتى سميت بهذا الإسم بعد نجاحها في 39 عملية واختار لها والدي رأس النمر كرمز ازداد عليه المرض حتى طلبت منه

والدتي عدم الخروج في عمليات خاصة.. وقتها رد عليها "طول ما أنا عايش لازم اليهود يخرجوا من مصر ".

تتذكر ليلى يوم استشهادة: يومها كان عائدا للبيت بعد غياب 3 أيام قضاها في عمليات خاصة، وبمجرد دخوله البيت، وكان صائما و لم ينم منذ خروجه من المنزل، جاءه تليفون أن السادات يطلب مقابلته حالا وخرج لينال الشهادة.

عن هذه العملية أقرأ بعض ما نشر: يأتي يوم 18 أكتوبر ويتقدم السفاح المجنون شارون ومعه 200 دبابة من أحدث الدبابات الأمريكية والتى وصلت رأسا من أمريكا ومعه لواء من جنود المظلات الإسرائيليين "وهم أكفأ وأشرس جنود الجيش الإسرائيلي" ويحميه الطيران الأمريكي الذي وصل إلى الجبهة رأسًا من الولايات المتحدة، يتقدم للاستيلاء على مدينة الإسماعيلية والذي لو حدث لتغير مسار الحرب كلها.

ويتقدم اللواء 23 مدرع ليواجه القوات الإسرائيلية ولكن تفوق الدبابات الأمريكية وسيادة الطيران الأمريكية تكبدانة خسائر تجبر القيادة المصرية على سحبه.

ومدد يا رفاعي... ويصل الرفاعي برجاله وليس بحوزتهم سوى القنابل اليدوية المضادة للدبابات وبنادقهم الخفيفة التي لا يمكن بأى منطق أن توقف زحف جحافل الدبابات الإسرائيلية. وهنا يخاطب الرفاعي أبناءه بابتسامته الصارمة "الراجل بدبابة يا ولاد"

ويدرك شارون أن أحلامه تبخرت وأنه فشل في أداء مهمته بعد أن رأى اشتعال دباباته وسمع صرخات جنوده وهم يطلبون الرحمة. ويدعي شارون الإصابة ويربط رأسه ويطلب هيلوكبتر تنشله من الجحيم الذي اشتعل حوله تاركًا جنوده يواجهون الموت وشراسة الرفاعي. ويفر الجنود بعد فرار قائدهم مما دفع بعض القادة اليهود للمطالبة بمحاكمة شارون لفراره من أرض المعركة وهو ما طالب به الجنرال جونين قائد الجبهه أثناء حرب أكتوبر بعد انكشاف كذبة شارون وفشله في تحقيق مهامه.

وفى اليوم التالي 19 أكتوبر وبعد أن منع الرفاعي قوات شارون من التقدم وبتقسيمه للمجموعة الـ39 إلى 3 مجموعات، وقفت كل واحدة منها على تبّة وأثناء انطلاق الأذان لصلاة الجمعة من مسجد قرية المحمسة سقطت إحدى دانات المدفعية الإسرائيلية بالقرب من موقع إبراهيم الرفاعي وانفجرت لتصيب إحدى شظاياه قلبه ويسقط الرجل بين رجاله.. يسقط واقفا مبتسما ليلفظ أنفاسه الأخيرة.

ليلى ابنته تحكي عن استشهادة :طلب السادات بعد إصابته بالشظية ضرورة نقله للقاهرة بأى ثمن وحدث بالفعل وجاء إلى هنا وأثناء رحلة دفنه إلى المقابر..كان يتساقط من نعشه "سرسوب" دم تفوح منه رائحة المسك..كل من حملوه استنشقوها وأكدوا ذلك.

يكمل سامح :منذ فترة كنا ندفن أحد أقاربنا بمقابرنا الموجودة في صلاح سالم والتي دفن فيها أبي، قال لنا أحد الأقارب: إن جثة أبي لاتزال كما هي.

فيلسوف الجهاد 1

في 16 أكتوبر 1981 دخل المعتقل. وفي 1 أكتوبر 1984 خرج منه بعد محاكمته. دخل حاملا رقم المتهم 155 في القضية 48 لسنة 82 أمن دولة عليا..ولقب"فيلسوف الجهاد ". وخرج مصاحبا ذكرى صداقة بأيمن الظواهري وبقايا أحلام ميتة لقلب نظام الحكم..وأسرار وتفاصيل وأسماء وشخصيات أصبح مجرد التفكير فيها مغامرة غالية العواقب.

فضل وحيد جمال الدين...أن يغلف كل ذلك بالصمت. صمت دائم..مع محاولات مستمرة..بل ومستميتة منه بأن يعيش ويتفاعل مع من حوله كبني آدم عادي بعد أن قرر أن يدخل أفكاره وأحلامه في استراحة طويلة.. فشلت صفقات إعلامية كثيرة ومغرية في الوصول إليها خاصة أنه واحد. أو ربما الوحيد من الأعضاء النشطين في تنظيم الجهاد الذين بقوا في مصر.

لم يسافر إلى أفغانستان.. لم يصفَّ جسديا.. لم يكمل بقية حياته في المعتقل.

وحيد جمال الدين... من أنت؟

ذهبت أبحث عنه في المعادي وبصحبتي سؤال واحد "لماذا؟".. وفي ذاكرتي التصقت مجموعة من المعلومات عن "الجهاد" التنظيم والأبطال وحوادث الاغتيال وفكر التغيير ومقتل السادات وقلب نظام الحكم.. ولماذا؟

اتفقنا.. كان لديه شرط واحد ألا يقترب من تفاصيل لو عاد إليها ربما.. كما قال لي دفع غيره ثمنها حياتهم.. أما حياته هو فلم يبق منها سوى رأي واحد "لست نادما" رأي دفع ثمنه ومازال يدفعه غاليا حتى الآن.

وبدأنا التسجيل كنت أبحث طول مدته عن قصة شاب مصري عاش ويعيش على أرض البلد دي.. ومع ذلك لم يتردد لحظة في أن يحلم بتغيير نظام الحكم بالقوة.. بصحبة قلة قليلة من أقرانه الذين التفوا حول فكرة واحدة..الجهاد.."الفريضة الغائبة" كتاب عبد السلام فرج..الذى ساعد في إشعال النار في رؤوسهم قبل أن يحكم عليهم بالسجن والتشريد بعد أن حكموا هم على غيرهم بالموت باسم الدين..فى حوادث كثيرة..حادثة الزاويه الحمراء والاستيلاء على مديرية أمن أسيوط.

حادث المنصة

كان يعنيني في المقام الأول..ومنذ أن قررت الضغط على زر التسجيل

ليدور.. أن أبحث على البني آدم الذي يسكنه كيف تطور وتحول من شاب عادي. .طالب في ثانوية عامة.. إلى عضو نشط في تنظيم حوّل مصر إلى جحيم وتحول في رأس السلطة إلى صداع مزمن. .أربكها وأقلقها وطيّر النوم من عينها، وحين حاولت علاجه والتخلص منه تخبط. .كثور هائج لم يفرق بين الشارة الحمراء وصاحبها والجماهير التي وقفت تشاهده.

لماذا؟ نصف الإجابة جاءت في 6 شرائط كاسيت والنصف الآخر جاء منذ اللقاء الذي جمعني بـ"وحيد" اختصرته قطرة دمعة واحدة خرجت من عينه.. وأمضت ثانية واحدة حين تصادمت مع نسيج بنطلونه القماش رافضة الذوبان بسهولة حتى تكورت ووقعت على الأرض.

قطرة دمعة واحدة..اختصرت مرارة سنوات عديدة.. وحين خرجت لم يقبلها أحد..حتى البنطلون الذي ارتداه "وحيدة"رفضها.. بالضبط كما رفض المجتمع صاحب الدمعة والبنطلون نفسه حكم عليه بالسجن المؤبد..وأصر على إذلاله حين رفض أن يضع له قضبانًا حديدية وحبسه بين أربعة جدران، ليجد نفسه وحيد جمال الدين في النهايه.. طليق بالاسم..مرفوض من أي وظيفة في مصر.. أى وظيفة في أي مكان دون تفرقة بين وظيفة حكومية مسئولة عنها السلطة ووظيفة في مصنع يديره رجل أعمال.

مؤبد... هذا هو الثمن!

ولماذا.. هذا هو السؤال الذي بقي ليجيب عنه "وحيد جمال الدين" من شقة متهالكة بدور أرضي يعيش فيها وحيدا. .يقتسم فيها الحياة مع رائحة

عفنة تخرج من الحمام.. بيتهيأ لي أنه لم يصلح منذ زمن وشوية عفش يبدو أنهم اعتادوا على رفض التنظيم.

الساعة الثالثة والنصف. منتصف الليل. ولماذا؟

اتولدت في السويس.. في حي الأربعين، نقلنا للقاهرة وقعدنا مع جدتى في القلعة ولما كان عندي 6 سنوات نقلنا للحلمية الجديدة دخلت المدرسة الابتدائية والدتي كانت معاها 6 ابتدائي، والدي خد الثانوية على كبر.. وكان شغال مدني في سلاح المركبات.. كنت متفوقا في دراستي في الابتدائي ومع ذلك كان المدرسون يرفضون دائما انضمامي لمسابقات أوائل الطلبة لأن هدومي كانت مبهدلة كانوا دايما يقولون الولد ده دماغه حلوة بس على رأي والدتي لما كانت تقول لي "المريلة بتاعتك ما يشمّش فيها الكلب" مستواي العلمي عالٍ، شكلي وسيم زي الأجانب.. بس هدومي ملخبطة.

وحين أخذت جائزة أخذتها خطأ افتكروا إن أنا من مهاجري السويس بمنطق "تفوّق وتغلّب على ظروف الهجرة" كنا في عيد العلم سنة 1968.. ووزعت الجوائز فايدة كامل بمدرسة مصطفى كامل بالقلعة، المهم دخلت بعد كده مدرسة المحمدية الإعدادية في الحلمية الجديدة وبدأت تحصل مفارقات غريبة كان ليها علاقة بعد كده بالأحداث اللي حصلت.. وكان فيه مدرس علوم اسمه أحمد مصطفى كان ينظر لي نظرات غريبة، ومرة قال لي: "إنت ابن موت" نفس الكلمة التي قالها لي بعد كده زميل لي في ثانوي اسمه محمد سعد تاج الدين.. دلوقتي دكتور كيمياء ميكانيكا

بكلية الهندسة قال لي "ماتزعلش مني يا وحيد.. أنا حاسس إن فيه حاجة حتحصلك" كنا ساعتها في ثانية ثانوي وكنت بدأت أرتبط أكثر بالكتب الشيوعية واللي ليها طابع إلحادي شيوعية تولوستوي وجيفارا ودعاوى التحرر والأشكال المتطرفة من الماركسية لأن في هذا الوقت ده كان منطقة الحلمية كان فيها ناس كتير من حزب التجمع.. وبعدين تلاقي كل الاتجاهات السياسية موجودة في المنطقة دى.

والاتجاه إلى الدين كيف بدأ معك؟

بالقراءة أيضا.. فبعد ما بدأت بداية مادية جدلية تحولت للقراءة في الميتافيزيقيا البحث عن المحرك الأول والأديان.. ما وراء الطبيعة لكن كانت الأفكار الشيوعية وقتها انعكست على شكلى.

بمعنى؟

يعني كنت مطول شعري.. بس في نفس الوقت لم أكن أمتلك الجرأة على "الصياعة" كنت خجولاً جدا وأفتقد القدرة حتى الآن على التعامل مع الجنس الآخر.

نعود للتحول إلى الدين؟

بدأت أقرأ في الدين وأحضر محاضرات الدكتور محمد الغزالي في جامعة القاهرة..كنت لسه في ثانوي.. بس كنت حريصًا على الذهاب إلى الجامعة لحضور محاضرات الغزالي.. ورغم اختلافى مع بعض أفكاره كنت شايفه دايما من الناس المخلصين المحترمين والكتب التي كنت أقرأها كانت

تساعدني على أن أسمعه وأفهمه والغزالي مختلف عن أي حد تاني لأنه كان بيخاطب فكر وكان بيتكلم في الشريعة مش بالشكل الدراويشي كان بيخاطب مستويات معينة لدرجة إننا أحيانا كنا ننتقده لأنه عايز عقلية أعلى.. ودا السبب اللي خلى قراءاتي عن الشرعيات تبقى أعمق للدرجة التي نسيت فيها الثانوية العامة ورسبت.

ورسبت؟

كان صدمة في البيت.. ماحدش كان مصدَّق.. لأنهم كانوا واثقين في تفوقي.. صدمتهم.. ولم يهزني الرسوب لأن مفهوم النجاح وقتها كان خد عندي شكل تاني..كنت باستخف بالطالب اللي يذاكر وينجح.. كنت دايما شايف إن النجاح الدراسي قضية هايفة جدا والرسوب ما هزنيش بالعكس كنت مستمرًا في القراءة بنهم شديد وبالجانب الثقافي بالتحديد.

وأسرتك قبلت هذا الوضع؟

من زمان وأنا وضعي مختلف في البيت.. ما كنتش أهتم بالتفاصيل الصغيرة اللي بتحصل حواليا ودا اللي خلق مفارقات في التعامل يعني مثلا يكون في البيت نص فرخة والدتي تديها لأخويا ولما كان يقولها"وحيد ما اتعشاش "ترد وحيد ما بيدوقش "وحيد دا ما بيموتش على الحاجة "وحيد ده ما يهمهوش" ومع الوقت أصبحت حقوقي في البيت حقا مكتسبًا للجميع.. عموما ماكنش في دماغي كل ده كانت الكتب واخدة وقتي كله، وبدأت وكنا في المعادي وقتها أحفظ القرآن وأحاديث كثيرة

جدًا وأهتم جدا باللغة الإنجليزية لأني كنت شايف إن القضية الدينية مش موضوع مصري خالص.. كنت شايف إنها قضية عالمية.

كانت القضية عندك بدأت تأخذ الشكل السياسي؟

مش بالضبط.. لكن كانت بداية التفكير في إنك إزاي تترجم الأفكار بتاعتك إلى واقع.

دا اللي عرضه عليك أيمن الظواهري؟

أيمن الظواهري من البداية إلى النهاية عمره ما حاول يفهمني إني في تنظيم وبالمناسبة أيمن كان السبب في إني أدخل تاني ثانوية عامة، وكنت أذاكر عنده في البيت مع أخيه حسين

علاقتك بأيمن الظواهري بدأت إزاي؟

أيمن أعرفه من زمان من ساعة ما نقلنا المعادي.. هو أكبر مني يعني أنا ساعة ما كنت في ثانوي.. كان لسه شغال في الزمالة في الطب.. وأيمن.. إنسان خلوق جدا ومؤدب جدا وذوق أوي ابن ناس يعني وهو جاله تعيين في كلية الطب بس رفضه لأنه حس إن عمه هيتدخل فيه، فقال أنا ما اتعيِّنش بالطريقة دي رغم إنه كان جايب جيد جدا أو امتياز أيمن رفض وقال لعمه ساعتها: أنا هاستقيل حتى من وزارة الصحة أنا هابقى حرًّا يعني.. وأيمن اللي خلاني أهتم بالدراسه زي ما قلت لك.

إزاي؟

قال لي.. وقتها لازم تهتم بالدراسة بمنطق ديني بسيط.. إرضاء الوالدين

حتى لو إنت مش عايز كده، قعد يتكلم معايا في يومها ساعة ونصف الساعة تقريبا.. أقنعني في النهاية ودفعني أن أذاكر عنده في البيت لحد ما أخدت الثانوية العامة.. وبدأت وقتها أهتم أكثر باللغات ويمكن من قبل كده أو بالتحديد في 2 إعدادي لما كنت بحب "الإنجليزي جدا" المهم خلصت الثانوية العامة ودخلت كلية علوم.

بدأت عندك القضية الدينيه تأخذ الشكل السياسي؟

بدأت تأخذ الشكل الثقافي.. بدأت أفكر في تحديد طريقة للتعامل مع الواقع.. وإزاي يكون لي دور في التعامل مع الحياة بصفة عامة وبدأت الحكاية بفكرة أن مش كفاية تكون مسلمًا تصلي وتصوم وتكون حتى مثقفًا دينيا الحكاية أكبر من كدة.

نرجع الأول لعلاقتك بأيمن الظواهري مش غريبة إنك تكون أحد أصدقائه.. رغم فارق السن الذي بينكما؟

والجانب الثقافى هو الوحيد القادر على إلغاء فروق السن وأنا عن نفسي في سني ده تخطى الـ45 سنة باقعد وأصاحب ناس اصغر مني بكتير طالما إن الدماغ حلوة والواحد فينا لو عمل حاجز بسبب السن سيحرم نفسه من الاستفادة من مواهب الناس اللي حواليه، وأنا ليّه صحاب حاليا من طلبة الجامعة لما بيقولوا لي مثلا تعالى نشوف فيلم.. باروح معاهم وبيستغربوا مني.

وحيد.. مين صحابك دلوقتي؟

باصاحب أي حد عنده أخلاقيات حتى لو كان جزماتي، أقولك حاجة أنا مصاحب واحد بتاع ورنيش اسمه "شريف" من ساعة ما شفته وهو بيلمع جزم ومركز أوي ومش عايز أى جزمة تطلع غير بالشكل المرضي حتى لو شغال في حتة متدارية.. عجبني أوي شريف وعجبني أكثر لما اقتربت منه.. لقيته إنسانًا محترمًا جدا لأنه بيشتغل بقيمة يفتقدها معظم الناس..

امتى عرفت إنك في تنظيم مع أيمن الظواهري؟

أيمن عمره ما قال لحد إن إحنا في تنظيم كان دايما يعلق بجملة واحدة "عايزين نشوف إيه ممكن يتعمل" لما حصلت أحداث كتير بعد كده.. وتم القبض على ناس في أماكن مختلفة، اتأكدت إن أيمن عنده حس أمني عالي جدا، وعشان كده كان دايما بيتكلم بشكل عام مع المحافظة على خصوصية العلاقة باللي حواليه ودا تفكير تنظيمي عالٍ جدا خاصة في المرحلة الأولى لأي عمل تنظيمي إنت مش عارف فيه مين معاك ومين مش معاك، مين مؤمن بالقضية ومين مش مؤمن بيها.

عايز تفهمني إن أيمن الظواهري ولحد ما حصلت أحداث كبيرة زي قتل السادات والسيطرة على مديرية أمن أسيوط ودخولكم المعتقل لم يقل لكم عن وجودكم في تنظيم..إزاي؟

أيمن كان ذكي جدًا.. ودا اللي اتضح حتى بعد كده في تحقيقات النيابة والمحاكمة، ماحدش مسك عليه حاجة وتم تهميش دوره، رغم إن دوره كان خطيرًا جدًا، وعمومًا إحنا وقتها كنا بنتكلم في قضايا كونية بصفة

عامة وهو كان يرى التعامل مع الواقع بشكل جهادي كان يرى حتمية تغيير النظام وإقامة دولة إسلامية ولما كنا بنسأله : كيف يمكن إقامة دولة إسلامية، كانت دايما إجابته : والله إحنا نستعد للظروف لأن ده ما يتمّش في سنة أو اتنين أو ثلاثة أو حتى 20 سنة.. أيمن كان شايف إن أهم حاجة في القضية "الدماغ" الاقتناع.

بتحب أيمن الظواهري؟

كنت مرتبطًا بيه طبعا لثقافته وأخلاقياته، إضافه لحالة زهده.. رغم أنه من عيلة مرتاحة أيمن كان بيتعامل مع نفسه بتقشف، ممكن تقول له أنا عايز 5جنيه يديهالك وتكون آخر 5جنيه في جيبه، إنت أخدتها علشان تركب تاكسي وهو هيركب أتوبيس، وأيمن قاس جدا مع نفسه.. يرفض الرفاهية وأفتكر موقف حصل ساعة ماكنا في المُعتقل، وأهله كانوا يعملوا لنا كل أسبوع زيارة واحدة باسم أيمن وواحدة تانية باسم أخيه حسين، وكانوا يجيبوا أكل يكفي ناس كتير كانوا بيراعوا الناس اللي أهاليهم ماتقدرش تزورهم ومره كانوا جايبين 7 صواني بسبوسة ومعاها طبق بسبوسة صغير لحسين كتبت له والدته عليه كلمة في ورقة.. حسين خد الطبق بتاعه..أيمن شافه قاله إيه اللي في إيدك ده؟ قال له حسين :طبق صغير بعتهولي ماما.. قال له هاته معاك.. إنت مش قاعد في مطبخ وحدك..حطمع الناس.. وكل معاهم، دي تركيبة أيمن مش عايز أخوه يظهر بأنه بيخص نفسه بحاجة لوحده من الزيارات مراعاه لمشاعر المعتقلين..فهو صاحب تركيبة إنسانية عالية أوي فتلاقى له مواقف كثيره أوي مثلا علاج الناس على

حسابه، يخلي دكاتره كبار يكشفوا على ناس عيانين على حسابه وأيمن سافر إلى أفغانستان قبل كشف التنظيم بفترة، كان يروح يغيب سنة من غير ماحد يعرف هو راح فين أو رجع منين..وساعتها كان فيه حرب روسيا وكانت الناس بتروح وتقعد في أفغانستان عادي، وهو كان بيحاول إنه يبقى له دور في الجهاد.

إزاي؟

أيمن بيؤمن إن الفرد لازم يجاهد حتى الموت، سواءحقق نجاحًا أو لم يحقق ودا منطق جهاد.. بيتعين على صاحبه إنه يكون له دور.. ما يقولش ماليش دعوة.. وما يدوّرش على النتائج الطالب فيها بيحصل على الفريضة، بمنطق إن دا لازم يتنفذ نجاح الموضوع أو فشله دا بتاع ربنا..مالوش دخل بأنك تستمر أو لا تستمر.. والكلام ده بيؤمن بيه أيمن الظواهري..حتى بعد إحنا ما اتفرقنا أيمن استمر وغيّر مكان الجهاد..أنا واحد من الناس قعدت وانسحبت لكن أيمن خلص القضية وكان عليه رقابة 5 سنين سافر على طول ما استناش.

طب إنت دخلت السجن إزاي؟ التهمة اللي وجهت إليك؟

"يضحك"القضية جت من سكة تانية خالص غير اللي كانت مع أيمن، شوف بأه الحظ، السبب في شدي هي محاولة مساعدتي لناس من ناحية عبود الزمر لإيواء واحد من المطلوب القبض عليهم في اعتقالات 5 سبتمبر، ودول ناس ماكانوش تنظيميين بالمناسبة بس بالصدفة الحكومة قفشت ناس من مجموعة عبود بعد اغتيال السادات، وكان منهم واحد

لجأ لي واتّاخدت بسببه وبالمناسبة السادات ماكنش مخطط لاغتياله في المنصورة قبلها في سبتمبر والحدوتة كلها باظت واتأجلت، وفكرة اغتيال السادات كان صاحبها خالد الإسلامبولي في التوقيت ده تحديدا وقتها قال عبود الزمر عندي فرصه لاغتياله في العرض، وخالد قال: أنا هاستخدم إمكانياتي كضابط في إدخال عناصر تشارك في الاغتيال اللي هما عبد الحميد عبد السلام والمهندس حسن عباس ودول كانوا هيسلموا احتياطي وكانوا هيسلموا "مخلى" قال لهم خالد: لا..استنوا.. ما تسلموش دلوقت وعمل لعبة كده..ودخّلهم الوحدة بتاعته وكان معهم عطا..دا كان موجود في الجيش أصلا تطوع مش مجند وهم اتدربوا على فكرة الاغتيال دي في بولاق الدكرور.. في شقة في ناهيا واتدربوا عليها عمليا في نادي الشمس..كان فيه مبنى تحت الإنشاء.. وكانوا بيعملوا عليه عمليات الهجوم والوصول للمنصة.

نرجع للتهمة التي وجهت إليك؟

اتهموني بأربع تهم – لامؤاخذة – يعني اتهموني بحيازة أسلحة ومتفجرات وحرق منشآت غير مذكورة قصدهم على خمارة والعضوية النشطة في التنظيم.. اللي هما 160 واحدًا طالبت النيابة بإعدامهم.

الـ 160 كانوا عارفين يوم اغتيال السادات.. خططوا ليه؟

مش شرط.. أنا عرفت بالاغتيال لكن معلومات غير مؤكدة لأن الميعاد كان تنظيميًا أعلى مني يعني 25 واحدًا بس هما اللي اتفقوا عليه من التنظيم وكانوا عارفين عملية الاغتيال.

عضو نشط.. وما لكش دور في الاغتيال إزاي؟

ما لقيوش يا سيدي لي حاجة محددة يعملوا لي دور فيها، المهم.. عرفت أنا بميعاد الاغتيال خلال التعبير اللي استخدم وقتها "وهو في زينته" لأن كان الاحتفال بـ6 أكتوبر دا يوم الزينة بتاعته، اقترح الزمر إنه ممكن ينضرب يوم الزينة بتاعته مع ملاحظة إن شلة الزمر غير شلة أيمن الظواهري كان هادي ودماغه عالية أوي ونظرته عالية أوي ونظرته للحاجات عميقة وبعيدة..بخلاف عبود

هي إيه... شلل؟

مجموعات بيجمعهم فكر واحد.. بيلتقوا عليها في النهاية والمجموعة دي أو التنظيم دا بشكل عام عندهم عزيمة غير عادية إذا كانت الخطط قائمة على الحفاظ على حياة اللي هيقوم بيها.. بالتالي النتيجة تفوق الخيال.

التهمة الرابعة؟

اعتبروني من العناصر المحركة للعمل عضوًا كادرًا من المؤسسين، يعني من الناس اللي التنظيم قايم على وجودهم وكانوا بيسموني فيلسوف الجهاد.

لقبك؟

لقب أطلقته النيابة عليّ واشتهرت به وقت التحقيقات، وسبب اللقب كفاءتي العالية وإجادتي للغه الإنجليزية إجادة تامة وأنا عندي وقتها 20

سنة تقريبا وأنا أصلا من أسرة تعبانة هما شافوا إن أنا مصروف عليّ كويس من قبل التنظيم.

إلى هنا كان يمضي الحوار هادئا..بسيطا لم يكن وحيد جمال الدين فتح بعد خزائن أسراره..حتى دخل المنطقة الشائكة.

فيلسوف الجهاد 2

حب الاستطلاع..يقود الطفل الصغير إلى الخطأ.. يحرّضه على أن يمسك النار بيديه، يدفعه لأن يبتلع أحيانا قطعة عملة معدنية أثناء محاولته تذوُّقها والتعرف عليها بلسانه..وغالبا ما ينتهي الأمر بكارثة.

لم يختلف الأمر كثيرا بين حب استطلاع طفل صغير وحب معرفة وحيد جمال الدين..الاثنان اشتركا في تتر النهاية..الكارثة.

قبل التحدث عن حب معرفة شاب صغير قادته الكتب وأفكارها إلى المعتقل بعد أن حرّضته على حلم الانقلاب على السلطة وإقامة دولة إسلامية، نستكمل أولا بقية حديث وحيد جمال الدين عن أيمن الظواهري.. العلاقة التي ربطت بينه وبين عبود الزمر من ناحية وعبد السلام فرج من ناحية أخرى، دماغه التي ضحك بها على النيابة والشرطة.. تكنيك تنظيم جناحه العالي جدا للدرجة التي لم يعرف فيها

أحد من أعضاء جبهته.وكما قال لي وحيد. أنه في تنظيم.

سألته.. كيف؟

لا تسخر.. أيمن بالفعل لم يقل لأحد أننا في تنظيم ولو حتى بمجرد إعطائك فرصة الشعور بأنك داخل تنظيم، أيمن دماغه وتكتيكه في الشغل عالي أوي بدليل أنه دخل القضية والمحاكمة دون أن يأخذ فيها حجمه الحقيقي.. المباحث فشلت في الوصول إلى دوره الحقيقي.

ليه؟

لأن ده أسلوبه هو بئر.. شخصية كتومة من النوع الحذر جدا بصفة عامة وشكاك نسبيا.. إضافة لأنه شخص مثقف جدا وقوي علميا حتى في العلوم الحياتية لا يضيّع وقته.

وكيف دخل إلى القضية إذن؟

اتزق في الأحداث اللي حصلت وكان سببها عبود الزمر ورجّالته، وأيمن كان على خلاف مع عبود..أيمن كان رافضًا قتل السادات والرفض دا ماكانش رفض شرعي، كان رفضًا تكتيكيًا.. رفضًا كأسلوب عمل عبود أفسد كل حاجة.

إزاي؟

عبود كان ساعتها مقدم مخابرات عسكرية وكان ضمن تكوين محمد عبد السلام فرج، والتكوين ده كان عبود نفسه جديدًا عليه وقتها، واللي جنده فيه ابن عمه الصغير طارق الزمر كان أقدم منه، عبود انضم للتنظيم

ده قبل ما يتم كشفه والقبض على أعضائه بسنتين بس دا عمّرش.

غريبة.. دوره كان كبير جدا في التنظيم؟

لأنه كان شخصية ذات إمكانيات عالية علشان كده أخذ وضعًا مهمًّا في التنظيم حط في حسابك مخابرات عسكرية + سنة + ثقافته + وضعه الاجتماعي+اسم عيلته+ ذكاؤه كل ده اداله وضع الظواهري بس كان معترضًا عليه.

ليه؟

كان شايف إن عبد السلام فرج وعبود الزمر والتنظيم بتاعه ينقصه ذكاء الحبكة التنظيمية، واخدين الموضوع على طريقة الجوامع "بارك الله فيك يا أخي" أيمن كان شايف إن ده مش شغل، إن الشغل السري له تكتيك وأسس ومبادئ، إنما اللي كان بيحصل في جبهة عبد السلام وعبود.. شغل "هليهلي" نظام مشايخ وكده وبالرغم إن كان عندهم عزوة كبيرة خاصة مجموعة الصعيد.. بس فنيًّا كوادرهم ضعيفة بدليل إن فيه أعداد كبيرة منهم انكشفت بدري وانسحبت منهم أعداد كبيرة قبل ما تنكشف.

مين قتل السادات.. مين خطط.. شلة عبود وحدها ولا أيمن الظواهري اشترك معاهم؟

السادات قتل نفسه.. وقضية قتله مش محتاجة فلسفة لأن السادات كان بيكتب شهادة وفاته ساعة ما كان بيمضي على قرار التحفظ العام اللي عمله في 5 سبتمبر، وعمل عداوة مباشرة بينه وبين كل الجهات المعارضة في شكل ووقت ولحظة واحدة والتمن كان حياته.

كلام فلسفي تقليدي؟

الحكاية..بدأت لما نوّه السادات في أحد خطاباته عن عبود الزمر، عبود حس وقتها إنه خلاص اتعرف وكان تقريبا هربان من الجيش وانتقل ما بين كذا شقة لحد ما خطط هو وخالد الإسلامبولي للمسألة ونفذاها في العرض العسكري.

وأيمن؟

كان رافضًا كل الهزار ده، دماغه كانت ماشية في تنظيم سري على أسس حقيقية وهو عنده إخلاص ما عندوش صبغه المصلحة الخاصة..ودا الفرق بينه وبين عبود.

وبالمناسبه أيمن ما قامش بأى عملية تخص النظام ولا كان له دخل أصلا بعبود.. ماعرفوش بعض غير قبل أحداث الصعيد بفترة صغيرة.

المحكمة حاسبتكم كلكم في تنظيم واحد.. من غير فرق بين عبود والظواهري إلا في الأدوار؟

دا شغل مباحث.. المباحث يهمها في أي قضية حساسة زي دي إنها تعرض الموضوع أمام المحكمة بشكل متكامل حتى لو على حساب الحقيقة أحيانا، المهم إن الثغرات القضائية تكون مظبوطة، يعني لو إنت كنت معدي في الشارع ومالكش أي دور في أي حاجة وكانت القضية ناقصة حتة.. يعملولك الحتة علشان يكمّلوا بيك حلقة ناقصة. والمباحث كانت دايما عايزة تجاوب على أسئلة مهمة.. التمويل، عناصر التنظيم،

أسلحته.. كده.. لو العناصر دي مش موجودة.. القضية تبوظ قدام القاضي، وعشان يبقى القصد منه تشكيل عصابي.

يعني عايز تفهمني إن الظواهري والزمر.. ما لهمش علاقة ببعض. إزاي؟

مثلا كنا نسمع في العراق بوجود جماعة التوحيد الجهادية.. ودي فرق كل واحدة منها لها رجالتها وناسها وكل مجموعة شغالة وحدها.. لكن بيلتقوا فقط في قناة الفكر الواحد وبيلجأوا البعض عند اللزوم.. دا بالضبط اللي كان بين أيمن وعبود.

وأيه الأسباب اللي تخلي المجموعات دي تشتغل كل واحدة منها لوحدها.. طالما أن الفكر في النهاية واحد؟

أكثر من سبب.. منها تكتيك الشغل، ومنها الجانب الأمني، أو لأنهم لم يتفقوا على قيادة واحدة أو فضلوا العمل منفردين واللي يبدأ في تنفيذ حاجة يخبى الناس التانية قبلها بشوية، زي فكرة اغتيال السادات أيمن عرف بيها في اللحظات الأخيرة.. ورفضها.

إيه الفرق بين كيان الظواهري والزمر؟

أيمن ماكانش منتشر في الجوامع زي جماعة الزمر، كان له ستايل معين، ماكانش مربي دقنه، ماكانش يميل للإعلان عن نفسه..وأنا كنت من ضمن مجموعة الظواهري.

مجموعة الظواهري.. وإنت كعضو نشط فيها كنتم تتقابلوا فين.. وتتكلموا إزاي؟

ما فيش الكلام دا خالص ما فيش اجتماعات وكده، كنا نتقابل بشكل فردي ونتكلم عن أفكار عامة.

أفكار عامة تصنع حوادث تزلزل مصر.. إزاي؟

الأفكار بتبقى قائمة، لكن عملية البلورة لأي عمل تنظيمي لا تتم إلا قبل الأحداث.

والبلوره دي.. مش محتاجة تدريب وتمويل وسلاح ومنين وإزاي؟

بلاش المنطقة دي!

احترمت رغبته في عدم الخوض في مناطق محرمة.. وأعترف أنها لا تهمني كثيرا لأن معظم تفاصيلها وإن كانت ناقصة تناولتها العديد من الكتب.. التي نسيت أن تتناول وتعرض قصة واحدة لشاب واحد من أبناء تنظيم الجهاد.

منطقة إنسانية شائكة.. غلّفت بالدين وتفوح منها رائحة الدم، اعتبرتها منطقة جديدة وكانت كذلك، ثرية.. اكتشفت أثناء التسجيل أنها أثرى وأعمق وأقوى ولا يتوقف نزيف دموع حكايتها..بدأتها بسؤال وحيد: الفكرة بدأت إزاي ووصلت بيك للنهاية دي؟

دا التطور الطبيعي لأي شاب حب يفكر وقرر أنه يكسر النمط الهايف المعتاد، البداية إنك تؤمن بقضية بجد بدون منظرة لأن ما فيش في القضايا

الجادة منظرة في النهاية إنت بتراهن على حياتك، يعني موت.

إزاي؟

المسألة بتبدأ من المعرفة والقراءة في الدين بعد فترة بتلاقي المسألة مش مجرد صلاة وصوم وبعد عن الرذائل..كل شويّه بتكتشف إن فيه حاجات تانية، إنك تبعد الناس وتوعيها.. إنك تحاول التغيير درجات وبعدين لحد ما تصل إلى تغيير النظام اللي إنت بتعيش فيه.

ليه التغيير؟

دا صراع من زمان وسيظل موجودًا حتى نهاية الخليقة بين العلمانية وبين النظم الدينية، بين وجود دين يحكم الحياة وبين محاولة فصل الدين عن هذه الحياة، والمسأله غير مقتصرة على الدين الإسلامي فقط، فالتصادم ده حصل في عصر ما بعد؟ في الدول الأوربية كان النظام الديني مسيطرًا على الحياة في أوربا وكانت قناة الكنيسة غير قابلة للمناقشة حتى رجال الدين كانوا مسيطرين على الأراضي، وجت بعد كده النظم عشان تغير ده، وجه بعد كده ملك إنجلترا وبدأت فكرة معارضة الكنيسة والخروج على النمط الديني وتطورت المسألة لحد ما وصلت لفكرة الحريات مذهب الشك والريبة وخرجت طموحات جديدة في التعامل مع الحياة غير الطموحات الدينيه.

دا فكر الصراع وفكرك إنت؟

أؤمن بضرورة أن تدار الحياة من خلال الدين وحتى الآن إيماني ده لم

يتغير برغم أني دلوقتي لست في طاعة الله ولي أخطاء كثيرة.. لكن ده لا يعني إن دماغي اتغيرت.. كونك تضعف شيء وكون الفكر نفسه موجودًا شيء تانى لذلك في التحقيقات وأثناء المعتقل أنا قلت حاجة مهمة جدا "أنا ماليش دلوقتي دعوة بحاجة بس مصادرة دماغي دا موضوع تاني، عايزين تركبوا دماغي..تركبوها بالطريقة اللي اتعملت بيها، لازم في الأول تضربولي النقاط اللي أنا مؤمن بيها وتغيروا قناعاتي وطبعا هما ما يقدروش على ده.

ليه النقاط دي فيها إيه؟

فيها حاجة مهمة جدا إن الحياة لازم تدار بنظام الدين أيا كانت المسألة.. دين مسيحي.. دين إسلامي، المهم نداء عن طريق الدين، أنا ما عنديش قناعات الديمقراطية والأصوات العالية والناس اللي بتشتري الأصوات بفلوس.. عندي قناعة إن الحياة تدار من خلال الدين فبالتالي لازم أعرف الدين بيقول إيه وأبدأ أنفذ.. طبعا الكلام ده بيتصادم مع الفكر العلماني بيعتبروه دعوة للنظم الشمولية ومركزية الدولة، والنظم الدينية طبعا أحد أشكال النظم الشمولية اللي الدولة فيها مسيطرة على كل شيء.. بمنطق إن لو الحياة قادها الدين.. الحياة ستتجمد من وجهه نظرهم ودا معناه إن ما فيش تطور.. لكن طبعا اللي فاهم الدين السليم يعرف أن هناك مناطق قابلة للتطور ومناطق غير قابلة للتطور والتغيير.

وإيه الحاجات اللي قابلة للتطوير وإيه اللي غير قابل؟

شوف القضايا الأخلاقية كلها قضايا غير قابلة للتطور ولا تتغير بتغير

الأزمان، يعني سيظل الصدق حسنا والكذب قبحا، دي قضية دينية عقلية ومنطقية غير قابلة للتطور فلن يصبح الصدق قبحا والكذب حسنا.. دي مسألة منتهية لذلك كل القضايا المتعلقه بالإخلاص لابد من تثبيتها والمحافظة عليها، لكن لو تأملنا المنطقة دي هتلاقي حاجات كتير اتغيرت.. لازم الرجوع ليها، أما الحاجات اللي قابلة للتطور.. هي المجالات التانية زي الزراعة والصناعة، وبعدين تلاقي حد يطلع يقولك إنتوا عايزين البنات تلبس حجاب عشان نرجع لعصر التخلف، جاتكم نيلة، عصر التخلف اللي إنتو بتقولوا ده ساعتها كنا إحنا الدولة الأولى في العالم.كنا إحنا راكبين والغرب تطور لأنه عنده أخلاق ولو عالج بعض صور الانحلال اللي عنده سيعالج معوقات التطور الأوربي..عموما أنا عندي الفكرة متبلورة من زمان ومازالت القضية قائمة.

امتى القضية بيتم ترجمتها للواقع؟

الأساس وجود القناعات الفكرية بعد كده المفروض بانتقل لمرحلة تانية إنه يبقى لي دور.. أن أعمل حاجه، أتحرك بالقضية اللي أنا مؤمن بيها بدل ما أحتفظ بيها كفكرة مجردة في الدماغ..كنوع من الرفاهية الفكرية.. وتبدأ تدخل في مرحلة التطبيق.

إزاي؟

فقه التطبيق له أصوله وله مبادئه، لما تيجي تنفذ فكرة بتحط نفسك في قوالب تنفيذية معينة بتتعرض لعلاقة فكرة بالحياة العلمية.. ولو عملت كذا هيحصل كذا وهل ده يفيد ولّا يضر، يتدخل في فنيات الحركة.

بمعنى؟

عشان تشيل كوباية شاي مليانة من على مكتب..فيه حركات محددة لازم تقوم بيها.. لازم تكون دارسها وعارفها وعارف المعوقات اللي ممكن تقابلك في السكة لأن الحركة دي مع الحياة العملية.. محتاجة خبرات مسبقة.

وحيد.. من الأول للنهاية من بداية الفكرة وحتى دخولك المعتقل وخروجك بعد المحاكمة.. إيه اللي طلعت بيه من التجربة كلها؟

خرجت بحتة مهمة جدًا، إن ما فيش شك إن شباب عندهم أفكار وعندهم نفوذ كانوا ما عندهمش خبرات كانت فيه طاقة غريبة..إمكانيات مهولة تم استنفاذ قدراتها هباء ودا باعتراف بعض ضباط أمن الدولة.. يعني ساعات تلاقي واحدًا منهم بص كده وقال: "الله يخرب بيتكم..خسارة" يعني بيحس كده وهو بيضربك إن إنت مش عادي، بس عايز تنضبط كده، أصل تركيبة الجهاد هي تركيبة تغيير، ودول ناس قليّلة.

إزاي؟

فيه مثل إسباني بيقول "الذين لا يتكيفون هم الذين لا يغيرون " لو اتكيفت مع الواقع بتاعك، يبقى خلاص إنت راضي بيه، كل الكلام ده كان في دماغي وأنا صغيّر أوي..وهو اللي عمل لي شحنًا.. لما كبرت حاسس إني عندي 700 سنة مش 45.

فاكر يوم القبض عليك؟

كان يوم 16 أكتوبر 81 كنت رايح أطلع كارنيه الكلية وبعدين لقيتها زحمة قلت أروح وأرجع في الروقان ومن ساعتها ولغاية النهارده ماجاش الروقان ده خالص.

اتقبض عليك فين؟

كنت في البيت، كنت مستبعد إنهم يكونوا عندهم خبر إني خبيت الراجل بتاع الزمر، لأنه ماخدش غير ساعات ووديته مكان تاني.. سلمته لواحد صاحبي ما لوش دخل بحاجة اتقتل.

القتل؟

عرفت إن الأمن المركزي ضربه بالنار..عرفت برضه بعد ما أخدوني بيوم قالوا وقتها إنه بيقاوم السلطات، بالمناسبة الراجل ده أصلا ماكانش في التنظيم كان بيجاملني.

فاكر اللحظة اللي اتقبض عليك فيها؟

اتّاخدت من البيت 17 عربية أمن مركزى، كانت البيوت والأسطح كلها حواليا ملغمة بالبلدوزرات، كان فرح وقتها. والدتي وقعت على ركبها وقعدت تزحف والدي كان جوا الحمام ماكانش قادر يخرج، وأخويا كان بيعمل مشروع الهندسة بتاعه، الموقف صعب..بادفع تمنه لحد النهارده.

الثمن إيه؟

مش لاقي حد حواليا حتى أهلي، زمان كنت شباب.. راجل..المسائل

دي مش فارقة معاي دلوقتي.. ياه عندي رغبة قوية في احتياج الناس.. رغبة مش عارف أشبعها، وبالتالي فيه ألم نفسي، خاصة إني مش هلّاس ولا بتاع نسوان ودي مسألة تعباني.

ما حاولتش تتجوز ليه؟

حاولت أكثر من مرة بس ما حصلش نصيب وكده، ما حستش بالمسألة وسيبت الشبكة ومشيت ما أعرفش ليه.

ندمان؟

ما عنديش وقت للندم أنا لو ندمت خسرت كل حاجة فيه فرق لما أراجع تجربتي وأستفيد من نقاط وأصحح رأيًا سيئًا وإن مجرد أشعر بالندم شيء تاني.

ليــه؟

أولا لأني لو ندمت يبقى خسرت كل حاجة زي ما قلت لك، ثانيا لا شك إن التجربة قيمة ومميزة وغير مكررة بسهولة، لم تكن تجربتي في بيت دعارة ولا في مهزلة أخلاقية.. تجربتي في شيء حتى لو اعترضت عليها في النهاية لها منطق ولها رؤية معينة وتوجه، وتندرج في النهاية تحت بند الأفكار النبيلة المحترمة.

حتى لو كنت خسرت مقابل القضية شبابك؟

ما هو أنا بتألم لأني ما عشتش شبابي، لكن ما ينفعش أندم، فيه نظرة

وحيدة فضلا لي في عيون اللي حواليا إنهم بيشوفوني صاحب قيمة..ما فيش شك إنها بتشعرني بذاتي.

الناس ما بعدتشي عنك بعد تورطك في قضية الجهاد؟

من ناحية البعد الأمني كانت الناس بعيدة لكن دا اتكسر في الفترة الأخيرة خاصة إني ابتعدت عن كل الحاجات دي.

ما حدش حاول يتصل بيك؟

كان لازم أنسى وأنا لما خرجت ما تحركتش في أي حاجة ما عملتش اتصالات بجد ولا حاولت أستفيد من المواضيع دي رغم كل المغريات.

تستفيد إزاي؟

من جميع الجهات، الإسلاميين عايزينك تكمل عملك بطريقة ثانية ومجهول أمن الدولة عايزاك تشتغل معاها، الإعلام شايفك موضوع مثير وكلها حاجات رفضتها، آخرها لما فوجئت بصحفي أمريكي عايز يسجل معايا حلقات وقبلها التليفزيون الأيرلندي اللي عرض 40 ألف دولار.

رفضت ليه؟

عايز أبعد.

طب واتكلمت ليه دلوقتي؟

زى ما قلت لك في أول تسجيلنا مع بعض، جايز نو ع من الفضفضة.

رؤيتك اختلفت للتغيير بالقوة دلوقتي.. بعد السنين اللي فاتت؟

نصف الإجابة سيبني أحتفظ بيها وبالنص التاني أقول لك فيه إن حادثة زي بتاعة الأزهر مثلا دي لعب عيال.

إزاي؟

أعمال فردية غير جادة وأنا مش موافق عليها، ومن الناحية الشرعية إذا كان هناك فكر لابد من تغييره بالقوه فهناك اعتبارات شرعية لممارسة القوة لازم تكون فيه ضوابط للتغيير لكن إنك تقول"الله أكبر" وترمي قنبلة وتقول أنا صغيّر.. دا هبل.. ما لوش أساس شرعي.

وإيه هو الأساس الشرعي للتغيير؟

بلاش الإجابة تبوّظ الدنيا.

آخر سؤال..لو جيت تنصح حد قريبك داخل تجربة زي تجربتك..تقول إيه؟

الحركة الإسلامية في مصر خدت أبعاد تانية خالص، والحسابات دلوقتي خدت شكل تاني، فيه ضغوط كبيرة والحسابات الجديده تخليني ما أقدرش أقول رأيًا. الحوار طويل.. الأوراق التي أمامي كثيرة ثرية وإن اقتطفت منها لنفسي بالتحديد لاستكمال صياغته بطريقة مختلفة قبل طرحه في كتاب.. عن قصة شاب من مصر انضم لأخطر تنظيم عرفته مصر وعاشت مرارته وعاش هو مرارته أيضا.

الفصل الرابع

حال سبيلهم

" دنيا تجاريب.. تجاريب
تاهت فيها البصَارة
المِعزة تجري ورا الديب
والسبع تاكله الحمارة"

ابن عروس

الرصاصة لا تزال في قلبه

في كل عام يأتي يونيه..حاملاً على كتفيه ذكرى النكسة..مسحة الحزن المرسومة على جبين تاريخ مصر الحديث..أيام الفزع.. سنوات التهجير.. قرار التنحي..

فى النهاية..ذكرى وتعدي..عليّ..عليك..علينا! لكن عند عم إبراهيم.. لا. سنوات طويلة مضت وهي تعيش داخله..ملتصقة في الشريان التاجي.. يأتي الصيف تشتعل.. تنتفض، الرصاصة التي أصيب بها في 7 يونيه 67.. سكنت قلبه..قررت الإقامة الدائمة به.. إنها لاتقبل الخروج إلا في حالة واحدة..موته.

ورغم تأكيدات الأطباء وقتها أن فترة الإقامة مؤقتة، لأن الموت على بعد أشهر قليلة..فإن مشيئة الله منحته الحياة حتى الآن.

تشهد وزارة الدفاع أن رقم 43738 درجة جندي، اسم إبراهيم إبراهيم

أحمد، رقم البطاقه 76833 مكتب سجل مدني شبرا – محافظة القاهرة، قد أنهى خدمته العسكرية بالقوات البرية عن مدة خدمة حسنة قدرها يوم 20 شهر 6 سنة 1، بتاريخ 1 شهر 2 سنة 68.

"عند طلب أي استعلام نرجو ذكر الرقم التالي 153 أسرى 68 ".

فى ضواحي منطقة المطبعة يقضي الحاج مصطفى يومه..أمهر مدهباتي موبيليا عرفته المنطقة.. رغم ضيق محله تكثر زبائنه، لكن إذا أردت الوصول إليه..قل الحاج مصطفى..ولا تقل عم إبراهيم..لا أحد يعرف القصة.

"ممكن شاي".. يتركني إلحاحه بـ"تشرب إيه؟"..يشرح لي طبيعة عمله، أقاطعه بالسؤال عن النكسة.. يحكي.."دخلت مجندًا عاديًا سنة 66 خدت فترة المستجدين 45 يوما في منطقة تجنيد الحلمية، ودُونا معسكر "كاسفريت"..طريق مصر إسماعيلية قبل فايد، اتجندت سلاح إشاره ملحق على لواء مدفعية".

"اشرب شايك"..أرد "ماشي..بس كمّل "..فيكمل.." وقتها كان فيه مناوشات بين إسرائيل وسوريا أيام نور الدين الأتاسي، المهم طلعنا إحنا على سينا.. رايحين نضرب إسرائيل ونرميهم في البحر، قعدنا 33 يوما يشحنونا نفسيًا.. ويوم 5 يونيو..جت الإشاره الشؤم..قرار إننا نسيب موقعنا وننسحب في نفس الوقت اللي الطائرات الإسرائيلية دخلت تضربنا".

لمحات غضب.. "شحنونا وأول ما بدأت الحرب ننسحب.. إزاي؟ فيه ناس اتجننت، أنا جاتني هيستريا وقعدت أصرخ.. كان لازم نضرب

ونحارب.. إنما ننسحب، المهم القائد قال لي اركب العربية..ركبت ومعايا الجهاز اللاسلكي بتاعي، وصلنا قرب بلدة الحمامات..الطيران زاد الضرب علينا..سيبنا طريق الأسفلت..دخلنا الجبل..اتحمينا في موقع مدفعية مضاد للطائرات، بس الطقم بتاعه كان مشي..لقينا ناس من كتايب كتير.. كنا حوالي 140 واحدًا..حاصرونا من كل مكان..كان فيه ضابط شاب رفض الانسحاب وقتها طلع بالأربجيه يواجه الدبابات اللي جاية، قال لنا اضربوا نار اللي مش هيضرب..أنا هاضربه، كان أول واحد استشهد..نزلت طيارة ضربته بس بعد ما وقّع دبابة، قعدنا نضرب لحد ما خلصت الذخيرة دفنت سلاحي.. وجهازي اللاسلكي.. فضلنا 16 واحدًا".

"الشاي برد.. تيجي نشربه في البيت؟ أوافقه.."البيت في منشية ناصر.. هانركب أتوبيس".

في الطريق إلى الأوتوبيس يحكي: "منه لله اللي طلع قرار الانسحاب.. مات الآلاف..كنا بنمشي في سينا الجثث مرمية في كل حته، كل مكان تلاقي فيه جثث.. إيدين مرمية.. رجلين".

يتوقف فجأة عن المشي والكلام ثم ينظر إليّ في إمعان.. "النكسة مش لينا الجيش طول عمره بيدافع عن الأرض دي..النكسة مش للجيش، النكسة للي طلعوا قرار الانسحاب".

باستهزاء ممزوج بالحزن.. "كانت فين القيادة؟ فين فرق الاستشعار والمخابرات؟ القيادة كانت سهرانة مع وردة الجزائرية للصبح في

(أنشاص)، الراجل سهران للصبح عايز ينام لازم يصدر قرار الانسحاب، مش مهم الناس اللي تموت.. مش مهم طيران يغطيهم حتى.. لا.. كله طيران إسرائيلي بيضرب على علو منخفض.. ينزل يحصد الأرواح".

"لا والله.. إنت ضيفي" قالها وهو يدفع تذاكر الأتوبيس.

أسأله عن الرصاصة ليجيب: "حاصرونا إحنا الـ 16 لمدة يومين لحد يوم 7..وبالميكروفونات قال: سلم نفسك..كانت أصعب لحظة علينا كلنا، نزلنا رافعين إيدينا..ضربوني برصاصتين في جنبي اليمين..واحدة منهم سكنت في القلب، وقتها أنا رحت في غيبوبة وأنا بانطق الشهادتين.. ابتديت أفوق لقيت نفسي في عربية كلها جثث..واحد معايا بس كان مصابًا وقفنا عند مدرسة في العريش، مصريين كتير كانوا هناك قاعدين حاطين إيديهم على رءوسهم، اللي كان يحرك إيده ينضرب بالنار..ناس كتير أوي ماتت في المدرسة، المهم شحنوا الجثث مع الأسرى في عربيات، أنا كنت بانزف، ركبت عربية كلها جثث..كان العسكري الإسرائيلي بيتسلي بضرب الجثث الميتة ومعاه مجندة إسرائيليه بتغني بالعبري وهي بتعزف على الأكورديون، المصاب اللي كان معايا فاق وقال "آه" ضربه العسكري الإسرائيلي بالنار، دخلنا صحراء النقب..هناك كانت الجرافات بتعمل مقابر جماعية، كان العسكري الإسرائيلي والمجندة اللي معاه بيمسكوا الجثة من الرجلين والايدين ويرموها، حدفوا كل الجثث..جم عندي..مسك العسكري رجليا، المجندة كلمته بالعبري..سابوني في العربية".

"إحنا هننزل هنا..بس هنمشي شوية.. البيت الناحية التانية".

يقولها ثم يعود مرة أخرى لقصة النكسة.."فضلت في العربية، وصلنا بير سبع..خدوني على قطر البضاعة، لقيت فيه الآلاف من المصريين والفلسطينيين والأردنيين، القطر وصل تاني يوم الصبح بلد اسمها "عتليل" كل ده وأنا بانزف..البدلة الكاكي بقى لونها أحمر.. المهم حطوني في عربية إسعاف جيش وخدوني لمستشفى في تل أبيب.. كل ده، ومن ساعة الإصابة بالرصاصة وأنا فاقد النطق..وطالع من بقّي ريحة بارود ".

"معلش البيت مش قد المقام اتفضل ".

يكمل: "كان في المستشفى طبيب مصري برتبة نقيب بيعالج المصريين، وكان بيقفل الجروح وكانت عليه حراسة، المهم قفل الجرح وخدوني على المعتقل وهناك تعبت جامد..ودُّوني لدكتور إسرائيلي رش بنج موضعي على بطني وطلع الرصاصة اللي في البطن وحدفها في وشي وترك الضابط المصري يغسل لي الجرح، بس رفض إنه يخليه يخيّط لى الجرح وساب الفتح..حط قطن وشاش وشالوني على نقالة للمعتقل ".

"الكلام خدنا..تشرب إيه؟".

أطلب منه أن يكمل فيقول: "زمايلي كانوا بيخدموا عليّ، كل 3 أيام ياخدوني المستشفى يغيروا لي وكانوا بيساعدوني عشان أنطق، لم الجرح بعد شهر وبعد شهر تاني بدأت أتكلم..بس الرصاصة اللي في صدري فضلت تعباني زي ما هي ".

"اشرب الحاجة الساقعة".

يقولها ويضيف :"خدنا في المعتقل 6 شهور وكام يوم طلعنا في 24 يناير 68، كنا ساعتها بنبعت جوابات لأهالينا في مصر عن طريق الصليب الأحمر اللي كان بييجي مرة كل أول شهر".

كام واحد كان معتقلًا؟ أسأله فيجيب :"5 آلاف و200 أسير مصري و3 آلاف أسير سوري، ناس كتير..كان فيه رتب منهم صلاح ياقوت، بس الرتب..كانوا في كشك وحدهم".

"إشمعنى؟..أقولها ليرد :"لأنهم كانوا معلقين رتبهم، المفروض في الأسر يرموها بس هما سابوها طمعانين في امتيازات، وكانوا على فكرة بيطلعوهم نظام رحلات عشان كده لما رجعوا اتحقق معاهم أصل المخابرات كانت مخلية ناس معانا في الأسر عشان تعرف إيه اللي بيحصل".

"هنيئًا".

ويكمل :"في المعتقل عملنا مظاهرات، كانوا بيكهربوا السلك الشائك حوالين المعتقل بالرغم من وجود حراسة، اتنين مصريين اتكهربوا..كنا بنلم طوب ونعمل من الشرابات (الجوارب) مقاليع نضربهم بيها وكانوا بيردوا بضرب رصاص في الهوا..الصحافة العالمية صورت الكلام ده وكتبت عنه وقتها".

رجعتو إزاي؟

يجيب: "صفقة تبادل أسرى باتفاق مع الصليب الأحمر..التبادل تم على

شهر..عربيات كانت تاخدنا لغاية الضفة الشرقية ونعدي في لانشات الصليب الأحمر..الجيش كان بيستقبلنا بالورد والأحضان".

والرصاصة؟

سؤال آخر يخلع بسببه الجاكيت ويضيف :"لما جيت دخلت قصر العيني..جاني ضابط عقيد قال لي أحسن واحد ممكن يعمل عمليتك الدكتور صلاح الملاح، استشاري القلب ورئيس قسم الصدر والقلب بقصر العيني.. قال لي ده أحسن دكتور في الشرق الأوسط ".

يصمت قليلاً ثم يسأل زوجته عن الأشعة، وبعد أن يستخرجها يكمل: "فتح صدري، قالوا لي في الأول الرصاصه اتشالت بعدها باسبوعين المرضة قالتلى الرصاصة موجودة، الدكتور صلاح قال لي بعدها ما كنش ينفع أشيلها دي موجودة بين شريانين، أنا لو عايزك تموت كنت أشيل الرصاصة، لأني ما أقدرش أطلعها وألحق أركب شريان تاني ومافيش خياطة لشريان، اخترت أسيبها..تعيش يوم..تعيش شهر..أنت وعمرك".

يعيد ضبط ملابسه.. "قعدت شهرًا في قصر العيني..الجيش بعتني لمستشفى القبة يشوفوا الرصاصة موجودة ولا لأ، لقيوها موجودة وعملوا لي نسبة عجز..وقتها بعتّ للدولة عشان معاش.بس الدولة ما كانتش فاضية.. كانوا دخلوا حرب الاستنزاف..وماكانش حد فاضي لحد ".

الدكاترة قالوا لك إيه؟

"قالوا لي مش هتعيش أكتر من سنة بلاش إجهاد..بلاش شغل.. بلاش جواز ".

يكمل:"قعدت كام شهر في البيت، وبعدين.. كلام الدكاتره ما يأكلش عيش، قررت أنزل الشغل، أنا مدهباتي من صغري باشتغل المهنة دي وأنا عندي 12 سنة، وفى الستينيات كان أحسن صنايعي.. بياخد 60 قرشًا وأنا كنت باخد الـ 60 قرشًا، رحت مسافر تونس اشتغلت هناك 6 شهور وبعدين رجعت، وسافرت لبنان ورجعت هنا سنة 72 كتبت على أم سامح".

أهلها وافقوا؟

يضحك."قلت لهم عندي رصاصة بس ما حكتش موضوع السنة دي، لو قلت كده ما كانش حد هيتجوزني، دلوقتي أنا عندي 3 بنات وسامح بس المشكلة إني ما أخدتش حاجة".

ليه؟

تبدو على ملامحه الجدية.. "كنت باكسب كتير، ما سألتش وما حدش سأل عني، والدتي قابلت السادات في أحد مواكبه، قال لها ابعتي ابنك مستشفى القبة وهنديله كل حقوقه، ما رحتش، لكن لما رجعت بعتّ لوزارة الدفاع بعتوا لي جوابًا أروح الشئون الاجتماعية، رحت رحبوا بيّ هناك قالت لي الموظفة: عندنا إعانة عاجلة ومعاش شهري تختار أنهي واحد؟ قلت لها أعرف ده إيه وده إيه؟ قالت لي الإعانة 30 جنيهًا والمرتب 10 جنيهات.. اتصدمت ومشيت من غير ما أتكلم".

يصمت قليلاً..ثم يضيف.."سنة 2002 أصبت بورم في الغدة النخامية

والمخ، خلّص على كل الفلوس اللي معايا بعت شقة مدينة نصر وخدت الشقة دي إيجار، وسبت محلي الكبير في أرض اللواء ورحت المطبعة، بعتّ وقتها للمشير طنطاوي..أعتقد إن الجواب ما وصلهوش، لأن الرد اللي جاني قال إني لا أستحق، إزاي؟ أمال الإصابة دي مش كانت في حرب مصرية إسرائيلية ولا في حرب بين أستراليا والمكسيك".

"ح نتعشى مع بعض"..يقولها لأقف قائلاً: خليها في أكتوبر ينفع!

العلاج بإشارة واحدة من إصبعه

أخرج من جيبه سلسلة.. بدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة وهو يشير بإصبعه السبابة نحوي، ابتسم ثم قال "معمولك عمل"، لم أتحكم في سرعة الضحكة التي انطلقت مني لتصيب وجهه بتكشيرة وقبل أن أعلق أضاف: " واحدة سنة 2002، عشّمتها بالارتباط وسبتها.. عملت لك عملاً والجن السفلي ماسك في معدتك.. على فكرة مش هتعرف ترتبط بأى واحدة غير لما تفك العمل ده..وهتفضل تتعب على طول".

بتلقائية قلت له: "خلاص" فكّه، ليقف فجأة ويضع يده على رأسي.. طالبا مني قراءة سورة الإخلاص 21 مرة وهو يتمتم في سره، وبعد 3 دقائق قال: "أنا شلت منك الجن السفلي..وفكيت العمل..شكلك مش مصدق..بس هتشوف النتيجة بنفسك!

"دكتور صيدلي سمير يحيى الجمال..معالج روحاني..دكتوراه الفلسفة في التاريخ المقارن..رئيس المركز المصري للأبحاث الباراسيكولوجية.. رئيس الاتحاد الدولي للعلاج الروحاني فرنسا.

"موبايل..موقع إلكتروني..إيميل ".

هذا بالضبط ما احتواه كارته الشخصي كل جملة تحتاج لوقفة. كل صفة تحتاج لسؤال.. لنبدأ من الأول.

دكتور صيدلي سمير يحيى الجمال. من أنت؟

سمير يحيى الجمال، مولود في القاهرة 1940 دخلت مدارس ابتدائي وإعدادي وثانوي في المعادي حصلت على بكالوريوس صيدلة جامعة القاهرة ، اشتغلت صيدليا بالتكليف في مستشفيات قصر العيني لغاية سنة 1968، فتحت صيدلية في العجوزة لمدة 10 سنين..ومن سنة 1978 تفرغت للتجارة بالتحديد استيراد وتصدير نباتات طبية لدول أوربا.

ودكتوراه الفلسفة جت منين؟

سنة 68 أخذت ماجستيرًا في التاريخ العام، وسنة 89 أخدت دكتوراه في التاريخ المقارن.

من نفس جامعة القاهرة؟

لأ..المشكلة إن الموضوع الذي تخصصت فيه "تاريخ طب وصيدلة" ما فيش أي جامعة أو كلية مصرية بتدي فيه شهادة.ما فيش غير معهد الدراسات القبطية اللي في الكاتدرائية بالعباسية، وأنا كنت مهتما

بالموضوع ده من ساعة ما اتخرجت والتحقت بجمعية اسمها الجمعية العربية لتاريخ الصيدلة سنة 1978، ومقرها في قصر العيني وهي تهتم بتاريخ الصيدلة ونشره وبالمناسبة من 6 سنين بقيت رئيس الجمعية، المهم سمعت عن معهد الدراسات. رحت هناك قدمت رحبوا بي خدت ماجستير في تاريخ الصيدلة ودكتوراة في الطب والصيدلة عند الأقباط بدراسة برديات معينة من القرن العاشر الميلادي في مصر.

بس اللي مكتوب في الكارت دكتوراه فلسفة مش صيدلة؟

فيه دكتوراه علوم ودكتوراه فلسفة BHD، الأولى علمية والتانية أدبية "فلسفة لأني واخدها في التاريخ المقارن بين الحضارات.. تطور تاريخ الصيدلة وأنا بادرس تاريخ صيدلة في جامعة عين شمس باتعامل معاهم من الخارج، ورفضت التعيين لأني مش غاوي القيود الحكومية.

طيب..خلينا في المهم..يعني إيه معالج روحاني؟

كان فيه سؤال شاغلني من زمان.."هى الروح بتمرض؟ وإيه أسباب مرضها؟ وإيه العلاج؟ "السؤال ده خلاني أهتم بكل ما هو وراء الطبيعة خاصة إن القرآن الكريم تكلم كثيرًا عن الجن وعن السحر، وإن فيه أسحار اتعملت للنبي "صلى الله عليه وسلم" من قبل اليهود وسيدنا جبريل ساعده في التخلص منها، كان فيه هاتف بيقول لي ادخل في الموضوع ده وأبحر فيه.. بس كان فيه شروط الأول لازم أعملها.

وإيه هي الشروط؟

لازم أصلي بانتظام مع قراءة القرآن بانتظام، وقراءة سور معينة عددا معينا في أيام معينة من الشهر العربي لرفع درجة الروحانية، لأن كل سورة وكل آية وكل حرف له "خدام" بالملايين من الجن العلوي والملائكة.

وإيه اللي بيحصل بعد كده؟

الملوك والجن العلوي ذبذبة موجاتهم عالية وسرعة ترددهم عالية. فيشحنوا الإنسان اللي بيستدعيهم، وأنا كمعالج روحاني أستدعي ملوك الجن لعلاج الناس.

تصدقني لو قلتلك إني مش فاهم حاجة؟

بص..معظم الناس بتبقى الروحانية عندهم واطية لأنهم لا يهتمون بالصلاة وقراءة القرآن ودا بيسهل على الجن السفلي أن يؤثر عليهم ويسبب لهم أمراضا.

إيه الفرق بين الجن السفلي والجن العلوي؟

العلوى دول مؤمنين بالله ومنهم الملائكة.. والسفلي أتباع إبليس وأولاده.

وإيه دخل ده كله بالإنسان؟

إحنا مش عايشين في مجتمع منعزل، كل دول عايشين معانا ده من ناحية، ومن ناحية تانية يعيش في الإنسان 10 أجسام جنيّة منها "الجسم الأثيري" ودا اللي بيطلع بره الجسم لما الإنسان ينام، ومنها جسم الحاسة السادسة ودا اللي بيدي الجلاء البصري والسمعي أو ما نسميه بالشفافية، وبقية الـ8

بينظموا الأعمال المختلفة في الجسم برئاسة الروح.. واحد مختص بالجهاز التناسلي.. واحد القلب.. واحد العظام وهكذا، والناس اللي درجة الشفافية عندهم عالية بيقدروا يشوفوا الجن ودي فكرة العلاج الروحاني إنك تشوف الجن العلوي وتتعامل معاه في طرد السفلي.

وإيه دخل الجن العلوي أو الجن السفلي بالأمراض اللي بتصيب الإنسان؟

99 % من الأمراض سببها الجن السفلي والـ 1 % بيصنعها الإنسان بنفسه، أى التدخين..المخدرات وغيرهما، لكن جميع الأمراض سواء العقلية أو العصبية والعضوية وأمراض الاكتئاب والشيزوفرينيا وانفصام الشخصية والميل للانتحار والخنقة والتوتر العصبي والجنون والدافع للإجرام وأذى الناس. كل ده بسبب الجن السفلي..الناس بتروح للدكاتره بيدُّوهم شوية أدوية.. استحالة الأقراص دي تمشى الجن السفلي.

وحضرتك بأه بتمشيه بإيه؟

ربنا إدانا سلاحين نحارب بيهم الجن السفلي، الصلاة وقراءة القرآن بانتظام، لو عملت كده بيجيلك الخدام من الجن العلوي والملائكة لحمايتك وشحنك بالروحانية بدون ما تحس.

خلينا في حضرتك.. إنت بتعالج إزاي؟

معي ملوك وخدام وأرواح عليا باستخدمها في إعادة شحن الجسم بالروحانية، يعني مثلا واحد بيعاني من آلام في الرأس، أولا بأمرهم بأنهم

يشيلوا الجن السفلي وبعدين باشحنه بالروحانية من خلال سرعة الموجة الكهرومغناطيسية عشان أعمل توازنًا ما بين الروح والجسد وتبتدي الأجهزة تشتغل صح.

فيه ناس كتير بتشتغل بطريقتك دي؟

فيه مدّعون بيشتغلوا بالجن السفلي واللي بيشتغل بالجن السفلي ما يعرفش يعالج لأنه عشان يستخدم السفلي لازم يكفر بالله ويصلى لإبليس حتى يأتي له خدام إبليس ويتعاملوا معاه في أذيّة الناس وعمل أعمال بالضرر والنزيف والربط والخنقة، أنا باعالج روحاني باطرد الجن السفلي وأشحن المريض بروحانية عالية عن طريق يدي كوسيط أو من بعيد، أنا بعالج الناس بالتليفون.

بالتليفون؟!

بيكلموني مرضي من أمريكا ومن فرنسا وروسيا وكل حتة في العالم.. مسلمون..مسيحيون..يهود أي ملة.. أعالجهم وأحط ملوك عشان تحميهم.

فيه أي أساس علمي لأى كلمة حضرتك قلتها لي؟

فيه الأبحاث الروحانية اللي أنا باشتغل بيها وباعملها.

سيبنا من أبحاثك..أساس علمى آخر؟

عشان أوصل لدرجة إني بصباعي كده أمشّي الجن من الإنسان خدت

سنين طويلة وأنا بارفع روحانياتي بالصلاة والقرآن والصيام والخلوة.. كل ده بيخلي ملوك كتير تيجيني.

يعني من الآخر ما فيش أساس علمي.. مين مرضاك؟

جميع الناس..أطفال، ستات، رجاله، شباب، فتيات فاتهن سن الجواز. وزراء، محافظون، أمراء من دول عربية بيجوني وأروح لهم، شيوخ، أجانب، بقالي 40 سنة باعالج ناس مقرونين بالجن السفلي، وزرت معظم بلاد العالم..أنا مسافر كمان يومين رايح دبي..عشان أعالج شيخ هناك.

ممكن تقول لي أسماء؟

ما أقدرش أفشي أسرار مرضاي.. بس فيه ناس كتير مشهورة وهما عارفين نفسهم.

40 سنة بتعالج.. ما فيش أى جهة رسمية اعترضت على علاجك لأنه على الأقل غير معترف بيه رسميا؟

ما فيش حد اعترض رغم أن مصر والدول العربية المتخلفة بترفض العلاج الروحاني في الوقت اللي العالم كله فيه بيعترف بيه، وهناك معاهد وجامعات تدرس العلاج ده.

طيب.أسألك سؤال تاني إنت بتقول عشان الناس تحمي نفسها من الجن السفلي لازم تصلي وتقرأ قرآن معنى كده إن أصحاب الديانات الأخرى يسيطر عليهم الجن السفلي؟

هم أكثر عرضة للمرض، عشان كده لما بيجيني مرضى من ديانات تانية باخليهم يقرأوا سورة"يس3 مرات الصبح و3 مرات بالليل طول العمر.

دكتور كلامك خطير..وعلى فكرة أنا باسجل؟

الكلام ده أنا نزّلته في كتاب بيتباع في السوق من سنة 2001، ودا كلام حقيقي.. مش دجل وشعوذه زي اللي بيحصل في المساجد والكنائس.. راجل طويل عريض يضربوه ويحرقوا صوابعه عشان قال إيه بيطلعوا العفاريت اللي عليه، دا كلام فارغ وهجص ودجل وشعوذة الناس دي بتشتغل بالسفلي بيلبسوا الجن جسم الإنسان ويخلوه يصرخ عشان يعملوا تمثيلية على الناس..لازم الحكومه تمنع الكلام ده.

يا دكتور.. لو كلامك صح كانت الدول اللي بره لغت الطب الرسمي واستبدلته بالعلاج الروحاني؟

ما يفهموش الكلام ده، وأنا في فرنسا من خلال الاتحاد اللي أنا أسسته باعلم أجيال كتير العلاج الروحاني صح.

إشمعنى فرنسا؟

لأنها قلب أوربا في العلاج الروحاني ولأن فيها حرية أكثر، الدول التانيه عندها اعتراضات شوية.

إجراءات تأسيس جمعية هناك سهلة ولّا صعبة؟

سهل جدا بتجيب أسماء 10 أفراد وعنوان شقة وتكتب النظام الأساسي وإيه أهداف الجمعية وبتدفع 100 فرانك.

بتاخد كام في العلاج؟

حسب نوع التعب وعدد الأعمال اللي معمولة للمريض وكم البخور اللي باحتاجها وفيه ناس كتير باعالجهم ببلاش، أحيانا بامشي في الشارع أو في المترو أو حتى الطيارة ألاقي ناس تعبانة كتير، باطلب من الملوك "شيلوا اللي عليهم وطهروا أجسامهم وحطوا حرس".

إنت معاك كام ملك؟

مالهومش عدد آلاف منهم حرس كتير لحمايتي من الجن السفلي لأني مستهدف منهم عشان باحبسهم وأحرقهم.

أسألك سؤال تاني.. إزاي بتقدر تعالج الفيروسات؟

الجن السفلي بيوطي مناعة الإنسان، نتيجة إن حد عمله عمل.

أقاطعه..يا دكتور خلينا نتكلم بالعقل عايز تفهمني إن الناس وسط المشاكل الكتير اللي عندها فاضية تعمل أعمال؟

يرد بعنف..طبعا أنا جاني ستات كتير بتعمل أعمال لأزواجها عشان ما يبصوش لواحدة تانية، جاني بنات 17 و16 سنة بيعملوا أعمال لأولاد علشان سابوهم، من أسهل الأشياء إنك تروح لأى حد يعملك عمل وتوقف حال أي حد عن الزواج.

أفهم من كده إن مشاكل العنوسة في مصر بسبب الجن السفلي؟

إنت بتقول فيها، دا حتى لما يتجوزوا بيسيبوا بعض وبتحصل مشاكل ويتم الطلاق برغم وجود ولاد بينهم.

طيب يا دكتور..تقدر تواجه الطغاة بالجن العلوي.. ينفع تلاقي حل مع إسرائيل؟

ممكن، بس المشكلة إن معظم رؤساء العالم والملوك بيتعاملوا بالجن السفلي.. وفيه رجال اعمال كتير في مصر كده.وممثلون ووزراء عشان واحد يقعد في القمة وحده بيستعينوا بمشايخ تسخر الجن السفلي.

وإنت بتقول إنك بتواجه الجن السفلى..خلصنا بقى من المشاكل دي؟

مهما شلت منهم بيكون معاهم كتير، وبعدين أنا لو عملت كده هاستفيد إيه؟ وعلى فكرة فيه حكام بيستعينوا بالجن السفلي عشان حماية عروشهم وحمايتهم من الاغتيالات.

بصراحة أنا مش مصدق الكلام ده..هل ناقشت أفكارك مع أي جهة في أي مكان قبل كده؟

دخلت في مناقشات كتير جدا، فى قنوات فضائية وكل مرة يجيبوا لي شيخ من الأزهر ودكتور طب نفسي، والاتنين يهاجموني ويقولان لي ما فيش الكلام دا..ما فيش جن، المشايخ ممنوع يقولوا إن فيه جن بقرار من شيخ الأزهر، والإعلام ممنوع يتكلم بأوامر من وزير الإعلام، بص أنا بتهاجم في كل حتة..لكن نتائج علاجي هي الفيصل والناس اللي بتحبني كل يوم وبتتعالج، ده أحسن رد.

ممكن نرجع للكارت تاني وأسألك يعني إيه رئيس المركز المصري للأبحاث الباراسيكولوجية؟

أنا عامل مركز هنا في مصر باعلم فيه الناس اللي عايزة تتعالج.

والمركز له تصريح رسمي؟

ماحدش بيدي تصاريح لحاجات زي دي.

دكتور ينفع أقول لك إن إنت دجّال؟

كتير قالوا عليّ كده.لكن لما شافوا النتائج رأيهم اتغيّر.

تركته وأنا أفكر في تلك الجمل القليلة التي فسر بها آلام معدتي. أخبرته بنصيحة الأطباء بضرورة إجراء جراحة فاختصر لي سمير الجمال المسألة كلها في "معمولك عمل" وبعد 3 دقائق بالضبط قال لي "لا تأخذ أدوية.. لن تتألم بعد الآن..فكيت عملك".

كان من الممكن أن أصدقه لولا أن الألم طاردني أكثر من مرة بعد خروجي من فيللته في المعادي.

آخر أبطال السيرة الهلالية

صلوا بنا يا قارئين على النبي | ألفين صلا على صفوة الفتاح| يا سعد من أكثر صلاته على النبي| ويا سعد من زار المقام وراح| من بعد تمجيدي في جمال محمد| أصغي كلامي على رجال ملاح | "سيدالضوي" بيغني قصايد| كلام حلو كشهد دايب| حافظ لسيرة بني هلال|الرواية سكنت دياره| "5 مليون" بيت ليها قوال| علشانهم زرناه في داره.

هو واحد منهم الفرق الوحيد بينه وبينهم، أن أبطال سيرة بنى هلال ماتوا..دون أن يسجل أحدهم القصة كاملة..دون أن يرى كل الأماكن ويشهد كل الحروب ويكتب قصص الحب ويحفظ لحظات الرثاء ويلمس الجوع والخوف واليأس والحلم و..

ليبقى سيد الضوّي..آخر بطل للسيرة يعيش بيننا الآن..بعد وفاة "جابر أبوحسين" ورحيل الحاج "ضوي" وموت "علي جرمون" وغيرهم من شعراء الملحمة الأسطورة.

بطل وحيد.. يقف على الساحة.. حاملا في ذاكرته السيرة كلها وفى يده ربابة وعلى تليفونه عبد الرحمن الأبنودي يتابعه..ويطمئن عليه وعلى أبو زيد الهلالي سلامة وولاد أخته يحيى ومرعي ويونس والزناتي أبو سعدة والعلام والجازية والعبد قمصان.

صحيح...أخبارهم إيه يا عم سيد؟

أسأله ليجيب..عارف ماهعملش حوارات واصل" نصف ساعة تمر ومحاولاتي معه تفشل ينهيها بجملة واحدة "أنا عارف إنك جاي من مشوار طويل.. ما تزعلش مني يا أستاذ.. خد قهوتك، أصلي حالف يمين من بيتي ما هعملش حوارات".

ليه يا عم سيد؟

عملت كتير والناس بتلخبط في كلامي، إذا كان وقّعوني مع الأبنودي.

الأبنودي..كلمة تفتح باب أمل جديد في أن رحلتي إلى قوص لن تنتهي دون الحصول على حوار معه..أقول "خلاص أكلمهولك" ليرد بعفوية الأطفال "أبقى الأبنودي شريكي عشان تقول لي أكلمهولك ".

أبحث عن رقم الأبنودي..ألو..أيوه يا خال..أعرّفه بنفسي وأعطي الموبايل لـ"سيد الضوي" وبعد مفاوضات استمرت 7دقائق تقريبا بينهما وافق أخيرا مطالبا بشرب كوب الشاي الذي حلفت ألا أشربه إلا بعد موافقته على إجراء الحوار.

أشرب الشاي وأسأله..عم سيد كام سنة؟

عمك سيد مواليد 1934 م.

مين حفّظك السيرة؟

السيرة يا شيخ العرب في الأصل وراثة عن أبوي الحاج ضوي وجدي الحاج علي.

حافظ كتير منها؟

إن شاء اللـه حافظين كتير..كل اللي خدته من أبوي حافظه، وكملت من عم جابر عشان ده بحر طامي..راجل لا يعلى عليه في السيرة.

يصمت قليلا..ثم يضيف: "أصل إحنا الأساس من سوهاج بس أنا وأبويا مواليد قوص، جدي لما جه من جرجا هارب من الجوع والدم، وطّن في قنا، طبعا غوى السيرة..علم أبويا، دلوك "دلوقتي" عم جابر من فين؟.. من مركز جهينة كان زميل أبوي، ولما وصلت أنا 10 سنين بقيت أمشي ورا أبوي أجر الرباب وأسند معاه "يعزف معه"وأتعلم..ألقط الكلمة وأحفظها ولو مافيش شغل.. كان فيه شعراء تاني عليهم رحمة اللـه اللي يروح فرح أروح معاه، وأقعد تحت الدكة أسمع، أو حد يقول لي تعالى يا سيد معانا الفرح الليلادي.. تعالى اسمعلك شوية.. قول هما كلامهم فرادي..بس الأساس المربعات.

بمعنى؟

الأصل...هو المربعات بتاعة أبوي وعم جابر يعني يقول الشاعر مثلا :

خليفة قال غيري ما فيش ناس

حامي شرقها والغرايب

دي قافية.. ويقول:

أنا حادف العمة والشاش

باخزي شنب كل عايب

دي المربعات بتاعتنا.. اللي هي أصل السيرة.

خدت كام سنة تحفظ السيرة؟

خدت يا شيخ العرب 20 سنة أسند مع أبوي، بعد 20سنة زي ما تقول أبوي تعب قال لي.. ما تقول ياسيد بقيت أحكي.. أخبط خبيط وكانت الناس تقول "الله.. والله خلفت يا حاج ضوي، ولما قفلت الـ 35 سنة حفظت يمكن نصف السيرة.

وهي السيرة كام بيت؟

كتير..دا بتاع "5 ملايين" وشوية غير السيرة النبوية اللي بنفتح بيها.

وليه دايما تبدأ قصة الهلالية بمدح النبي؟

أصل قالك الشعرا يتبعون الغاوون. لكن لما نبتدي السيرة بالصلاة على النبي ونستغفر الله نبعد عنها الشيطان.

المهم.. بعد 35 سنة حفظت نصف السيرة والباقي؟

بقيت أسمع من عم جابر نكون مع بعض وبعد ما تشطب الليلة أسمع مراحل ماسمعتهاش من أبوي لحد ما عم جابر ولده "حسين اختفى "فقد"

والمرة "زوجته" تعبت وأبوي مات زي ما تقول عم جابر تاه بس كان يقول لي "تعالى يا سيد.. أنت راح تطلع خليفتي " أسمع منه وأشوف دي رايحة فين ودي جايه منين..لحد ما حفظني وقال لي "يا ولدي السيرة دي "5 ملايين" بيت فيها 18 مرحلة، 12مرحلة في الشرق و6 في الغرب ".

كل جزء من الـ 18 فيه كام بيت شعري تقريبا؟

على حسب، فيه أجزاء كبيرة قوي ماعرفش عددها يعني معاك قصة طلوع بنات الأشراف دي بتاخد وحدها 3 ساعات.. دا غير كمان الهدنة.

عم سيد..إنت ممكن تحكي السيرة كلها في ليلة؟

عُمر ما فيه شاعر يقدر يحكي السيرة كلها في ليلة 5 ليالي معلهش، 6 ليالي ممكن.

السيرة حكاها جابر أبو حسين..وعم ضوي..وعلي جرمون ويحكيها الآن سيد الضوي..إيه الفرق؟

ما فيش فرق في دول غير عند علي جرمون رحمة الله عليه لأنه ماخدش من عم جابر، خدها من أبوه.. كلام فرادى مش مربعات، وفيه كلام جابو مش في السيرة زي حكاية "ياسين وزبيدة" وحكاية "العبد ريحان وسريان" كل دي حكاوي.

عم جابر سجل السيرة كلها؟

عمك جابر سجل 56 شريطًا بس كلها قاعدة عند الأبنودي.

وإنت؟

أنا عملت 63 شريطًا ولسه ما كملتش حاجة من السيرة.

ليه.. هي السيرة تاخد كام شريط؟

يفضل قول 300 أو 350 شريطًا عشان تخلص السيرة.

وليه ما سجلتش يا عم سيد الباقي؟

بسبب الشركة الملعونة، ياخدوا مني شريطًا واحدًا من جزء ويسيبوا 3، 4 ما يخدهمش واصل، ويا ريت يسجلوا مسلسل "يقصد بالترتيب"..لا.. يقولولي عايزين شريط من "سبيكه وأبو الحقان " ويقولوا عايزين "أبوزيد وخليفة" و"أبو زيد وناعسة".. يعني حاجة مخربطة "ملخبطة" واصل.

مين أكتر شخصية تحبها في السيرة؟

أقولك..أنا أحب الرجالة، طالما رجيل أنا أحبه، يعني عامر لا بأس بيه، خليفه الزناتي..زعيم العرب كله.

عم سيد..وأنت بتروي السيرة..بحس إن أحداثها دارت في الصعيد وليس في بلاد نجد وتونس والعراق؟

السيرة أساسا تتسمع في الصعيد، يعني معاك مثلا في البلاد البحرية زي الشرقية والغربية والأماكن دي. فيه شعراء زي على الوهيجي وفتحي أمسر مين "مش عارف مين " كلهم يقولوا سيرة، بس المعنى يجيبلك السيرة– اللهم لا شماتة – يا سادة يا كرام – قال الزناتي خليفة – و3، 4 كلمات ويقفل الحكاية على كده..السيرة كبيرة وكلها أصول.

سافرت كام بلد قلت فيها السيرة؟

السبوع الجاي "الأسبوع المقبل" رايح تونس للمرة التالتة ورحت فرنسا 3 مرات ورحت هولندا، ورحت بريطانيا وعمان والكويت والحج.

قلت السيرة في السعودية يعني؟

"يضحك"حجيت بس...دفعت كوم فلوس..أقول إيه؟

مين كان يسمعك في بريطانيا؟

والله العظيم يا أستاذ أنا اللي سمعته من المسئول البريطاني ما يخطر على بال أي مخلوق، دا طلب مني سيرة "جواز خضرة من رزق"..أنا لو رحت 20 فرح في بلادنا هنا مين يفكر يطلب "جواز خضرة من رزق ".

والمسئول ده منين؟

من بريطانيا نفسها، وكان عاوز القصة وعايزيني أكملها قولت له "الكلام ده لا..انسى "لحد ما بسأل الترجمان "المترجم اللي معانا واحد اسمه سعيد عباس..إيه اللي عرفه بالكلام ده؟ قال لي :"عندهم في التاريخ".

معاك ولاد يا عم سيد؟

راحوا لرحمة الله، معاي رمضان واد بتي "ابن بنته".

بتحفّظ رمضان السيرة؟

بحفظه، بس هو أتأخر شوية لحد ما خد الدبلوم بندربوه وبيحفظ رباب وكل حاجة.

مين بيسمع عم سيد ويحب السيرة الآن؟

عندينا هنا فرحات "يقصد أفراح فيه ناس ما غاوياش "لاتحب" الشيكي بيكي "الهشك بشك" دول ناس ممتازة وسمِّيعة؟بنروح لهم سوهاج وقنا وأسوان وأى مكان.

يعني الـD.J لم يؤثر على عم سيد؟

لا..أثر..زمان ما كنتش أنام ليلة في الشهر ودلوك تبع ما تهدي، الأسبوع مرتين، 3 مرات والباقى قاعد في البيت.

إيه البلاد اللي "أفيونتها " عم سيد الضوي؟

هما أربع بلاد حجازة والخطارة والقلعة وأبو مناع "قرى في محافظة قنا " دي بلاد بتاعة الرجالة، أما البلاد التانيه حتى أنا ما بيبقاش لي نفس أروحها.

تقبل تقول السيرة ورا راقصة؟

برضه..ينفع، دانا خليت فرح هنا في "العايش " "قرية في قنا "جنازة، اتفقوا معاي جماعة..قول وأنا رايح وهنركب العربية مع المغرب إلا فيه واحد مدعي في الفرح قال لي "أمال رقاصة مين معاك يا عم سيد " رقاصة..فين ده..قريت الكارت "الدعوة"..لقيت سيد الضوي مع بنات مازن..حلفت طلاق من بيتى ما رايح، وفعلا ما رحتش وجونى الناس وادُّونى بقية أجري كنت واخد 100 جنيه جابولي 500 تانية.

أجرك 600 جنيه في الليلة يا عم سيد؟

كل بلد وليها أجر، يعني بلد زي "العايش" دي كلها في السعودية، ما فيش نقطة أقل من بريزة "10جنيه" وفيه ليالي باروح يدي على راسي "يشكر أهلها دون أن يأخذ شيئا" ببلاش لوجه الله..يعني يتيم..

واحد عارف ظروفه..ليلة لله.. ماخدش فلوس.

فرقتك كام واحد يا عم سيد؟

إحنا 6، طبلة واحدة ودف واحد و3 مساعدين رباب والفنان.

إنت الفنان طبعا..اللي معاك الميكروفون؟

الميكروفون ما راحت موضته..دلوك سماعات، والفرح من غير سماعات مالوش قيمه..يقولك جايلنا "بتاع البيضة البياضة" "مثل يقال في الصعيد للتقليل من شأن شخص ما.

صديقك.. عبد الرحمن الأبنودي؟

نديدي "من عمره"..متربيين مع بعض من أيام الطفولة.

فيه حد غيرك حافظ السيرة كلها؟

ما فيش حد حافظها كلها..فيه اليمني "الشاعر محمد اليمني" كويس بس مش حافظ.

عم سيد..شكرا.

راجل بتاع شهادات بصحيح

هذا الرجل اعتاد على تعاطي الكتب الدراسية مع أكواب النسكافيه اليومية حتى أصبح مدمن تعليم..مضت 20 سنة وهو يدرس في الجامعة.. ينتقل من كلية إلى أخرى..يحصل على شهادة ويذاكر للحصول على أخرى..الغريب..ورغم حصوله على 4 شهادات جامعية ورغم أنه عضو في ثلاث نقابات مختلفة يمارس من خلالها مهن المحاماة والمحاسبة والصيدلة..بخلاف بكالوريوس علوم برمجة الكمبيوتر الحاصل عليه، وكونه طالب دراسات عليا بكلية الصيدلة بعد كل هذا يرفع دعوى ضد وزير التعليم العالي من أجل الالتحاق بكلية الطب.

باين عليه راجل فاضي.. أليس كذلك؟

"حد فاضي"..إنه الانطباع الذي وصلني عنه قبل التحدث معه.. انطباع وشوية أسئلة كان أهمها لماذا؟ وضعت تحت "لماذا " السابقة

خطًا.. وأخذتها معي إلى أرض اللواء حيث ميعاد مقابلته داخل صيدليته "الإكلينيكية" بالمناسبة..أخبرني في التليفون بأنه أول صيدلي يرخص له صيدلية إكلينيكية في مصر.. لم أفهم شيئا.

على باب الصيدلية الزجاجي علق ورقة بعد أن طبع عليها عدة نصائح للمرضى..نصائح كثيرة استوقفني فيها تكرار كلمة "راجع مع الصيدلي الاكلينيكي "..."معلش" أصل كان معاي محكمة النهارده فاتأخرت شوية قالها معتذرا عن التأخير في الوقت الذي كان يخلع فيه جاكت بدلته وروب المحاماه ويرتدي البالطو الأبيض "يضحك" وهو يقول "أصل بحب ألبس البالطو طالما في الصيدلية "ينهي جملته..لأضع أمامه لماذا؟ وأتركه يجيب: الحكاية قديمة أولا أنا كان نفسي وأنا صغير أكون طبيبا بشريا المهم أنا بعد ما خلصت كلية تجارة.. دخلت أقف في صيدلية واحد قريبي ماكنش موجودًا.. جه لقاني واقف قال لي أنت بتعمل إيه هنا.. طالما أنت مش دكتور ما ينفعش تقف في الصيدلية.. اطلع بره.

"أطلع بره" إنها الجملة التي غيرت حياة الدكتور أيمن عمر مسعد، وحولته إلى مدمن تعليم حتى يثبت له أن كلية الصيدلة التي حصل عليها ليست صعبة والالتحاق بها ليس مستحيلا سواء هي أو غيرها.

د.أيمن يقول: حصلت على بكالوريوس التجاره عام 1986، بتقدير جيد جامعة القاهرة وفي نفس الجامعة حصلت على بكالوريوس علوم برمجة الكمبيوتر عام 1994، بتقدير جيد جدا وفيها أيضا حصلت على ليسانس الحقوق عام 1998، بتقدير مقبول وفي جامعة 6 أكتوبر حصلت

على بكالوريوس علوم صيدلة عام 2003 بتقدير عام جيد.. والآن أنا طالب في الدراسات العليا بكلية الصيدلة جامعة القاهرة قسم السموم والكيميا الشرعية.

سألته يعني كلمة "اطلع بره" دي هي السبب في كل اللي إنت فيه؟

يجيب : بعد ما حصلت على كلية الصيدلة أرسلت لقريبي تلغرافا كتبت فيه: إن ينصركم الله فلا غالب لكم "وأضفت :"هانحن قد أثبتنا بالبينة أن كلية الصيدلة عادية وليست مستحيلة ". ثم فتحت صيدلية إكلينيكية.

يعنى إيه إكلينيكية؟

بترجع للصيدلي، الصيدلي الإكلينيكي المرخص له إجراء الكشف على بعض الحالات وإعطاء الدواء للمريض دون الرجوع للطبيب بينما الصيدلي العادي يقوم بصرف الدواء بناء على روشتة طبية، والفرق ده بيرجع للدراسة نفسها.

بس إنت يا دكتور عندك صبر أوى..إزاى درست تجارة وحقوق وكمبيوتر وصيدلة وعايز لسه تدرس طب؟

لما يكون عندك تصميم وإراده هتوصل لأى شيء عايزه وأنا عندي إرادة حديدية اكتسبتها من والدي اللي كان راجل لما يصمم على حاجة لا يتنازل عنها أبدا.

ووالدك..كان موافقك على دخولك كل الكليات دي؟

والدي كان وكيل وزارة في الشركة القابضة للصناعات الغذائية، وكان

مدير مكتب وزير الإسكان وكان صاحبي جدا..لما شاف عندي تصميم على أني أعمل حاجة، وحاجة مفيدة وقف جنبي وفي كلية الصيدلة باع أرض كان يمتلكها بالفيوم علشان أكمل دراستي اللي أخذت مني تقريبا 150 ألف جنيه!

لما بتروح أي مكان بتقدم نفسك على إنك إيه.. محامي واللا صيدلي واللا محاسب ولا دارس برمجة؟

على حسب المكان..لما أروح المحكمة أنا محامٍ.. في المؤتمرات الطبية أنا صيدلي في الضرائب أنا محاسب.. وهكذا.

لكن.. أكيد في مهنة قريبة لشخصيتك؟

الصيدلة أقرب لي عشان بامارسها على طول وهي مهنتي الأساسية، ودراستي للحقوق أنا باعتز بيها جدا وعلى فكرة كان دفعتي فيها الدكتور حسين عبد الفتاح، رئيس أقسام جراحة العظام في قصر العيني، والأستاذ الدكتور خيري سمرة أستاذ جراحة المخ والأعصاب بقصر العيني، والمحاماة بشكل عام أمارسها بس مع قضايا العائلة وقضايا شخصيه.. أما المحاسبة فلا أمارسها إلا في تعاملاتي الضريبية.

عندك مكتب محاماة؟

لحد النهارده لأ.. لكن بافكر أعمل مكتب لأنها فعلا مهنة سامية جدا.

إيه الفايدة من حصولك على كل الشهادات دي؟

أولا أنا مش ندمان على أي شهادة خدتها وأقل فايدة إني باعمل كل

حاجتي بنفسي ودي حاجة مهمة أوي عندنا في مصر.

وبتلاقي وقت لكل ده؟

يومي دايما مليان، اتعودت من زمان أنام 3 ساعات بالليل وساعتين بالنهار يعني 5 ساعات والباقي شغل ودراسة.

بتذاكر امتى؟

أنا بحب المذاكرة جدا وعندي استعداد أذاكر 15 ساعة متواصلة يوميا بدون ملل بس يكون الجو مهيأ.

بمعنى؟

يعني لازم أقعد في الشقه وحدي مع فناجين النسكافيه والكتاب.. بس.

اللي أعرفه إنك متزوج؟

زوجتي د.ابتسام السباعي، طبيبة أمراض جلدية بقصر العيني، ولها فضل كبير في توفير الهدوء لي وإن كانت بتعاني من موضوع المذاكرة المستمرة خاصة إني حصلت على الحقوق والصيدلة بعد الزواج ودايما بتقول لي، إنت بتدي نفسك أكثر من الآخرين.

إنت مش شايف إن كلامها حقيقي؟

العلم ده أنا أفيد بيه الناس، أي زبون بيجيني الصيدلية لازم يستشيرني قبل ما ياخد الدوا، رغم إنه جاي من عند دكتور لكنه يثق فيّ أكتر.

ماشي.. بس أنت مش شايف إن انشغالك الدائم يؤثر على أسرتك؟

يؤثر إيجابيا أنا معاي "عمر" في أولى إعدادي فصل المتفوقين و"محمد" في سادسة ابتدائي فصل المتفوقين "محمد" لسه في أولى ابتدائي و"كنزي" ما كملتش سنة، الحاجة السلبية الوحيدة إني أحيانا بابوّظ الشقة بسبب التجارب.

تجارب إيه؟

باجيب فيران عندي البيت عشان أعمل عليها تجارب، وأحيانا بتخرج من الكرتونة وبتبهدل الدنيا.

بتجيبها منين؟

باشتريها من الكلية "يضحك" الفار ب 115 جنيها.

وبتشتغل امتى؟

كل يوم باشتغل في الصيدلية حتى أيام الامتحانات باجي عادي، ما عدا اليوم اللي صابح فيه امتحان وباحضر المحاضرات المهمة الصبح أيام الدراسة.

الزحمة دي كلها وعايز تدرس طب ليه وامتى وفين؟

عندي تحدٍّ أسطوري لدراسة الطب ولو مصر منحتني الفرصة هاعمل كده ولو رفضت هاقدم على طلب هجرة إلى أوربا أو أمريكا لدراسة الطب علشان أحقق هدفي.

وإيه هدفك؟

اكتشاف علمي لمرض لم يصل الأطباء لحل له.ده من ناحية بالإضافة لتحقيق نظريتي التي أعتز بها في عدم كتابة أدوية تتعارض مع بعضها مثلما يفعل العديد من الأطباء الآن، فمعظمهم يكتبون روشتات لأدوية دون الوقوف كثيرا عند أن هذه الأدوية من الممكن أن تتفاعل مع بعضها فتؤذي المريض. في الخارج..الدكتور البشري يكتب تشخيص الحالة والصيدلي الإكلينيكي يقوم بتحديد الأدوية وجرعاتها لضمان عدم حدوث مشاكل للمريض.

ومصر ترفض ليه إعطاءك الفرصة في التعليم؟

لحد دلوقتي دا اللي حاصل رفضني طب قصر العيني ورفعت قضية ومفوض الدولة في محكمة القضاء الإداري كتب تقريرا يفيد أني أستنفد أموال وموارد الدولة بالحصول على أكثر من مؤهل علمي، مع ملاحظة أنني دارس الصيدلة على حسابي، وأن هناك قائمة كبيرة جدا قدمتها للمحكمة حصلت على أكثر من مؤهل علمي ولدي أمل كبير في إعطائي الحق في الدعوى المرفوعة مني في المحكمة الإدارية العليا وفى النهاية هادرس طب إن شاء الله يعني هادرس.

اشمعنى الطب تحديدا؟

حلمي القديم.. وأنا كمان عايز ولادي يبقوا دكاترة بشريين عشان أزرع فيهم إنهم لازم يعالجوا الناس صح، ويخافوا ربنا فيهم..صدقني عندنا مشاكل كتير في الطب..نفسي تتصلح.

د.أيمن الحوار خلص..عايز تقول حاجة؟

عايز أقول مهم يبقى عند البني آدم إرادة وإصرار.

أول طبيب مصري يعالج المثليين

بأفكاره وأبحاثه قرر أن يهدم جدار الصمت الذي بنيناه حول مشاكلنا الجنسية..اختار أن يخترقه من أصعب نقطة فيه وأكثرها تعقيدا.

لكن حين أعلن برنامجه لعلاج "الشواذ" في مصر كان الشواذ هم أول أول الرافضين له وبجانبهم منظمات حقوق الإنسان وبجوارهم الطب الرسمي باعتبار أن الشذوذ ليس مرضا لكنه وراثة!

وحين دافع عن الشواذ كمرضى وبني آدمين لهم الحق في الحياة مثل مرضى الفشل نعالجهم لكن لا يحق لنا أن نقهرهم أو نضطهدهم.وقفت ضد التيارات المتشددة ومعها عاداتنا وتقاليدنا و"عيب"و"غلط"و"مصر زي الفل..وما فيهاش الكلام ده.

الآن يقف الدكتور أوسم وصفي، أخصائي الأمراض النفسية جامعة القاهرة، وحيدا. محاطا بأسهم الاتهامات من كل جانب. ومع ذلك

يستكمل مشروعه الذي بدأه منذ ثلاث سنوات..كأول طبيب مصري يعالج الشواذ..فماذا بعد؟

قلت له د.أوسم إنت تعرف أن منطقة "الشواذ" منطقة شائكة!

يقاطعني قائلا..لنتفق أولا على عدم استخدام كلمة شذوذ أو شواذ. لنستبدلها بالمصطلح العلمي ونقل "المثلية" و"المثليين".

ليه؟..أسأله..ليجيب:

مش ضد كلمة شذوذ.لكن لا أفضل استخدامها مش ضدها لأنهم 2.4 % في العالم ودي نسبة قليلة..تخلينا نقول عليهم شواذ عن القاعدة لكن كلمة شاذ اكتسبت عبر الوقت مفهوما ثانيا، أصبحت وصمة.. شتيمة، زي ما بنبعد عن كلمة أعمى ونقول كفيف، أنا بابعد عن كلمة تسبب إهانة إلى كلمة تعبر عن واقع الأمر.

وإيه سبب اتجاهك لهذه المنطقة الشائكة وإصرارك على علاج الشواذ أقصد المثليين؟

السبب أن هناك مثليين يأتون إليّ غير راضين عن توجههم الجنسي المثلي ويرغبون في تغييره لأسباب إما دينية أو لأسباب تعب من دخول حياة المثلي ودخول في علاقات مسيئة فيها استغلال وفيها الكثير من المشاكل خاصة عند الذين انخرطوا انخراطا كاملا في العالم المثلي ووصلوا لحالة ما نسميه الجنس المجهول..جنس لليلة واحدة مع شخص مجهول، اللي منهم يأس من الحياة المثلية ورغب في تغييرها بيخبط على أبواب الأطباء وبنحاول نعالجه.

وله علاج؟

طبعا له علاج..بس غير معترف بيه..لأن فيه تعتيم كبير من خلال الطب النفسي العالمي على القضية دي وللأسف بتقوده أمريكا من خلال "الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض النفسية" وما يكتب في هذا الدليل هو المصرح بعلاجه وما يرفع منه فغير مصرح بعلاجه في العالم كله.

وإيه موقف المثلية؟

المثلية تم رفعها كاضطراب جنسي تطوري من الدليل سنة 1973 لضغوط سياسية بحته وليس لأسباب علمية.

إزاي؟

الجنسية المثلية كان معترفًا بها كمرض..لكن مع بداية الخمسينيات تم تهميشها حتى تم رفعها تماما عام 73، نتيجة ضغوط اللوبي المثلي اللي مخترق مجتمع الطب النفسي ومخترق مجتمع الصحافة والإعلام والفن اللي هما صناع القرار في العالم كله وظهرت مجموعة من الأبحاث أنا بسميها الإعلامية وليس العلمية واللي هي بتاخد مقتطف من أي بحث علمي لترويج أن الجنسية المثلية متغير وراثي زي لون العين والشعر والطول وبالتالي يجب أن تقبل تماما والعلاج الوحيد المسموح به في الخارج هومساعدة المثلي على أن يقبل نفسه ويتأقلم مع ذاته، ولا يسمح بالعلاج الإصلاحي اللي هو تحويل الجنسي المثلي إلى الغيري، ده بتعتبره حركات الدفاع عن المثليين نوعا من الإساءة يسأل عنه الطبيب قانونيا برّه.

وفي مصر؟

الحمد لله إحنا ما وصلناش لكده لكن عندنا مشكلة حقيقية إن اللي بيتم تدريسه في كليات الطب هو الدليل الأمريكي ولذلك أصبح الأطباء المصريون كل واحد منهم خايف يتقال عليه إنه دقة قديمة خصوصا المحدثين منهم اللي عايزين يبقوا تحرريين وخايفين من كره المثليين لهم.

لكن المجتمع المصري يرفض الشواذ بشكل عام؟

الغرب يميل لقبول المثليين كنوع من أنواع حقوق الإنسان، والمجتمع الشرقى يرفض المثلي كإنسان رفضه المثلية، لكن الموقف المتزن هو رفض المثليه بإعتبارها مرضا يمكن علاجه وليس رفض المثلي لأنه إنسان في النهاية ما ينفعش أرفض مريض الفشل الكلوي لرفضي للمرض ومقاومتي له.

وده موقفك؟

دا الموقف اللي قررت أتبناه..وجوهره إن ما ينفعش عشان أقبلك أقبل كل وجهات نظرك، وما ينفعش عشان أرفضك أمارس عليك قمع واضطهدك كإنسان.

إنت مش خايف من اتهامك بمساندة الشواذ؟

أحاول أوضح موقفي بالكتابة وقبول الحوار، وعموما أي واحد بياخد موقفًا وسطيًا بيهاجمه المتطرفون من كل جانب.

متى بدأت فكرتك؟

منذ 3 سنوات.

وما طرق علاجك؟

إحنا عاملين برنامج علاجي فيه أكثر من مجموعة، مجموعات علاجية للمثلية نفسها، ومجموعات علاجية لما يسمى بالاعتمادية أو عدم النضوج باعتبارها جزءا من المثلية، لأن المثلية مرض تطوري يحدث فيه توقف عند النضوج الجنسي وبطبيعه الحال توقف في النضوج النفسي، وعشان كده مجموعة علاج الاعتمادية تضم مثليين وغيريِّن وهدفنا احتكاكهم ببعض في إطار غير رومانسي وغير جنسي بالتركيز على التشابهات بينهم فقط ودا بيعلمهم إنهم يقبلوا بعض، وكمان المثلي لما يقبل من غيري يشعر بأنه هو راجل زيه..والشعور ده بيساعد في علاج المثلي.

يعني إيه "غيري"؟

الشخص الطبيعي.. الرجل الذي ينجذب جنسيا للمرأة.. والمرأة التي تنجذب جنسيا للرجل.

د.أوسم، كلامك فيه خطورة..مش جايز المثلي يسحب لمنطقته واحدًا سليمًا؟

صحيح في البداية بتحصل انجذابات جنسية لكن إحنا بنتفق نطلعها للنور ونتكلم عنها لغاية ما تظهر وبالتالي تتلاشى لكن أحيانا يتورط البعض في علاقة ويسيبوا المجموعة، دي مخاطرة محسوبة.. ونسبة الفشل في العلاج موجودة. وإحنا بنرفض الشخص ده لحد ما يتعامل مع قضيته

وتزداد رغبته في التغيير وبالتالي يبقى متعاونًا أكثر المرة القادمة.

د.أوسم لم تصلني معلوماتك جيدا.. أحتاج لمزيد من التوضيح في مسألة العلاج؟

مثلا.. إحنا بنعمل أنشطة رياضية بين الغيريين والمثليين لأن الرياضة زي كرة القدم بتنقل الذكورة للمثلي لأن هدفها الأساسي هو نقل الذكورة العملية اللي كان ينبغي أن تتم للمثلي وهو طفل صغير من أبيه أو مجتمع الذكور اللي حواليه، لكنها لم تحدث لأسباب وراثية في صورة إن الولد ذكورته ضعيفة أو بيئته..الأب مش موجود..أو الأم مسيطرة ومنعت ابنها من التواصل مع الأب أو شلة الأولاد، أو أن الطفل عاش طفولته مع بنات وبعض الأمهات كمان بتبالغ فتلبس الولد لبس بنات، وتنقل له الأنوثة بدلا من الذكورة ولما يوصل لمرحلة البلوغ يلاقي نفسه مع البنات وينجذب للولاد لكن المفروض إنه يلعب مع الولاد..ويتوحد معهم ولما يصل لمرحلة البلوغ يلقى نفسه واحد منهم وينجذب للبنات. هذه المرحلة اللي محصلتش في الطفولة بنحاول نعملها دلوقتي، لأن المثلي طفل صغير وجدانيا بنحاول أن نطوره لتكتمل رجولته، وزي ما بنقول إن وجود المدارس المشتركة بيحد من الرغبة الجنسية بعد كده بنقول إن اللي متربي مع أخته لا يشتهيها جنسيا.. المعادلة الصعبة.

أفهم من كلامك إن إحنا نفصل الولاد عن البنات في المدارس عشان ما يتعرضوش للمثلية بعد كده؟

لا طبعا..لكن أنا عايز الآباء والأمهات يبقى عندهم وعي، لما يلاقوا

ابنهم ذكورته ضعيفة وبيميل للعب مع البنات خصوصا في السن من 5 إلى 12 سنة، يقاوموا الموضوع ده ويقربوه من الأولاد ودي مسئولية الأب لأن الابن الذكر بيبقى عايز يبقى زي أبوه.. يلبس جزمته ويمسك ماكينه الحلاقة. .لكن لما ما يكونش الأب موجود عشان يشوفه ويتعلق بيه أو لما يشوفه يضربه أو يضرب أمه أو تكون الأم مسيطرة.. ده بيخلي الابن مش عايز يبقى زي أبيه وبالتالي مش هتنتقل للولد الذكورة..دي المشكلة.

معني كده إن أي أب غايب عن البيت ابنه معرّض للمثلية؟

لا طبعا.. لأن فيه طفلاً مولودًا ذكورته عالية هيلقط الذكورة من أي حته، لكن فيه طفل تاني بتكون ذكورته ضعيفة ووراثيا مش معنى كده إنه محتم عليه إنه يبقى مثلي لكنه معرض للمثلية أكثر من غيره.

يعني إيه ذكورته ضعيفة؟

هرمونات الأنوثة والذكورة موجودة في الرجل والست، الطفل الذكر معرض لتأثير هرمونات الأنوثه في رحم الأم وده بالمناسبة اللي بيخلي نسبة المثلية عند الرجال مضاعفة مقارنة بالنساء، لأن الطفل بيعيش في رحم أنثى ويتولد في محيط أنثوي.. المفروض هنا في سن سنتين ييجي ذكر اللي هو الأب ينتشل الابن ده ويقول له إنت تبعنا.

مين الذكر الأكثر عرضة للمثلية؟

اللي يتولد وذكورته ضعيفة ويعيش في بيئة أنثوية ويتعرض لحالة تحرش بيه وتكرارها يحوله إلى مثلي.

طريقة العلاج صعبة؟

على حسب السن، يعني في سن المراهقة يبقى أسهل من اللي انخرطوا في المجتمع المثلي لأن دول نقدر نلحقهم نقدر نقول لهم ده حرام ونتشلهم إلى مجتمع الذكورة لكن بعد كده بتبقى صعبة..وبتاخد وقت طويل.

كم عدد المثليين في مصر؟

مافيش إحصائيات في مصر تقدر تحدد الرقم لكن نسبة المثليين في العالم 2 ،4 % عند الرجال و1، 3 % عند النساء وإحنا مش بعيد عن النسبة دي.. بس ما أقدرش أجزم لأن ما فيش إحصائيات وما حدش يقدر يعمل إحصائيات بحجة أن.. لا مثليين في مصر.. ولا إيدز في مصر.. ومصر بخير وزى الفل.

من خلال تعاملك مع المثليين..هل هناك زيادة أم نقصان؟

ما أعتقدش إن العدد بيزيد لكن تقدر تقول إنهم بدأوا يطفوْن على السطح مع رياح العولمة، وبدأت تظهر جرأة الإعلان عن أنفسهم خاصة مع تطور الإعلام والإنترنت اللي بيتيح لهم التعبير عن أنفسهم من غير ما يقولوا أسماءهم ومع هوجة الدفاع عن المثليين اللي بتحصل في الغرب والحراك الاجتماعي في مصر.. ده مش معناه إنهم زادوا لأنهم موجودون طول الوقت لكنهم ظهروا على السطح أكثر.

مش ممكن تكون رياح الحرية عملت دفعة للبعض إنه يكمل في طريق المثلية ولا يتراجع عنها؟

ممكن طبعا..والخطورة هنا على الأطفال والمراهقين لأن نسبة كبيرة جدا من المراهقين من سن 12 إلى 13 سنة بيمروا بأزمة هوية جنسية، وتخبط في بعض الممارسات لكن الكثير منهم بيتحول للغيرية والقليل بيمارسوا المثلية مرات معدودة..أكيد لو لقيوا المجتمع زي الغرب يقول لهم "Gay IS Okay" ممكن يكملوا باعتبار إن دي موضة وإن إنت حر وإنت مختلف.

وإنت مع مين؟

أنا لست مع الدفاع عن المثلية أنا ضدها لكن أنا مع الدفاع عن المثليين باعتبارهم بشرًا لهم حقوق وعليهم واجبات.

كلامك خطير يا دكتور؟

أنا مسئول عنه..والمثليون أحرار يعملوا اللي هما عايزينه كأشخاص بالغين..بس مش أحرار إنهم يؤثروا على طفل قاصر وياخدوه مجتمعهم حريتك الشخصية تنتهي عند حرية الآخرين.. أنت حر عايز تمارس حياتك المثلية.. مارس، أنا ما ليش دخل بيك، عايز تتعالج لأن ده مرض أهلا وسهلا.. لكن إنك تدعو للمثلية مع قاصر.. لا.. دي إساءة تتحاسب عليها.

إنت كطبيب لو اكتشفت دعاية للمثلية هتعمل إيه؟

هامنعها طبعا.

إزاي وإيه سلطتك.. ها تطلب البوليس؟

دي كمان قضية تانية خلافية.. هل الحكومة هتفهم إن أنا مش عايز أعاقب المثلي لأنه مريض لكن عايز أحمي القاصر منه.. للأسف الحكومة بتقفش المثليين لأنهم مثليون وده مش صح.. لأنه ضد حقوق الإنسان، أنا عايز المسألة تتم بمنطق تجريم الانتهاكات الجنسية على الأطفال والقصر، لأن مش من حق المثليين ترويج أفكارهم لأطفال ما اكتملوش ذهنيا.

دكتور أوسم..يقال إن دفاعك عن حقوق المثليين وعلاجك لهم يدخل ضمن مخطط تبشيري كنسي.. ما تعليقك؟

"تغيرت ملامح وجهه فجأة وأجاب بحدة: العلاج اعتراف بالمثليين وليس اعترافا بالمثلية ودول مرضي موجودين في مجتمعنا ومن الواجب علاجهم، أما موضوع الكنيسة، فالكنيسة من زمان بتعمل مدارس وتهتم بقضايا التعليم.. هل التعليم والمدارس مخطط تبشيري.

إيه تفسير اهتمام الكنيسة بقضية المثليين؟

"بالحدة نفسها" دي حدوتة تانية خالص.. لأن أحد أهم مبادئ المسيحية بتقوم على الاهتمام بالإنسان لأنه إنسان دون النظر إلى عقيدته وده مستلهم من تصرف المسيح مع الناس لما كان يمشي في الشارع ويشفي الناس من غير ما يهتم حتى بأنه يعرف هما مين وبعت لتلاميذه قال لهم اشفوا مرضى سواء قبلوا رسالتكم أو رفضوها، أنا لو أطعمت جعانًا لايؤمن بي.. أنا كسبت كده رضا ربنا.

هل للكنيسة دور محدد في الاهتمام بالمثليين؟

آه ولأ.. الكنيسة ككنيسة ما فكرتش في كده، لكن أنا كشخص باخدم في الكنيسة وفى الوقت نفسه طبيب نفسي عملت ده، قبل قضية المثلية.. إحنا ككنيسة بنحاول نعالج الناس بتوعنا وبنعمل برنامج للمشورة والمساندة ومن ضمن الناس اللي جم قالوا إحنا مثليين ابتدينا نعالجهم وبالمصادفة إحنا كنا اول ناس نعمل كده، الناس بره سمعت جم عايزين يتعالجوا..أنا بصفتي كطبيب مش هارفض حد عايز يتعالج خوفا من الناس لا تقول عليا تبشيري، عموما عندك الناس واسألهم.وبالمناسبة 99 % من اللي بيعتبروا المثلية في الغرب مرضى هم المتدينون وفعلا قدروا يعالجوا ناس كتير قاموا بمظاهرات أمام مقر الجمعية العالمية للطب النفسي سنة 1998.

وأرغموا الشخص اللي أخرج المثلية من دليل الطب النفسي إنه يعمل عليهم أبحاث ودراسات نشرها بعد كده وقال إنهم اتغيروا واتعالجوا، الدافع الكبير للتغيير النهارده هو دافع ديني، لأن الدافع النفسي خلاص.. مابقاش فيه طب بيقول إن ده مرض.

هل تعرضت لهجوم بسبب موقفك؟

كتير في إحدى المرات كنت مدعوًا لمؤتمر نظمته إحدى منظمات حقوق الإنسان وطبعا التياران كانا موجودين، العلمانيون هاجموني واتهموني بالتعصب وأني ضد حقوق الإنسان، والمتدينون قالوا إن اعترافي بالمثليين كمرضى وتعاطفي معهم يعني مساندة لهم، كان فيه محررة من جريدة "ديلي ستار" الإنجليزيه كتبت موضوعا بعنوان "في الوقت الذي ينادي فيه

العالم بحقوق المثليين طبيب مصري يقول إنه مرض"..طبعا معنى كلامها إني متخلف..عموما أنا مؤمن بالقضية..أصل مش هنغير الوضع اللي إحنا فيه إلا بالوعي.

إيه نوعية المرضى اللي بتعالجهم؟

أغلبهم كبار في السن..يئسوا من التغيير، ينتمون لفئات مختلفة..فقراء وأغنياء..متعلمون وجهلة..من الصنايعية لطلاب الطب والهندسة وأبناء السفراء.

هل منهم مشاهير؟

لا ما فيش مشاهير..لكن فيه واحد جاني في موقع حساس.

إيه علاقة المثلية بالفن؟

فيه علاقة طبعا لأن الجزء الوراثي المثلي بيتولد الطفل فيه حساس وأنثوي في التفكير وصاحب عواطف جياشة والإبداع به جزء أنثوي عال ده مش معناه إن المبدع يبقى مثلي.. لا طبعا، لكن معناه إن معظم المثليين عندهم الاهتمام بالجمال والتفاصيل والإبداع والفن.

وهل الاهتمام بالجمال والتفاصيل يعيب الرجولة؟

لأ طبعا.. بالعكس ده من الضروري إن الرجل ينمي بداخله الصفات الأنثوية لأن ده بيديله عمقًا ويثري شخصيته ويخلِّيه يفهم الجنس التاني أكثر، وده مفروض أيضا على النساء.

إيه أهم صفات المثلي؟

يميل للإبداع.. حساس..ذكي.. عنده إحساس بالتميز وبيأكد على الإحساس ده أحيانا كأن يقول آه أنا شاذ بس أنا مختلف كرد على وصمة المجتمع ليه..دايما جواه إحساس إنه أحسن من المجتمع لأن هو بيشكل نسبة العباقرة فيه.

إيه الأماكن اللي بيوجد فيها المثليون في مصر؟

فيه أماكن معروفة زي منطقة التحرير وأرصفة بعض الفنادق دي أماكن تجمعاتهم وفيه أماكن تانية.

فيه جوازات بينهم؟

طبعا فيه جوازات في مصر وطبعا مش رسمية وهما بيعملوا حفلات.. وكل الحاجات دي موجودة.

هل نجحت في علاج مثليين؟

مسألة العلاج طبقا للأبحاث بتاخد من 5 إلى 7 سنوات، أنا بدأت من 3 سنوات بشكل منظم، بس قبل كده بدأت مع شخص وعالجته واتجوز ودلوقتي معاه ولاد والمجموعات اللي معايا فيها ناس مبطلة من سنة وسنتين، ويمكن مدة العلاج الطويل كانت أحد أسباب أن الطب النفسي يقول إنه ما لهمش علاج.

هل فيه ستات مثليات في مصر؟

وأتصور إن عددهن بيزيد وده يرجع لأن المثلية النسوية تنتج عن كره للطرف الآخر وليس لمشاكل وراثية وكلما زادت معدلات الاغتصاب والتحرُّشات الجنسية والأزمات العاطفية والكبت والقهر كلما زاد كره الرجل وبالتالي المثلية النسائية، خاصة إن الست تبحث في مثليتها على العواطف قبل الجنس بعكس الرجل.

هل يوجد أطفال مثليون؟

فيه قاعدة علمية تقول"لا يوجد طفل مثلي أو طفلة مثلية " لكن ممكن وجود ميول وعشان كده أقول للأمهات.. ممنوع منعا باتا تلبسوا ولادكم ملابس بنات أو تخليهم يرقصوا بلدي..ده جهل كبير.

سؤال أخير..إزاي أعرف المثلي في الشارع؟

المثلي له عالمان..عالمه الخاص جدا وعالمه الآخر الذي يتعامل به مع الناس، البعض منهم ممكن تطفو تصرفاته الأنثوية وتتحكم فيه وتظهر للمجتمع ويمكن ملاحظتها.. لكن معظمهم عاديون جدا بل منهم اللي بتظهر عليهم الذكورة العالية ودول غالبا بيمارسوا الدور البطولي.

تعرف إيه عن المنطق يا مرسي؟

اختر الإجابة الصحيحة:

رجل يبلغ من العمر 53 سنة، يقدم استقالته من عمله الحكومى، الذي قضى به 19 سنة خدمة، وفى رقبته 5 أبناء وزوجة، والسبب.. أنه لم يجد نفسه في العمل الميري، فراح يبحث عنها في الفيس بوك والمدونات ومقاهي وسط البلد والتمثيل.

هل هو:

أ ـ مجنون.

ب ـ عبيط.

جـ ـ كبر وخرّف.

د ـ عاقل جدًا.

هو يقول:

«الحياة، مش قطر ماشي على قضبان في اتجاه واحد، حياتك مركب في بحر كبير، إنت اللي بتجدف، إنت اللي بتحدد اتجاهك، وإنت اللي بتختار البر اللي هترسى عليه».

إننا إذن أمام فيلسوف.

والفليسوف اسمه.. محمد حسن أحمد مرسي، وشهرته «عم مرسي».. في 3 أكتوبر الماضي أتم 52 سنة ولد وعاش وتزوج وما زال يقيم في نفس البيت الذي ورثه عن والده بحدائق القبة.

ما رأيك ندعه يتحدث عن نفسه يقدم منطقه، يطرح فلسفته.

تفضل.. قول يا عم مرسي.. عبر عن نفسك أنا طبعًا متجوز وعندي 5 أولاد كلهم أزهرية، كنت حريصا أن يدرسوا في الأزهر لـ 3 أسباب :

1 – عشان يعرفوا دينهم، خاصة أن الدين عندنا بيتحكم في حياتنا بشكل كبير، وأول حاجة بنحكم بيها على الأشياء هل هي حلال ولاّ حرام.

2 – عشان محدش يلعب في دماغهم باسم الدين، لأن في فترة من حياتي دخلت الجماعات الإسلامية، ولقيت ناس كتير مش فاهمه حاجة.

3 – عشان كلهم يبقوا زي بعض مية واحدة ما فيش حد يحس إن التاني أحسن منه.

منطق برضه.. طب وأنت يا عم مرسي؟

– أنا بقى خريج تجارة عين شمس محاسبة دفعة 84، وقبل تجارة خدت 3 سنين في كلية طب بيطري.

3 سنين في طب بيطري، ما كنتش أعمل غير 5 حاجات أصلي.. وآكل.. وأذاكر مذكرة موت، وأنام وأسقط، كانت مشكلتي إني عايز أفهم وهما عايزيني أحفظ وأنا مش قادر أحفظ، سقطت إعدادي ونجحت ودخلت أولى وسقطت في مادة اسمها «طبائع حيوان» كانت أسهل مادة في الكلية، والسقوط فيها معناه أنك ما رحتش الامتحان وأنا امتحنت وجبت «ض. ج» لأني حاولت أفهم ومعرفتش أحفظ.

شفت النتيجة دخلت شئون الطلبة سحبت ملفي قدمته في كلية تجارة، روحت البيت قولت لهم، كانت صدمة بالنسبة لهم طبعًا.

في تجارة.. فوجئت بحياة جامعية تانية خالص، رحلات، ندوات، مسرح.

اتعلمت العود عشت الحياة الجامعية واتخرجت.

والدي كان عنده 72 سنة، قرر يجوزني أول ما اتخرجت على طول، كان عايز يطمن عليّ. اختار لي بنت عمي اللي هي مراتي لحد دلوقتي.

لو أنا اخترت مراتي يمكن ما كنتش كمّلت معاها، عشان كده حسيت إني مش مسئول عن اختيارها، ودا اللي خلاني حبيتها بجد، الحب أصلاً استقرار ولما جيت فكرت في المسألة دي سألت نفسي.. ها عوز إيه أكتر

من اللي أنا فيه.. يكفي إنها مستحملاني.

بعدما اتجوزت اشتغلت في مكتب النائب العام، سنة 86 تقريبًا، عن طريق واسطة مين كلم مين، كلم مستشار، بقيت شغال في الحسابات غرقان في استمارة 55 ع.ح ودفتر 242، حسابات حكومية بحتة.

والدي توفي سنة 86، أيامها كنت باقبض 46 جنيهًا في الشهر، الظروف كانت صعبة اعتمدت على معاش بابا.. كان بيمشّي البيت شوية، بس الدنيا ضاقت ماديًا كان لازم أتصرف، سافرت السعودية.. محاسب وهناك طبعًا نظام الكفيل اللي بيحسسك بالعبودية البحتة، استحملت 13 شهرًا، الكفيل كان عايز ياخد فلوس من ورا شريكه والشريك سايب معايا شيكات على بياض علشان الشغل يمشي، رفضت، ابتدا الكفيل يغلّس، خد الواد ابني احلق له، هات لنا خضار، رميت الإقامة في وشّه ورجعت.

رجعت على شغلي في مكتب النائب العام، كانت سنة 90، وفى يوم.. واحد صاحبي اتصل بيا، قال لي: فيه إعلان نازل في الجرايد شركة السكر والصناعات التكاملية.. عايزه ناس تروح؟ قلت: أروح قال لي: خلاص.. روح لرئيس إدارة المبيعات.. دا قريبي وهو هيتصرف.

فى الشركة عملوا لنا امتحان شفوي وتحريري، في التحريري كان فيه سؤال إنجليزي.. إزاي تعمل اعتماد مستندي كنت الوحيد اللي جاوب على السؤال ده، لأني اتعلمت المسألة دي في فترة وجودي بالسعودية حسيت إن ربنا خلاني أسافر عشان أتعلم الإجابة عن السؤال ده، وأشتغل في شركة السكر.

قعدت في الشركة 19 سنة، لحد ما قدمت استقالتي في 2009، كنت بقيت مدير إدارة التصديق، اشتغلت في كل الموانئ ميناء السويس، دمياط، رفح، العريش، إسكندرية، سفاجا، كانت مهمتي إزاي أحل المشاكل لحد ما شحنة التصدير تسافر.

وبعد ما كنتُ شعلة نشاط، لقيت نفسي ما بعملش حاجة من 5 سنين تقريبًا، أروح مكتبي في شارع جواد حسني أشرب شاي. اقرأ جرايد، مفيش شغل حقيقي.

مافيش شغل لأن معدش فيه تصدير أصلاً التصدير قل جدًّا لأسباب كتير، خد عندك مبقاش فيه إقبال على البضاعة المصرية.

ظروف السوق ومعاييره اختلفت وإحنا بقينا متخلِّفين، لأن الشركة حكومة والشركات الحكومية ما بتفكرش بفكر رجال أعمال، بتفكر بطريقة روتينية بيروقراطية بحتة، مش مهم أفتح سوق، المهم يبقى ورقي سليم، وكده.. كده هاخد مرتبي آخر الشهر، واللي زاد الطينة بله جابوا لنا قيادة ماعندهاش أي فكرة عن مجالنا.. معندهاش خبرة.. والنتيجة إننا قاعدين في المكاتب ما بنعملش حاجة.

زهقت، كنت باموت كل يوم من الملل، كل يوم باعمل نفس الحاجات أشرب شايًا وقهوة، اقرأ الجرايد أتكلم مع نفس الناس، واتحول مكان الشغل لكيان كئيب، مكان مليان كفاءات لكن مافيش حد فيهم عارف يشتغل، بقيت أروح يومين في الأسبوع.. ويتخصم من مرتبي أيام الغياب.

قبل ما أستقيل بسنتين، في 2007 تقريبًا عرفت أن فيه موقع اسمه يوتيوب وعرفت إن ممكن أرفع عليه أفلام وبدأت تستهويني المسألة.

فى 2008، رفعت فيلم عن الملك فاروق مدته 10 دقائق عمل صدى عند الناس الفيلم كان نادرًا، وأنا غاوي أفلام تسجيلية نادرة، كنت باشتريها زمان من شركة في مصر الجديدة قفلت دلوقتي واشتركت في الفيس بوك، لقيت أصحاب ليا من أيام الجامعة، وبعدها أنشأت مدونة «أعقل مجنون في العالم» وعملت جروب «جرايد ومجلات قديمة مش للبيع» بدأت الناس تقرأ لي تعرفني حسيت إني لسه عايش.

قعدت أفكر في الاستقالة سنتين كتبتها قبل كده 3 مرات. كنت كل ما أقدمها.. المدير بتاعي يقطعها ويقول لى.. مش هتستقيل، المرة الأخيرة قعدت مع ولادي ومراتي.. قلت لهم أنا عايز أستقيل، مراتي ما كنتش موافقة.. ولادي.. أصحابي ويمكن أحسن حاجة عملتها في حياتي أني خليتهم أصحابي قالوا لي: اللي أنت شايفه صح.. أعمله.

قبل الاستقالة بيوم كنت حاسس إني أنا عجوز، كنت مستني أكمل الـ60 سنة وأطلع معاشًا، بعد الاستقالة بيوم حسيت إني رجعت 20 سنة ورا، يااااه، تعرف إن إحساسك إن إنت لسه شباب.. دا لوحده يساوي ملايين، أنا باحمد ربنا إني طلعت من الطابور.

معظمنا في مصر، واقف في طابور، طابور طويل مش شايف آخره، أنا طلعت من الطابور.. لقيت دنيا تانية ولما طلعت حسيت إني قادر أضحك والبيت كله بقى يضحك معايا، أصل السعادة عدوى وزمان كنت باروح

البيت مكشر.. تسألني مراتي مالك، أقول لها: سيبيني في حالي.. ما فيش هي تكشر.. البيت يبقى تكشيرة كبيرة.

طلّعت همي في الإنترنت ولأني عارف إن الإنترنت ما يأكلش عيش، بس كمان عارف اللي أنا باعمله.. فيه رسالة كنت بادوّر على شغل.. رحت مكاتب زرت شركات لحد ما واحد صاحبي قال لي تشتغل في نادى التجديف محاسبًا بس المرتب قليل، قولت له مش مهم المرتب أشتغل ولقيت نفسي في حتة تانية، لقيت نفسي باشتغل في مكان على النيل.. القعدة فيه في حد ذاتها تسوى كتير.

شاركت في فيلمين قصيرين، تمثيل، فيلم اسمه «اتجاه واحد» إخراج د. بيتر ميمي، بيتكلم عن إن الواحد دايمًا بيدور على المجهول، وأول ما يوصله يلاقيه سراب والفيلم التاني عن العبارة اسمه «مركب ورق» عملت فيه مشهدًا واحدًا.. كنت باعيط فيه بجد.

أنا عندي قناعة إن ربنا حط في كل واحد فينا اللي يخليه يبقى زي زويل، واللي يخليه يبقى عامل نظافة في الشارع وإن البني آدم. هو اللي بيختار طريقه.

الآية الكريمة بتقول: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» يعني التغيير بيبدأ منك أنت وربنا يعينك عليه.

مصر معظمها عساكر أمن مركزي كلهم واقفين في حته.. بس مش عارفين واقفين ليه، الضابط هو بس اللي يعرف، عن نفسي قررت ما أبقاش عسكري.

هل هو:

أ ـ مجنون.

ب ـ عبيط.

جـ ـ كبر وخرّف.

د ـ عاقل جدًّا.

الفصل الخامس

آخر كلام (*)

«اصحى.. تغرّك وترميك
في بحر ما له سواحل
تندم ولا شيء ينجيك
وتصير في الناس غافل»
ابن عروس

(*) قبل أن يرحلوا، اختص القدر أحمد عطا الله ليكون صاحب آخر حوارات صحفية معهم، لأن يسجل مع كل واحد منهم.. آخر كلام في الفترة ما بين عاميّ (2004) و(2009).

العندليب والنيل والحياة 1

محمود عوض مدان لي بـ4 جنيهات! اشتريت له صحيفة ما، ولم يدفع لي الثمن. أما أنا، فمدان له بـ300 متر مشيًا بصحبته في شارع النيل، و3 ساعات من وقته في النادي الدبلوماسي، وكوب شاي وآخر نسكافيه، في جو ربيعي تسلل إلينا على استحياء.

هل هذا عدل؟

عزيزي القارئ، سأحكي لك كل ما حدث، ومن فضلك.. احكم بيني وبين هذا الرجل.

الواحدة ظهرًا.. الموعد المحدد لهذه المقابلة. والخطة المتفق عليها مسبقًا هي الذهاب إلى العقار الذي يسكن فيه، والاتصال به فور الوصول، ثم مرافقته إلى مكان ما.. يفضله لإجراء الحوار.

هذا ما قاله لي الكاتب الصحفي محمود عوض في التليفون، لكنه لم يقل لي إن هذه المقابلة تحتاج إلى بطاقتي الشخصية.

عن رضا، أخرجت بطاقتي وأعطيتها لأمين الشرطة، وأجبت عن أسئلته كاملة بعد أن عرفت أن هذا الأمين لم يقف هنا لحراسة عوض، هو بالكاد يعرف أنه صحفي، لكنه لم يقرأ له كتابًا واحدًا، لا يعرف حتى أين ينشر مقالته.. الأمين مكلف رسميًا بحراسة إسرائيل في مصر، بالتحديد سفارتها التي تقع بجوار شقة واحد من ألد أعداء الصهيونية، اسمه «محمود عوض».

ومن هو محمود عوض؟

كما ظهر في المشهد الآن، هو بالضبط يساوي حوالى 70 كيلو جرامًا من اللحم والعظم، ما يقرب من 175 سم طولاً، بنطلون جينز، جاكت، وجه شاحب، كحة متواصلة. و 10 دقائق مشيًا على كورنيش النيل، وفى المكان المحدد، طلب لنفسه «عصير ليمون بالنعناع»، ومع الرشفة الأولى بدأ الحوار الذي حرصت ـ قدر استطاعتي – أن يكون القليل منه عن الكاتب الصحفي صديق حليم وأم كلثوم وعبدالوهاب، والكثير منه عن البني آدم الذي أمشي معه الآن.

لماذا لم يقابلني محمود عوض في شقته؟

– ابتسامة تسبق إجابته: سؤال وجيه، وعندك حق فيه تمامًا، خاصة أنني طول عمري باعشق أقابل أصحابي في بيتي، ورغم أن البيت مساحته لم تكن كبيرة مع ذلك كنت تلاقي فيه ما لا يقل عن 25 فردًا، اللي قاعد على

كرسي، واللي قاعد على الأرض، وتلاقيني أنا ومصطفى حسين بنشوي لحمة في البلكونة، والسهرات ممتدة، كوكتيل من السياسة والفن والمزيكا، لكن الفترة الأخيرة أنا تعبت صحيًا والست اللي كانت مسئولة عن البيت سافرت، ولسّه عندي صعوبات في إيجاد بديل عنها، والنتيجة أن شقتي لم تعد تليق بمعزة أصحابي عندي.

هل تخشى أن يراك الناس؟

لأ. ليه؟

لأنك رفضت التصوير؟

الموضوع ببساطة أنني مرهق جدًا صحيًا، وهذا الأمر ينعكس على وجهي، يعني «بيبان عليّ».

أشعر بأن إجابتك مقتضبة.. هل يكره محمود عوض الكلام؟

أنت بتقول ملاحظة دقيقة وأنا باعتقد إذا كان الله حباني بميزة فهى حسن الاستماع للآخرين، باحس إني باستفيد وبالتالي لا أتكلم إلا إذا دعيت إلى الكلام، وأتذكر أن إذاعة صوت العرب كان عندها برنامج اسمه «دعوة إلى السحور» في رمضان لمدة ساعة، وكانت كل سنة تسجل معي الإذاعة حلقة أو أكثر، أدعو فيها أصدقائي، ولاحظ المذيع أنني أقلّهم كلامًا، وسألني عن هذا الموضوع بمنطق أنني صاحب البيت والدعوة، رددت عليه وقتها بأني مش علشان أنا داعي أصحابي أشجيهم بغنائي، أنا داعيهم علشان نتكلم عما هو مفيد، والأفيد لي أن أستمع.

لديّ ملاحظة أخرى.. هي أن محمود عوض حريص على أن يعيش في نصف شُهرة.. تحت نصف أضواء، لا هو مغمور ولا هو مشهور لدى الشارع رغم قامته الصحفية الطويلة؟

لأني باعتبر الأضواء ليست هدفًا في حد ذاتها، إن لم يكن عندي ما يساوي الأضواء من الأفضل أن أبتعد، ولا أحب الرطرطة أو أن يجدني القارئ في كل جريدة أو مجلة. ثم إنني أؤمن بنظرية الكم والكيف، بين قيمة ما تقوله وإغراء الانتشار المسطح والذي أقاومه دائمًا، ومعظم العروض التي جاءتني من أجل هذا الانتشار أبتعد عنها.

مثل ماذا؟

مثلاً ألح عليّ أسامة الشيخ أثناء عمله في محطة دريم أن أقدم برنامجًا باسم «صالون محمود عوض» لمدة ساعتين أدعو إليه من أشاء، فهربت لأنني أعتقد أن مهنتي الأساسية هي الكتابة وأي شيء بعدها جانبي، وغالبًا ما أبتعد عن هذا الجانبي، فمن الممكن أن أكون ضيفًا في برنامج، أصبح مسئولاً عن كلامي فيه، لكن صعب أن أقدم هذا البرنامج.

حياتك الشخصية تسيطر عليها العزلة.. هل هذا مقصود؟

- بص.. أنا بداخلي الشيء ونقيضه، أنا أحب أصدقائي جدًّا، لكن أحب وحدتي أيضًا جدًّا، مثلاً عبدالحليم حافظ كان يعيش حياته بالمقلوب، الليل نهار والنهار ليل، وكنا لما نسهر مع بعض أقول له ياه.. سجايري خلصت، أنا رايح لعبد الرحيم السفرجي عشان يجيب لي سجاير، ثم

أختفي تمامًا عن السهرة، وبعد تكرار هذا الموضوع لاحظ حليم أنني كل مرة لا أعود، فسأل بليغ حمدي عن هذا الاختفاء، ورد بليغ: «تلاقيه نايم في بيته من ساعة، وهو بيعمل كده عشان ما يوظشي السهرة»، وحليم قال له ذات مرة: «طيب ياللا بينا نلبس ونروح له»، لكن بليغ حذّره: «اوعى تعمل كده، لو رحنا لمحمود عوض دلوقتي.. ممكن يقفل الباب في وشنا»، وأنا فعلاً بحب وحدتي، وأي كاتب من وجهة نظري لازم في وقت معين ينعزل عن الناس، لأن ده جزء من شغله، عشان يقرأ، لكن لو أنا قاعد طول النهار على قارعة الطريق هابقى عابر سبيل مش كاتب.

لكن هذه العزلة وصلت للقارئ، أعتقد أنك على مدى ما يقرب من عشرين عامًا وأنت بعيد عن القارئ المصري، اللهم سوى في السنوات القليلة الأخيرة التي بدأت كتابتك فيها تظهر في الصحف المصرية؟

ـ مافيش كاتب بيختار بمزاجه الابتعاد عن قارئه، كنت أكتب في هذه الفترة في الصحف العربية.. «الحياة اللندنية»، «الرياض السعودية»، «الاتحاد الإماراتية»، ورغم أن القارئ المصري هو الأهم بالنسبة لي ، فإنه كانت هناك ظروف اضطرارية وإجبارية أبعدتني عنه.

تقصد ما حدث معك في «أخبار اليوم»؟

ـ بالضبط، أنا منعت من الكتابة في أخبار اليوم، وفيه قضية مشهورة جدًا بيني وبين الشخص اللي منعني، وتضامنت معي نقابة الصحفيين، ولأول مرة 12 من كبار نجوم الصحافة المصرية شهدوا معي ضده، منهم أحمد بهاء الدين، وكامل زهيري، وصلاح حافظ، وأحمد بهجت.. وغيرهم..

وطلع حكم واتنين وتلاتة، ومازالت القضية أمام محكمة النقض، قضية بقي لها 32 سنة، بدأت من سنة 77.

يبدو على وجهك الضيق، هل لا يزال الأمر يضايقك حتى الآن؟

ـ طبعًا، وأنا لما لجأت للقضاء كان سلوكًا غير مألوف وقتها بالمرة في الوسط الصحفي، لأن اللي معروف إن لما طرفين يختلفوا يشنَّعوا على بعض، ويطلعوا منشورات، وده مش من طبيعتي، ثم لأن ثقتي في العدالة وفى القانون كبيرة، رغم صعوبة المعركة القضائية، لأنني حين منعت من الكتابة لم تصدر ورقة واحدة رسمية بهذا المنع، وكان عليّ أن أثبت للمحكمة هذا المنع، بطرق أخرى.

وما الطرق التي استخدمتها لهذا الإثبات؟

ـ يعني أنا كان لي عمود ثابت منتظم فجأة اختفى، وكانت هناك عدة ملابسات.

أعتقد أن الوسط الصحفي كله لا يمتلك إجابة دقيقة عن سؤال: لماذا تم اتخاذ هذا الموقف مع محمود عوض؟ وهو الموقف الوحيد في تاريخ أخبار اليوم.. ربما أجد لديك الإجابة.

– لغاية النهارده دي علامة استفهام بالنسبة لي شخصيًا، أنا فعلاً مش عارف هو عمل كده ليه.

فور المنع مباشرة.. كيف تصرفت؟

ـ بص، أنا لو تفرغت لهذه القضية كنت هاحقق له اللي هو عايزه، لكن

أنا فكرت وقتها وقررت ألا أعطي القضية أكبر من حجمها، ألا تكون هي شاغلي الأول في الحياة، لكي أستمر ككاتب، لأن الهدف في النهاية أن أكتب، لا أن أتورط في معركة ويصبح شاغلي الأول هو الدفاع عن حقي في الكتابة، وأنا أريد الاستمرار، لذلك لم أتردد في قبول دعوات استكتابي في صحف العالم العربي، وعملت وقتها برنامجًا إذاعيًا ناجحًا جدًا هو «من قلب إسرائيل»، وكنت الكاتب الصحفي الوحيد الذي اختاره التليفزيون ليعلق تعليقًا سياسيًا على الهواء مباشرة، في وقت لم تكن متاحة فيه حرية هذه الأيام.

لو حكمت المحكمة في هذه القضية لصالحك، هل تعود للكتابة في أخبار اليوم؟

أولاً المحكمة لا تستطيع أن تلزم الطرف الآخر بأن ينشر مقالاتي، ليس من سلطتها، لكنها من الممكن أن تحكم بتعويض مادى، وبالمناسبة أي تعويض مالي سأحصل عليه من هذه القضية أنا متبرع به لصندوق المعاشات بتاع أخبار اليوم وبتاع نقابة الصحفيين، لأن قضيتي الأساسية هي قضية مبدأ.. يلخصها سؤال واحد: هل من حق سلطة الإدارة أن تمنع كاتبًا من الكتابة أم لا؟.

سؤالي لك مرة أخرى، وبصيغة أخرى.. أخبار اليوم اتصلت بك الآن تطلب منك استكتابك لديها.. هل توافق؟

أخبار اليوم جزء مني، ولو عرضت عليّ الكتابة بالشكل الملائم، هافكر.

قرأنا عن سفرياتك للخارج، عن علاقتك بنجوم الفن وصداقتك لأم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب.. لكن لم نقرأ سطرًا واحدًا عن امرأة في حياتك.. هل أنت متزوج؟

لأ.

لماذا لم تكتب عن المرأة. هل...؟!

يقاطعني بضيق: شوف عشان أريحك خالص، كل ما يتعلق بهذه المنطقة لن أتحدث عنه.

إذن لنأخذ الجانب الآخر من السؤال.. كيف تمضي يومك.. كيف يعيش الآن محمود عوض؟

أنا أستيقظ 5 صباحًا.. وأنام 10 مساءً، ولا أستقبل تليفونات بعد الساعة 7 مساءً.

إيه حكاية عدم استقبالك لتليفونات بعد الساعة 7؟

ـ في الفترة الأخيرة، وبعد أن ازدادت متاعبي الصحية، الأطباء نصحوني بعدم النوم وأنا منفعل، لذلك أتفادى التليفونات الليلية خوفًا من الانفعال.

محمود عوض صحفي من منازلهم. تعليقك!

ـ يعود إلى طبيعته المرحة، يبتسم: أنا إنسان من منازلهم من زمان، حتى في بداية حياتي الصحفية كنت كده، وكان مصطفى أمين ـ الله يرحمه ـ

لما يشوفني في الجورنال يقول لي: «ميرسي يا محمود على الزيارة اللطيفة دى»، لأن شغلي كنت باعمله في البيت.

بمناسبة مصطفى أمين، ناظر مدرسة أخبار اليوم التي أخرجت العديد من التلاميذ النبلاء، سؤالي عكسي.. منْ تلاميذ محمود عوض؟

ـ عمري ما قلت على حد إنه تلميذي، لكن بابقى سعيدًا جدًّا لما حد بيقول لي من نفسه: «أنا تلميذك»، لكن أنا لا أتطوع وأتحدث بالنيابة عن أحد، لأني أرى نفسي دائمًا ما زلت أتعلم كل يوم بشكل جديد.

ألا يوجد أستاذ معين لمحمود عوض، ينظر له على أنه القامة الكبيرة في الصحافة المصرية؟

ـ هناك قامات عديدة كبيرة، لا قامة واحدة، كل هذه القامات تدخل «الخلاط» الشخصي لتفرز كيانًا مختلفًا وجديدًا.

بتروح طلخا(*).. بلدك؟

من النادر جدًا، لكن هي في دماغي دائمًا، وأنا كتبت عن مدرستي مقالاً بعد أن وجدتها في صفحة الحوادث، حيث وقعت جريمة بها بعد أن تغير اسمها لمدرسة «أحمد حسن الزيات»، كتبت وقتها عن مدرسة طلخا التي أعرفها، ملاعب الكرة، حصص الموسيقى، المكتبة، وكلمني وزير التعليم ليعاتبني على ما كتبت، وبعد أن قرأت ما وصلني من رسائل تؤكد أن كل ما كتبت عنه لم يعد موجودًا، ولا ملاعب، ولا موسيقى، لا شيء.. قلت

(*) مدينة مجاورة لمدينة المنصورة.

للوزير لو كنت أعرف كل هذه المعلومات لكان مقالي أقسى مما نشر.

متى زرت طلخا آخر مرة؟

مش فاكر والله، من سنين طويلة.

وهل تزورك طلخا؟

لأ. يعني. ناس كتير.

ترتسم على وجهه ملامح أقرب للتكشيرة وهو يضيف: اخرج من المنطقة دي بسرعة، إنت ناقص تقول لي رقم بطاقتك كام!

صمت.. يقطعه سؤال مني: رغم ما يبدو عليك من وقار، وما تفرضه مقالاتك على القارئ من شياكة، لكني حين أدقق النظر في صورتك تبدو لي تجاوزًا مني ـ كصعلوك. ما تعليقك!

لأن في حياتي جزءًا من الصعلكة، ولأني أحب أتخفف، يعني ما تلاقينيش لابس كرافتة، ومش باخد وقت في اللبس..

يضحك ثم يضيف: أيام ما كنت في أمريكا، كنت باروح كل يوم الأمم المتحدة بدون كرافتة، ومرة كان عندي ميعاد يقتضي أن ألبس كرافتة، خرجت من الميعاد ودخلت مقر الأمم المتحدة بها، وأنا على بوابة الحراسة قام رجل الأمن ليقول لي: «مستر.. كان لازم تلبس كرافتة من زمان»، وعشان خاطر الراجل بدأت آخد الكرافتة في جيبي وأنا نازل من اللوكاندة، وقبل ما أدخل الأمم المتحدة بـ10 أمتار ألبسها إرضاء لهذا الرجل.

هل تضايقك الرسميات بشكل عام؟

جدًّا.. جدًّا.. دا أنا مرة وقعت في حيص بيص، لما اتعزمت عند الريس السادات، في البيرهاوس بأمريكا، كان لازم وقتها ألبس «بيبيون»، طب ده أجيبه منين؟ كلمت السفير قاسم غبريال، وجبناه بالإيجار.

بالإيجار؟

أي حاجة ممكن تعملها في أمريكا بالإيجار، حتى لو عايز تعمل مظاهرة، ممكن تعملها بالإيجار.

هل تعرضت لأي موقف في أي مقابلة لك مع مسئول ما بسبب عدم حبك للرسميات؟

يتسم: لأ.. الناس كانت بتقبلني، بس أتذكر إنه في يوم ما وكنت في بداية حياتي الصحفية وذهبت لمقابلة زكريا محيي الدين، ووقتها كان نائبًا لرئيس الجمهورية، ووزير داخلية، وكان مكتبه في الإدارة المركزية بمصر الجديدة، بص لي مرة كده وقال لي: «إيه يا محمود لبس الكشافة اللي إنت لابسه ده؟».. قالها لي من باب الهزار لأنه كان متقبلني في النهاية بهذا الشكل.

عايز أروح لسفرياتك التي تجد لها مكانًا قويًّا في كل كتبك تقريبًا.. ولنبدأ من أمريكا؟

يقاطعني: مش بس أمريكا، أنا سافرت إلى نصف بلاد العالم.

حبًا في اكتشاف هذه البلاد، أم حبًا في إعادة اكتشاف نفسك؟

سؤال مهم، وإجابته للاتنين.

على حساب مَن بدأ محمود عوض السفر، حسابك الشخصي أم حساب المؤسسة الصحفية التي كنت تنتمي إليها؟

على حسابي وحساب المؤسسة أيضًا.. بص ما هو زمان كان فيه قيود على الصحف يعني لازم عشان تسافر يطلع لك قرار إنك في مهمة صحفية وبدل السفر كان يادوب 100 جنيه استرليني، وبحد أقصى 30 يومًا.. أنا كنت أستخدم الكلام ده في إني أقعد 3 أشهر وأدبر أموري، يعني مثلاً أنا سافرت من أخبار اليوم لتغطية جلسات مجلس الأمن والجمعية العمومية كنت أعمل ميزانية علشان تكفيني، ماكنتش أروح لوكاندة أسكن فيها عشان ما تخلصش الفلوس في أسبوع، كنت أروح على بيت شباب قريب من الأمم المتحدة بحوالى 500 متر، بالتالي وفرت المواصلات، صحيح كانت الأوضة بتاعة بيت الشباب مترًا ونصف المتر × متر ونصف المتر، وكان الحمام بالخارج، بس لا بأس، أنا رايح أشتغل في النهاية، مش رايح أتفسّح.

هذه الغرفة تعرضت فيها لمحاولة القتل من مجهول. أليس كذلك؟

بالضبط، كما كتبت عن هذه الواقعة في كتاب «بالعربي الجريح»، حين دخل عليّ شخص ما ممسكًا في يده سكينًا وجلست هادئًا حتى تركني ومضى.

ما المدينة التي تشبه معالمها وتضاريسها شخصية محمود عوض؟

نيويورك، لأنها مدينة عابري السبيل، ملايين من الناس موجودون فيها لكن نصهم مش بيباتوا فيها، بيباتوا في ضواح مجاورة، والنصف الثاني وافدون جدد، أشكال وألوان من البشر، ورغمً أنها مدينة حضارية فإنك تجد فيها الثراء الفاحش يعيش بجوار الفقر، أحياء ثرية جدًا، وأحياء يسيطر عليها الفقر والجريمة.

هل تعرضت لجريمة أخرى.. غير جريمة المجهول صاحب السكين؟

لا.. بس شفت جريمة كنت ماشي أنا وعبد الحليم قدام البارك.. في جنينة كبيرة، بجوار لوكاندة كنا نازلين فيها، وإحنا بنتمشى في عز الظهر، لاقينا على بعد 20 مترًا واحد واقع على الأرض وفيه شلال دم، فـ "عبدالحليم"– الذي يحمل طبيعة المصريين – كان رايح ناحيته، قلت له: اوعى تيجي ناحيته شوف الأمريكان بيبصوا عليه ويمشوا لأن بالنسبة لهم ده أمر عادي، قال لي: بس عايزين نعرف إيه الموضوع، قلت له: هنعرف كل حاجة في نشرة 6، وعرفنا إن كان فيه واحد متربص له في خلاف على فلوس فدخل عليه على أنه بيحضنه وضربه بالسكينة اللي بتشتغل بالزرار دي، وخد الشنطة اللي كانت معاه وجرى.

ألم يفرض عليك الموقف الإحساس بالخوف من هذه المدينة؟

بص.. رغم أن كل اللوكاندات بتعلق لافتات مكتوبًا عليها «نحن غير مسئولين عن تأمينك» يعني ما نعرفكش، ورغم أنها من المدن القليلة اللي بيمشي فيها البوليس كل اتنين مع بعض، وكل واحد معاه تسليح قاتل، لكن عمري ما خفت منها.

ما فكّرتش تشيل «مطواه» هناك؟

لا.. لأني جاي سياحة، لكني كنت حريصًا على الابتعاد عن مواضع التهلكة يعني لا أذهب إلى حي «أرلن» الشهير بالإجرام وأقعد أمشي فيه.

يدخل هنا محمود عوض في نوبة كحة طويلة، دفعتني للسؤال: ماذا أعطتك تجربة المرض؟

ادتني إحساسًا..... يتوقف عن الكلام ثم يضيف: بص أنا اتكعبلت في حياتي بإغراءات كتير جدًّا، ومع ذلك من أيام الجامعة كان أصحابي يطلقون عليّ «صاحب الإرادة الفولاذية»، لما باحط حاجة في دماغي لازم أعملها، وكنت دائمًا عند حسن ظنهم، فيما عدا السجاير، إنت عارف الواحد في سن المراهقة يقول إيه يعني ده هزار، ولما أحب أبطل هابطل، بدليل أنني في شهر رمضان مابدخنش طول النهار.. الاستخفاف في تأجيل القرار تعبني جدًّا صحيًا عمل مضاعفات فظيعة.. السجاير هي الهزيمة الوحيدة في حياتي والتي ما زلت أعاني منها حتى الآن.

لم تنجح في الاستغناء عنها حتى الآن؟

- من 6 أشهر كده بطلت نهائيًا، ومن أسبوعين رجعت أدخن 3 سجاير في اليوم وده لارتباط الموضوع عندي بالانفعالات رغم قناعتي التامة بأضرار التدخين، ونصيحتي الدائمة لكل من أعرفه عدم التدخين ولو سيجارة واحدة على سبيل التجربة.

إيه بيضايق محمود عوض؟

سؤالك في المطلق، ماأقدرش أديك عليه إجابة محددة.

إيه اللي بيخليك انفعاليًا مش مضبوط؟

الإحساس بالظلم.

هل تتعرض لهذا الإحساس كثيرًا؟

مش لازم يكون واقع عليّ شخصيًا من الممكن من خلال رؤيتي له وهو يحدث أمامي.

هل وقع عليك الظلم بعيدًا عن أخبار اليوم؟

ما هو أنت لو استبعدت أخبار اليوم، يبقى استبعدت جزءًا كبيرًا من حياتي، لأنه ظلم في صميم المهنة التي أعشقها.

بدا على محمود عوض الضيق قليلاً، وكان لابد من الخروج من هذه المنطقة بسؤاله: محمود عوض لما يكون مروّق في البيت، وعايز يسمع شريط كاسيت، إيده بتروح لمين؟

يعني، مش عايز أحدد أسماء، مش عايز أبان متحيزًا.

بس ده مش تحيز، ده مزاج شخصي، دي حريتك؟

أيوه حريتي بس خلينا ما نلتزمش بأسماء أحسن.

طيب ممكن نقول الزمن القديم ولا الجديد؟

أنا لا أعتبر المسألة متعلقة بالزمن، أنا أعتبر إن المسألة متعلقة بالذوق العام، بانهياره، زمان كان فيه حاجة اسمها لجنة الاستماع في الإذاعة تعرض عليها كلمات الأغاني وألحانها، بحكم أنها بوابة المرور للبيوت المصرية، ومن أجل هذا السبب لم نجد أغاني جنسية أو مبتذلة، وكانت الإذاعة نفسها بتنتج أغاني وتنظم حفلات، ومن ساعة ما تخلت الإذاعة عن هذا الدور وأصبحت شركات القطاع الخاص هي التي تقوم بهذه العملية، أصبح التنافس الحالي والقائم تنافسًا نحو الهبوط وليس الارتقاء، وكأن الحياة العامة هي اتجاه للكباريه.. زمان كان المطرب اللي له شعبية حريص جدًا ألا يقترب من الغناء في الكباريهات، لأن ذلك يعد سُبَّة في حياته.

تقول ذلك رغم أن عبد الحليم حافظ غنى في كباريه في شارع الهرم؟

عملها مرة واحدة في حياته وسألته عنها، وبرر لي موقفه، وأوشكت على الاقتناع لكني لم أقتنع.. قال لي وقتها: إن صاحب الملهى صديق قديم له، وألح عليه في الغناء، وهو وافق من باب الوفاء على إحياء حفلة واحدة.

«تشرب إيه»؟ يقولها محمود عوض ليتحول الحوار ومع أول رشفة من النسكافيه من حياته الخاصة من مناطق أوجاعه إلى السياسة، حيث معركته الشخصية مع إسرائيل، التي أوقفت برنامجه الإذاعي «من قلب إسرائيل» ببند سري في معاهدة السلام، ليتحدث عن مصر، مشاكلها الاقتصادية، الحكومة والصحافة، الناس في الشارع، نكسة 67، وحكاية الكتاب الذي قرر أن يحكي فيه قصة عبد الحليم حافظ.

العندليب والنيل والحياة 2

نعم، بالضبط.. أنا حرامي. والدليل الـ 71 كلمة المقبلة:

«أمل دنقل ونزار قباني في الشعر، وهو في الصحافة، وحده قادر على تسريب أعقد المعاني في أسهل الألفاظ، عبد الحليم حافظ وأم كلثوم في الغناء، وهو في الصحافة، وحده قادر على اعتلاء المنصة وهو مثخن بالجراح، سيمور هيرش وروبرت فيسك في صحافة الغرب، وهو في صحافتنا، وحده قادر على اقتناص الحقيقة من بين أنياب النفاق، فتوّة الحارة وروبين هود في عالم الصعاليك، وهو في عالمنا، رجل مهم في زمن تافه. إنه... محمود عوض.»

سرقتهم من يسري فودة، الكاتب الصحفي، صاحب البرنامج التليفزيوني «سري للغاية» ، وسبب السرقة مجهول.

انتهت الجريمة، لنعد الآن إلى مسرح الحوار مع عندليب الصحافة المصرية. الكتابة.. هي العقدة.. وهي الحل..، هي السؤال وهي الإجابة،

عثر شامبليون على حجر رشيد.. ليحل لوغاريتمات حضارة بتاريخ 7000 سنة. ومن أجل الكتابة نزل أول تكليف قرآني «اقرأ».

مع أول رشفة من كوب النسكافية، أسأل الكاتب الكبير محمود عوض، متى تكتب؟.. أسأله.. ليضع فنجان النسكافيه على الترابيزة ثم سريعًا ما يتكلم: أصل الكتابة أنواع، والكتابة السياسية بالتحديد تحتاج إلى أكبر قدر من التوثيق، لأن العالم أصبح معقدًا، للدرجة التي لم تعد تصلح معها الانطباعات.

السياسة.. علم.. لا يمكن فهمه صحيحًا إلا بقراءات صحيحة ومعلومات كافية.. وهذا مرهق.. يزداد إرهاقًا في العالم الثالث.. في أمريكا الكاتب يضغط على زرار ويحدد المعلومات التي يحتاجها، فيجدها أمامه، أما هنا أنت تعمل «طرزان»، كل حاجة تجمعها بنفسك، وحين توليت رئاسة تحرير «الأحرار»، كتبت مقالاً وقتها قلت فيه: إن العلاقة بين صحف المعارضة والصحف القومية تشبه العلاقة بين الدول النامية والدول المتقدمة، رئيس تحرير جريدة قومية يضغط على الزر ويطلب السفر للخارج.. فيسافر، كل هذا غير موجود في صحف المعارضة، لا مقومات بها، لذلك وجدت نفسي في الأحرار – وبحكم الضرورة – أقوم بأدوار كثيرة، المترجم والمراجع، والديسك والساعي.

ومع ذلك قدمت تجربة، توصف في الوسط الصحفي بأنها مرعبة؟

هذا بسبب التوزيع الذي ارتفع من 30 ألفًا إلى 160 ألف نسخة في 3 شهور ونصف الشهر، لكن الذي أفخر به، أن كل من عملوا معي في

هذه التجربة وفى هذه الفترة يذكرونني بالخير، لأنها أصبحت نقطة تحول فاصلة في حياتهم الصحفية إلى الأفضل.

لماذا لم تكرر التجربة رغم علمنا بكثرة العروض؟

لأنها مرهقة جدًا، مثلاً مقالاتى التي كنت أكتبها لكبرى الصحف العربية توقفت، ليس لأنني أردت إيقافها، ولكن بسبب الوقت، لم يكن لدي أي وقت.

كل هذا بسبب كرسي رئاسة التحرير؟

- كل هذا بسبب أن مفهومي لرئيس التحرير يختلف عن المفهوم الموجود حاليًا، رئيس التحرير بالنسبة لي مثل قائد الفرقة الموسيقية، هذا القائد قد لا يعزف لكن مهمته اختيار العازفين المهرة كل في آلته.. وأن يبحث عن عظمته الشخصية في كل واحد منهم، دوره أن يخرج العزف متناسقًا، لا أن يهتم بتكرار نشر اسمه في جريدته، وكثيرًا - بسبب هذا المفهوم - ما كان يندهش البعض من إبدائي لأفكار موضوعات لمن يعمل معي لتنفيذها، ثم إعادة صياغتها مرة أخرى، وتنشر بأسمائهم في النهاية بعد أن أضيف لها معلومات، هذا هو رئيس التحرير من وجهة نظري، وعليه أن يفهم أنه موجود في كل سطر من سطور صحيفته دون التصريح بأنه مَنْ يفعل كل ذلك.

كيف ترى الصحافة المصرية الآن؟

هي في حالة صراخ ومخاض وبحث عن الذات تطول هذه المرحلة أم تقصر.. لا أعرف.

وهل تعتقد أن تكون النتيجة النهائية في صالحها، ستكون جيدة؟

لابد أن تكون في صالحها.

حتى مع كل هذا الزخم من الصحف القومية والمعارضة والمستقلة؟

بمناسبة المستقلة -أولاً- في مصر لا توجد صحف مستقلة بالمعنى الدقيق، هناك صحف خاصة.

كيف؟

الاستقلال له متطلبات كثيرة غير متوافرة لدينا، متطلبات مادية ومهنية.

في مصر حوالي 18 صحيفة يومية، وعشرات الصحف الأسبوعية، بخلاف الدورية، وتزداد الأرقام كل يوم في الوقت الذي تتسلل فيه الشبكة المعلوماتية «الإنترنت» لتخطف عددًا -لا بأس به- من المتابعين والمهتمين بالقراءة، وفى الوقت نفسه الذي تغلق فيه صحف كبرى بالعالم أبوابها الورقية، وتكتفي بنسخها الإلكترونية، كيف تفسر هذا التناقض، أو بالأدق، كيف ترى مستقبل الصحافة الورقية في مصر؟

- في الغرب، تتزايد الكتابات التي تؤكد أن المستقبل ليس في صالح الصحافة الورقية، أما أنا فأرى أن هذا الكلام غير صحيح، إذا عدت بالزمن قليلاً للوراء حين ظهر التليفزيون تجد أن البعض قال إنه سيقضي على الإذاعة، وحين ظهرت الإذاعة قال -البعض- إنها ستقضي على الصحافة المطبوعة، ويقال الآن إن الإنترنت سيقضي عليها.. كل هذه

الوسائل من وجهة نظري ما هي إلا تحد جديد على الصحافة المطبوعة عليها أن تواجهه، وتبتكر ما يكفل لها البقاء.

ما الصحف التي يقرأها محمود عوض؟

من حيث الكم عدد كبير جدًّا، سواء كان عربيًّا أم أجنبيًّا، منها ما يأتي إليّ بالاشتراك، ومنها ما أقرأه على الإنترنت.

محمود عوض 2009 هل يكتب بالورقة والقلم أم بالكمبيوتر؟

منذ سنوات حين بدأت كتابة المقالات للصحف العربية، اضطررت لتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة، كنت أكتب بإصبع واحد، حتى تعلمت، وحين ظهر الكمبيوتر تعلمت الكتابة عليه، لكن قبل أن أكتب مقالي على الكمبيوتر لابد أن أنتهي من كتابته بالورقة والقلم.

هل هناك أوقات معينة تكتب فيها؟

هناك أيام محددة أكتب فيها «عرفت من قبل أنهما يوما السبت والأحد»، أحاول التنظيم لمسئولية تسليم المقالات.

سرقت الصحافة من محمود عوض عمره، ووقته، تزوجته زواجًا كاثوليكيًّا لا يعترف بالطلاق، ولا يفهم الانفصال حتى حين يقرر – أو يحاول– الهرب منها، يجد نفسه لا إراديًا يهرب إليها، لقد دخلها من باب الأدب، تعرف عليها حالمًا بأن يصبح روائيًّا عظيمًا، لكنها غافلته حين جعلته يترك الأدب – دون أن ينساه– ليتفرغ لها والسبب النكسة.. زلزال 67؟ سألته.. بعد كل هذا الرصيد الصحفي الكبير، بعد كل هذا

العطاء، هل أخذت حلمك القديم من الصحافة؟.. هل ترى نفسك الآن.. أديبًا؟

يشرد.. ثم يبتسم، ثم يرد: حكيت لك من قبل عن اتصال صلاح منتصر بي ليحدثني عن مسلسلي الإذاعي «أرجوك لا تفهمني بسرعة» المهم.. تابع منتصر المسلسل بالكامل واتصل بي ليناقشني فيه بعد اندهاشه من سلاسة الحوار، اندهش أكثر حين أخبرته أن هذا كان هو اتجاهي الأصلي، لكنه لم يحدث، فقد جاء زلزال 67، ليدفعني غصبًا ودون رغبتي إلى الكتابة في السياسة.. كارثة 67 دفعتني إلى السياسة.. رغبة في المعرفة، ثم دفعتني إلى تعميم فائدة هذه المعرفة، وخلقت بداخلي إلحاحًا في الاستمرار، وبالتالي الابتعاد عن توجهي الأدبي وقدمت وقتها مثلاً برنامجًا إذاعيًا لمدة 5 دقائق يوميًا «من قلب إسرائيل»، فوجئت بأنه أصبح أكثر البرامج السياسية متابعة وانتشارًا داخل وخارج مصر، كما سجلت ذلك تقارير المتابعة الإذاعية، ونشرت بعدها كتاب «وعليكم السلام» لشرح وتوثيق الصراع العربي الإسرائيلي، ومن قبله كتاب «ممنوع من التداول».

كان اسم محمود عوض ونجاح برنامجه الإذاعي «من قلب إسرائيل» وقبله كتاب «ممنوع من التداول» يشكل قلقًا في إسرائيل نفسها، أليس كذلك؟

هذا ما كشفته الظروف بعد ذلك، وظهرت مجموعة من الأدلة لتؤكده منها شهادات ضباط مصريين كانوا أسرى وكانت إسرائيل تسألهم دائمًا «هل تقرأون لمحمود عوض؟..» وهذا الكلام لم أرغب في الحديث عنه حتى أعلن عنه الدكتور هشام عيسى وهو الذي كان ضابطًا طبيبًا في

القوات المسلحة، بخلاف الملابسات الأخرى التي حدثت مع برنامجي الإذاعي فور مبادرة سلام السادات، والتي انتهت بإيقافه «من قلب إسرائيل».

وهل جاء إيقاف البرنامج هذا بالفعل في بند سري لمعاهدة السلام؟

إسرائيل عملت حاجات كثيرة لإيقاف هذا البرنامج، بشكل مباشر وغير مباشر، أشياء أخرى يطول شرحها، المهم أنها انتهت عمليًا بإيقاف البرنامج.

هل يضايقك السكن بجوار السفارة الإسرائيلية؟

جدًّا.. جدًّا بالطبع.

من الساكن الأول.. محمود عوض أم السفارة؟

تركت شقة العجوزة التي كانت تبعد 200 متر عن بيت نجيب محفوظ، وجئت إلى شقتي هذه عام 74، السفارة جاءت إلى هذا الموقع قبل اغتيال السادات بـ6 شهور، وللأمانة الأمن المصري بكل تفريعاته كان ضد هذا الاختيار، لكن السادات فرض إسرائيل على الأمن المصري، رغم أن الأمن الوطني هو المسئول عن حماية السفارات الأجنبية وبالتالي من حقه أن يستشار في اختيار موقع السفارة، ليحدد هل يصلح لحمايته أم لا، وسفارة بهذه الخطورة خطأ جدًا وضعها في عمارة سكنية.

أتقصد أن إسرائيل اختارت هذا الموقع لسفارتها وفرضته على مصر؟

طبعًا، فرضوه علينا كأمر واقع.

لماذا هذا المكان بالتحديد اختارته إسرائيل كمقر لها في مصر؟

أول مقر للسفارة الإسرائيلية في مصر بالمناسبة كان في الدقي، بجوار بيت الطالبات العرب، حدثت مشاكل وقتها وبدأوا في البحث عن مكان آخر، وكلما وجدوا مقرًا جديدًا وقبل توقيع العقد مع صاحب العقار وفور علمه بهويتهم الإسرائيلية يرفض رغم محاولتهم إغراءه بالفلوس.. وتكررت هذه الواقعة، حتى توصلوا لضرورة وجود واجهة مصرية تنهي إجراءات التعاقد، واختاروا مقرهم الحالي، وكان وقتها عمارة جديدة يتم تشطيبها، مملوكة لجمعية تعاونية وقدموا شخصيات مصرية تفاوضت على شراء آخر دورين، ودفعوا وقتها مليوني دولار، وهو مبلغ ضخم جدًا في حينها، وأخذوا المقر ليفاجأ به الأمن المصري.

ما تحليلك لفلسفة آخر دورين بالتحديد؟

حين أفكر بطريقتهم، للإجابة عن سؤال لماذا كان هذا الموقع مهمًا جدًا لهم؟.. أجد الإجابة أولاً: إن هذه هي أعلى عمارة كانت موجودة وقتها، تكشف العقارات الموجودة بجوارها، دون أن تنكشف. هي ثانيًا تطل هذه العمارة على كوبري الجامعة، وهذا الكوبري يمر عليه يوميًا ما يقرب من 150 ألف طالب جامعي أثناء الذهاب – العودة، إلى من جامعة القاهرة، وكأن إسرائيل تقول لهم: أنا موجودة على قلوبكم. ثالثًا بيت السادات في هذه المنطقة ومن المتصور – وأنا لا أجزم – وجود أجهزة تنصت وعلى ما أعتقد أن التكنولوجيا وقتها كانت تسمح بذلك، للتنصت على السادات خاصة أن هذه الأجهزة أثناء دخولها مصر لن يتم تفتيشها، حيث ستدخل

مع الحقائب الدبلوماسية، وستعامل معاملتها. رابعًا: وجودها في عمارة سكنية يجعل السكان أنفسهم رهائن لها.

هل يضايقك الدخول والخروج إلى شقتك؟

جدًا طبعًا سأضرب لك مثلاً، بعد اغتيال السادات وأنا كنت ضمن مجموعة الصحفيين التي شملتهم أحداث سبتمبر للإبعاد عن الصحافة، رغم أن مقالي المعتاد في الصفحة الأخيرة في أخبار اليوم كان منشورا قبلها بيوم واحد، كلمني وقتها مدير مكتب (CNN) في القاهرة لإجراء حوار معى، يذاع بالأقمار الصناعية، أعطيت له العنوان، وحددت له ميعادًا في السابعة مساء لزيارتي في اليوم التالي، وانتظرته في المنزل ساعة كاملة و لم يأت ثم دقائق أخرى ووجدت جرس الباب يرن، فتحت لأجد أمامي 20 فردًا، بينهم واحد أجنبي، تقدم ضابط مصري ليعتذر لي، ويشرح لي ما حدث، قلت له: لا داعي للكلام، الموقف شرح نفسه.

ما الذي حدث؟

في هذا اليوم حدث ضرب نار في أسيوط، كان فيه قلق عام، ثم إنني نسيت إخبارهم بمجئ ضيف، ولم يأت مترجم مع المصور الأجنبي، وحين وصل للمكان كان بالمصادفة السفير الإسرائيلى يدخل السفارة، والسائق الذي جاء مع المصور الأجنبي، حين طلبوا بطاقته الشخصية، وجدوه فلسطينيًا، ثم إن السيارة التي جاءوا بها تشبه السيارات التي كان تنفذ بها العمليات الإرهابية، وبدت معدات التصوير والإضاءة الموجودة في الصناديق مثل متفجرات، والمصور لا يعرف العربية، هو يقول

(TELVISION CAMERA) و لم يفهمه أحد، سوى بوّاب العمارة الذي قال للأمن: «يا جماعة ده بتاع تليفزيون، وتلاقيه جاي للأستاذ محمود عوض»، وحين وصل إليّ المصور قال لي: أجيلك امتى عشان نعمل جزءًا ثانيًا من الحوار، قلت له: ماتجينيش شوف إنت أي مكان وآجيلك فيه.

هل هذا يدفعك أحيانًا لعدم استضافة أصدقائك في منزلك وفى مقدمتهم عادل إمام؟

لأ.. الفنان الكبير عادل إمام، من أعز الأصدقاء الذين يعتبرون هذا بيتهم، لكن الظروف الصحية أصبحت تحكم قدرتي على الاستضافة الآن.

هل وقائع من نوع مصور الـ "سي إن إن"، تضايقك وتدفعك لمقابلة أصدقائك خارج بيتك؟

أحيانا، ويتوقف ذلك على حسب الكسل العقلي للأمن المصري، لأن المفروض أن هذا الأمن مثلما هو موجود هنا لحماية السفارة، موجود أيضًا لحماية المواطنين، والمهم ألا يأتي أحد الأمرين على حساب الآخر.

بتشوف السفير؟

لأ.

كيف ترى، وأنت المتخصص، شكل الصراع العربي الإسرائيلي بعد أحداث غزة الأخيرة؟

شوف، إحنا أخطأنا في فهم الحرب مع إسرائيل، وأخطأنا في فهم

السلام، أخطأنا في فهم الحرب بمعنى أننا رأيناها جيشًا في مواجهة جيش وأخطأنا في فهم السلام لأننا فرضنا على المواطنين مفهومًا غريبًا جدًا للسلام، خلاصته أن القضية انتهت بعودة سيناء ولو ناقصة السيادة، وأصبح الإسرائيليون أنفسهم حريصين أمام الكاميرات على الابتسام بجوار المسئول المصري ومصافحته بحرارة، مع الحرص أيضًا على نشرها حول العالم، وهو ما يوحي أن البساط أحمدي، ونشر هذه الصور قد يعطى للمواطن العادي إحساسًا بأن إسرائيل دولة عادية، وإسرائيل لم تكن قط ولن تكون دولة عادية، إسرائيل دولة ووظيفة، إذا اضطرتنا الظروف لعمل سلام مع الدولة، بقيت الوظيفة، ووظيفة إسرائيل في المنطقة، إنها تعمل لحساب قوة خارجية لها أطماع في المنطقة، هذا هو لب القضية، الذي لا يمكن إلغاؤه بمعاهدة أو 100 معاهدة سلام.

والخلاصة هنا، حرب الجيوش تأجلت بين مصر وإسرائيل، بمعاهدة سلام، لكن في هذا السلام جبهة الصراع شاملة، حيث أصبح هناك اقتصاد في مواجهة اقتصاد، تعليم في مواجهة تعليم، صحافة في مواجهة صحافة، والقتلى هنا لن تقرأ عنهم في الصفحة الأولى، أو تسمع عنهم في نشرة الأخبار، لكن ستجد مصنعًا أغلق، وجريدة توزيعها انهار، دون أن تشعر أن سبب ذلك هو الصراع العربي الإسرائيلي، لذلك لابد أن نكون يقظين في توعية المواطن توعية صحيحة.

ما تقوله، كلام خطير، هل يعني ذلك أن إسرائيل لها دخل في إغلاق مصانع مصرية؟

وهذه هي خيبتنا، لأننا مسئولون عن هذا البلد، ليس هم، والشباب الذي يسافر لإسرائيل، ويتزوج هناك، هذا أيضًا من خيبتنا.

الكاسيت يتوقف فجأة، يعلن ذلك من خلال «تكة»، دفعت الكاتب الصحفي الكبير محمود عوض لأن يعلق «ما كفايه كده، اللي أنت سجلته ده يعمل 10 مجلات»، أغيّر شريط الكاسيت الثاني، وأنا أرد: «لدي أمل أن يزيد العدد إلى 11، أو 12»..

يدور شريط الكاسيت، وأسأل عوض: مَنْ الشخص الذي يستمتع بالحديث في السياسة معك؟

يعود بظهره قليلاً إلى الكنبة، ثم يتحدث مبتسمًا: محمد عبدالوهاب، وكان حين يستعصى عليه أمر سياسي أو غير سياسي، أجده يدعوني لـ"عزومة" في منزله، ليناقشني فيه.

يشرد قليلاً ثم يضيف: في فترة ما، كانت درية شرف الدين تستضيفني في برنامج نادي السينما للتعليق على فيلمٍ ما، غالبًا ما يكون به سياسة، وفور العرض - حيث كان برنامجًا مسجلاً - وأثناء وجودي في البيت، يضرب جرس التليفون، لأعرف أنه محمد عبد الوهاب يريد مناقشتي فيما قلته، وهو كان مهتما بالسياسة بشرط أن تقدم له مبسطة ومختصرة، وكان يقول لي دائمًا: لما باشوفك بتحلل مجتمع أمريكا يا محمود، باحس كأني عايش في أمريكا.

إذن، ما تحليلك للمجتمع المصري في سنواته الأخيرة، وأنت بالتأكيد

تعرفه جيدًا، ليس فقط لأنك تعيش بينه، ولكن لأنك متابع جيد لأخباره من خلال حرصك على قراءة الصحف؟

من وجهة نظري، أخطر ظاهرة يعاني منها المجتمع المصري في السنوات الأخيرة، هي البطالة، والبطالة هي أقصر الطرق لانهيار القيم.. للعنف.. للجريمة.. للمخدرات، وهذا ما نشاهده الآن.

يصمت قليلاً ثم يضيف: ساعات، بانزل بعربيتي، وأقف في محطة بنزين، لأجد العامل في المحطة – وبالدردشة معه – خريج كلية زراعة أو تجارة، أرجع البيت وأنا مشغول بهذا الأمر كثيرًا.

كيف؟

لهذا الشاب، ولهذه القضية وجهان، أحدهما إيجابي والثاني سلبي، الإيجابي فيه أن هذا المواطن الصالح لم يتعال على الرزق، لم يجد وظيفة تناسب مؤهله الدراسي والجامعي، فبحث عما هو متاح، الأمر يؤكد أن بداخله ضميرًا يصر على الرزق الحلال. أما الجانب السلبي فهو أن أهله لم يصرفوا عليه 20 سنة والدولة معهم، ليأتي في النهاية ويزاحم الأميين في عملهم، هذا يؤكد على حدوث إهدار لموارد أسرته وموارد الدولة، ثم، هذه الحصانة، – الضمير – الأخلاقية الموجودة الآن.. كيف نضمن أن تستمر.

أترى أن هناك حصانة أخلاقية موجودة في الشارع المصري؟

موجودة، لكنها تتناقص، بسبب ضغط الحياة، شاب تعلم يريد وظيفة،

يريد زواجًا، ويريد شقة، كل هذه أبواب مغلقة، تزداد إغلاقًا يومًا بعد يوم، أنا أنتظر من الحكومة - أي حكومة - لا أريد منها سوى أن تقدم ورقة واحدة من 10 أسطر، تلتزم فيها بخلق 750 ألف فرصة عمل حقيقية كل سنة، تحل بذلك مشكلة البطالة، وبالتالي ستحل كل مشاكلنا.

لهذه الدرجة؟

تأكد، أنه لا يوجد ما يهدر كرامة الإنسان أكثر من شعوره أنه مالوش لازمة، أنه عاطل، ده إحساس قاتل للكرامة، وللإيمان، وللانتماء لبلدك.

كيف ترى الشارع المصري الآن، مقارنة به في فترة السبعينيات، ما الذي تغير؟

تغير كثيرًا، الناس مابقتش طايقة بعض، دا باين في السواقة، في الكلام، في كل حتة، أنا لما باشوف صفحات الحوادث، باندهش وأنزعج جدًا، لم تكن مصر من قبل تعرف هذه الجرائم الشاذة، واحد بيقتل أمه، ضابط يقود عصابة لتهريب المخدرات، مسئول في الإسكان بياخد رشوة مش عارف كام، والأسوأ من كده، وزير تلاقي ابنه بيشتغل في توظيف الأموال، المسائل ساحت على بعضها، والموضوع بقى مزعج لأنه امتد لشرائح مختلفة، مثلاً فيه واحد بتاع عيش بلدي أبو شلن، باشتري منه، لأني ماعرفش آكل الأنواع التانية، اتفقت مع الراجل ده إنه يجيب لي «أبوشلن» وياخد اللي هو عايزه، المهم لاقيته في يوم مكشر، سألته مالك؟ قاللي أمين الشرطة مخليني أقف في الحتة دي من زمان مقابل إن كل يوم أجب له فطار، سندوتشين فول، وسندوتش طعمية، جه النهارده وقال لي

لأ، من هنا وطالع أنا عايز أفطر «تونة» وعلبة التونة بـ 5 جنيهات، طب أنا باكسب كام عشان كل يوم أفطره بـ 5 جنيه، وإيه قبل ما أبيع كمان.

بانفعال يكمل كاتبنا الكبير: تخيل، القوي الآن يستأسد على اللي أضعف منه بالذراع، وللأسف كل العلاقات متشابكة بهذه الطريقة، طب أنت قريت قانون المرور، 42 مخالفة فيه عقوبتها السجن الوجوبي، إزاي؟ الكلام ده غير موجود في أي حتة في الدنيا.

في هذه اللحظة.. في النادي الدبلوماسي الذي نجلس فيه، يدخل «المتر»، ليسأل كاتبنا الكبير عن عدد المقاعد المطلوب حجزها، يشير محمود عوض له بأنهما 6 ضيوف، ثم نعود إلى حديثنا: هل ما زلت تتابع الإذاعة، أو بالأدق، كيف ترى الإذاعة المصرية الآن؟

لا أتابعها كثيرا الفترة الأخيرة؟

أفهم من عدم متابعتك لها أنك تراها ضعيفة الآن؟

– آه طبعًا، وأنا بقيت منزعج الحقيقة من سيطرة الإعلانات على الإذاعة والتليفزيون، أنا لما جيت أسمع مسلسل حليم «أرجوك لا تفهمني بسرعة» آلاقى بعد التتر مباشرة إعلان وكأنه جزء من الحلقة، هل هذا معقول، دي قلة ذوق، وتدمير للأعمال المضيئة، ثم لديّ سؤال مَنْ يفرض شروطه على الآخر، المعلن أم الإذاعة والتليفزيون؟!

متى نقرأ كتابًا عن حليم، وهو صديقك، يحمل توقيع محمود عوض، استكمالاً لكتابيك «عبدالوهاب الذي لا يعرفه أحد» و«أم كلثوم التي لا يعرفها أحد»؟

هذا الطلب، اقترحه من قبل عبد الحليم، والآن تلح على الفكرة بقوة، خاصة مع ازدياد المدعين لصداقة حليم، أفكر جديًّا، لكن حتى الآن لم أبدأ.

هل ترى نموذج الفنان الحالي هو الامتداد الطبيعي لأم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب؟

بالتأكيد لأ، دعك من أن المواهب نفسها مستواها انخفض، لكن أيضًا السلوك الشخصي نفسه اختلف، زمان، لما حليم كان يجيلى البيت، ييجي هو بنفسه اللي سايق العربية، النهاردة هات مطرب درجة عاشرة، تلاقيه ماشي ببودي جارد، والمطربات أصبحن أقرب لعارضات الأزياء، وليست أي أزياء، ولكن الأزياء الخليعة.

هل ينعكس ذلك على الشارع؟

بيقولك في الاقتصاد العملة الرديئة تضرب العملة الجيدة في السوق والفن كذلك، لأن العملة الرديئة حين تنزل السوق، أصحاب العملات الجيدة يخافون على عملاتهم فلا يخرجونها، وبالتالي تنتشر الرديئة، الفن الهابط يطرد الفن الجيد.

سؤالي الأخير: متى تعود إلى كتابة القصة والرواية، حبك الأصلي؟

يجيب مبتسمًا: لما الحياة يبقى لونها بمبي.

في هذا الوقت، يدخل أسامة هيكل، الضيف الأول على مائدة كاتبنا الكبير محمود عوض، يدخل، ليضع نقطة نهاية الحوار.

هل قتل الملك فاروق؟

سنوات طويلة مرت على وفاته.. ولا يزال السؤال على قيد الحياة، ما يكاد أن يصمت حتى يخرج لنا كل فترة محمولا على لسان مذيعين وأقلام صحفيين وأوراق كتاب.

كيف مات الملك فاروق؟

الجميع يجتهد بحثا عن نقطة نهاية مقنعة.. قوية.. قادرة على مواجهة علامة الاستفهام.

أما الإجابة.. ورغم اختلاف فقراتها وجملها وكلماتها باختلاف المجتهدين حولها لم تخلُ قط من اسم إبراهيم بغدادي.. رجل المخابرات المصري.. زميل عبدالناصر في الفالوجا.. أحد الضباط الأحرار.. محافظ المنوفية ثم كفر الشيخ ثم القاهرة الأسبق والأهم هنا.. أنه المتهم الأول في قتل الملك.

بعد 3 ساعات من الحديث معه عن الملك فاروق والضباط الأحرار.. عن

جهاز المخابرات وملفات الجاسوسية.. عن عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح نصر وحادث المنشية.. عن أشرف مروان عن الصحافة والثقافة ومشكلات القاهرة.. وناس مصر الآن، وبعد 6 ساعات تفريغ لأشرطة الكاسيت.. اكتشفت أن هذا الرجل الذي تخطى الثمانين من عمره.. وتلك الذاكرة القوية التي تسجل قصصا وحكايات ووقائع وشخصيات وأحداثا مهمة في تاريخ مصر الحديث.. لايزال تحكمه العقلية المخابراتية وتسيطر على كلماته حتى الآن.

إبراهيم بغدادي، لم ينف – طوال مدة الحوار– قتله للملك فاروق صراحة. قالها ضمنيا بطريقة مقنعة وإن تبدو مثيرة للشك.

ورغم قوة ذاكرته التي لم تنل منها سنوات عمره التي تخطت الثمانين.. ورغم قدرته الفائقة على ذكر أحداث بتفاصيل دقيقة وبالسنة والشهر واليوم.. إلا أنه في الحديث عن المخابرات كان دائما ما يعلن «الحقيقة مش فاكر اللي حصل وقتها بالضبط»!

سألته، أنت قتلت الملك فاروق؟

أولا: قتل الملك فاروق يستوجب أن نسأل: هل كان فاروق يشكل خطرا على مصر بما يستدعي التخلص منه؟، الإجابة: إن فاروق سنة 65 كان قد أمضى 13 عاما خارج مصر منفيا، ولم يكن له في مصر حزب، ولم تكن له أقارب حيث إن العائلة المالكة كانت هاجرت خارج مصر، ولم تكن له أملاك لأن أملاكه كانت صودرت، ولم يكن له في مصر شعبية، فلن تجد أحدا في هذه الفترة يرحب بعودته أو برجوع الملكية، إذن فالسؤال

لماذا نقتل الملك فاروق وهو لم يشكل خطرا على مصر في هذه الفترة؟

إذن كيف مات فاروق؟

هنا.. نسأل البوليس الإيطالي الذي حرر محاضر وفاته، ولكي نكون أمناء ولدينا مصداقية نسأل.. هل كان فاروق أثناء وفاته سليما صحيا؟

المعلومات المتوافرة تقول إن فاروق قبل وفاته بثلاثة أيام كان يتردد على طبيب القلب الخاص به لشكواه من ضيق في التنفس، وحذره طبيبه من كثرة الأكل لأنه مريض بالقلب وزيادة الوزن مع كثرة الطعام الذي كان يتناوله قد تؤدي إلى سكتة قلبية.. وقد أصيب بالفعل بسكتة ومات.

هذه المعلومات قرأناها جميعا.. لكن.. كيف تفسر طرح قضية مقتله؟ ولماذا تكون أنت بالتحديد المتهم في هذه القضية؟

صدرت هذه الشائعة وأثيرت أثناء محاكمة صلاح نصر، على أساس أن صلاح نصر، مدير/ المخابرات العامة، كان يحتفظ في خزانته الخاصة بنوع خاص من السم اسمه «أكوانتين» وبعد اعتقاله وأثناء مراجعة وزن السم وجدوه ناقصا 12 جراما.. انتحر بها عبدالحكيم عامر، وبسؤال صلاح نصر عن الكمية الناقصة لم يجب لأن علاقته بعبدالحكيم عامر كانت أقوى من علاقته بعبد الناصر وليس من صالحه أن يقول إنه أعطى كمية السم لعبدالحكيم خاصة أن عبد الناصر هو الذي قدمه للمحاكمة.. وكان يريد وقتها أن يجعل الناس تعتقد أن عبد الناصر قتل عبد الحكيم عامر.

وما علاقتك إذن بهذا السم؟ هل قال صلاح نصر إنك أخذته؟

ربما قال ذلك.. لكن لم تأت الإشارة لأى شيء من هذا الكلام في محاضر جلسات المحاكمة.

لو افترضنا أن قصة قتل الملك فاروق مجرد شائعة.. ألا يحق لنا أن نسأل عن مصدرها؟

على ما أعتقد أنها خرجت من بيروت.

بيروت. لماذا؟

بيروت في الخمسينيات والستينيات كانت مصدرا لترويج الشائعات في صالح أو ضد أي نظام عربي.

كيف؟

«بيروت كانت عاملة زي سوق عكاظ» تدفع قرشين للجريدة الفلانية لتكتب لك مانشيت أن فلانا قتل فلانا، والمانشيت تأخذه الصحف العربية على أساس أنه منشور في بيروت.

لنعد لنفس السؤال.. لماذا إبراهيم بغدادي تحديدا الذي ارتبط اسمه بقتل الملك فاروق.. لماذا لم يكن أي شخص آخر؟

هذه الشائعة صدرت بعدما تركت المخابرات بـ 3 سنوات تقريبا أثناء محاكمة صلاح نصر، وقتها كنت محافظا لكفر الشيخ، ولو كانت التهمة حقيقية أو لو ذكر اسمي أثناء التحقيقات كان قد تم استدعائي وسؤالي عن السم المفقود.

بمناسبة السم.. ما طبيعة وفاعلية سم «أكوانتين» المفقود؟

لست خبير سموم، لكن من خلال ما قرأتي عنه.. هو نوع لا يظهر أثناء التحليل الطبي، بمعنى أن أي التحاليل الطبية تستطيع تحديد سبب الوفاة إذا كان طعاما فاسدا مع كل السموم أو دواء فاسدا إلا هذا السم، عموما إذا أردنا معرفة سر هذه الشائعة فمن الضروري أن نبحث عن كمال خالد وهو محام وكان عضو بمجلس شعب عن إحدى دوائر الإسكندرية، وحضر محاكمة صلاح نصر سنة 67 محاميا عن أحد المتهمين، وعرفت أنه سجل تفاصيل جلسة المحاكمة السرية وطرحها في كتاب.. أعتقد أنه من الممكن أن يكون روى حقيقة ما حدث، مجرد اعتقاد فأنا لم أقرأ الكتاب حتى الآن.

يقال إنك في إحدى جلساتك الخاصة رددت أنك قتلت الملك فاروق.. ما حقيقة ذلك؟

لم يحدث ذلك، وربما يكون ما طرحه محمود فوزي في كتابه عن مقتل فاروق أوحى بذلك. وهي طريقته المعروفة حين يتناول قضية أو قصة شخصية معينة يبحث في الأرشيف عما يريد أن يقوله، وهو ما فعله معي.. حين سألني عن علاقتي بوفاة فاروق، وقلت له لتفترض أن فاروق مات مقتولا.. القتل يحتاج سيناريو والسيناريو له قواعد محددة وسردت سيناريو افتراضي، وعلى طريقة «القص واللزق» بدأ كلامي معه وبه شبهة تورط.. وأنا أخذت الكتاب وأعطيته لأصدقائي المقربين من الصحفيين والكُتّاب والجميع أكد لي بعد قراءته أنهم لم يصلوا لإجابة هل أنا قاتل أم بريء؟

أين كنت وقت وفاة الملك فاروق؟ وما كانت وظيفتك وقتها بالضبط؟

مش متذكر بالضبط، لكن وقتها كنت لا أزال تابعا للمخابرات، فاروق مات في مارس 65 وأنا سيبت المخابرات في نوفمبر 65، وبطبيعة عملي في المخابرات كان بتبقي عندي مأموريات مكلف بها في الخارج مرة في بيروت ومرة في لندن ومرة في هامبورج ومرة في استكهولم.. لكن فترة وفاة فاروق كنت فين.. مش قادر أحدد.

ألم تقابل أثناء مأمورياتك بالخارج الملك فاروق؟

شاهدته مرة واحدة في روما كان يجلس على مقهى في أحد الشوارع الرئيسية هناك، كان ذلك عام 1958.

هل تكره الملك فاروق؟

ولماذا أكرهه، أنا كنت معاصرا له، وهو أكبر مني بخمس سنوات فقط، هو مواليد 20 وأنا مواليد 25، وأنا قابلته وأنا ضابط في الجيش في رأس التين سنة 1945، لأني كنت أول دفعتي وكان فيه تقليد إن الملك يقابل أوائل الخريجين في الجامعات والكليات العسكرية ويشربون معه فنجان شاي، وقابلته وأعطاني صورة تحمل إمضاءه.. لكنها ضاعت بعد ذلك.

لم تجب عن سؤالي.. هل كنت تكره فاروق؟

ولماذا أكرهه.

ربما لأنه كان السبب في توريط مصر في حرب 1948، وحصارك أنت شخصيا مع عبد الناصر في الفالوجا؟

مش موضوع أكرهه.. الموضوع إني بحب بلدي، وعارف ومتتبع على وجه الدقة ما كان يفعله فاروق خارج الجيش أو داخله.

وكيف كنت تراه قبل الثورة بحكم أنك واحد من الضباط الأحرار؟

فاروق بدأت أسهمه في النزول في الجيش من سنة 46، قبل ذلك كانت له شعبية لكن بعد هذا التاريخ غابت عنه تماما.

لماذا 1946 تحديدا؟

بعد 46 بدأت تسيطر عليه جماعة المنتفعين.

من هم المنتفعون؟

كريم ثابت، وإلياس أندراوس وأحزاب الأقلية، بالإضافة للعناصر الإيطالية التي كانت موجودة في السرايا والتي توارثها عن والده الملك فؤاد.

هل كان ذلك كافيا من وجهة نظركم للثورة؟

فاروق أفسده المحيطون به، وظروف تربيته، فاروق لم يتعلم تعليما كاملا، كان يعلمه مدرسون في السرايا و لم تكن له حياة اجتماعية فهو لم يختلط مع أبناء الشعب ولا مع أبناء أحد من الأسرة المالكة، وهناك كتابات كثيرة مغلوطة عنه، والحقيقة فيها أن فاروق كانت له مربيتان واحدة إنجليزية والثانية أيرلندية، والملك فؤاد كان شرقيًا جدا وعصبيًا جدا في تصرفاته وكان مانع الملكة نازلي أن تختلط بفاروق.. فلم تكن تراه سوى يوم الجمعة من كل أسبوع بينما يعيش فاروق مع المربيتين والخدم النوبيين

والسودانيين، ولذلك كانت لغته الدارجة أقوى من لغته العربية وهو كان يجيد الإيطالية والإنجليزية والفرنسية.. هذا ما تعلمه في السرايا، لكنك لا تستطيع أن تقول إنه درس دراسة منتظمة في التاريخ أو الجغرافيا، وحين التحق بالمدرسة العسكرية الفرنسية وهي مدرسة ثانوية وليست كلية عسكرية قضى بها 9 أشهر، وهو ما يعني أنه لم يكن يمتلك خلفية علمية أو عسكرية.. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى سيطرة المحيطين به الذين كانوا يحفّظونه كل كلمة يقولها، فاروق وعمره 20 عاما كان يجلس مع الملك عبدالعزيز الذي تخطى عمره وقتها الـ 60 فكيف يستطيع أن يتحدث في السياسة وهو غير دارس لتاريخ الاستعمار الإنجليزي في المنطقة مثلا، ومن الأشياء المضحكة التي أتذكرها عنه؛ أن المحيطين به وبالتحديد الشيخ المراغي كان يحاول أن يخلق له شعبية دينية تعويضا عن بُعد والده عن الدين.. فكان يطلب من فاروق أن يصلي كل جمعة في مسجد ليصبح «الملك الصالح» ومن الغريب أنهم جعلوه إماما وعمره 22 سنة ويصلي خلفه الملك عبد العزيز والملك عبد الله الذي تخطى الـ 60 وقتها.. فاروق إماما وهو لم يتعلم حتى الفاتحة، هذا ملخص عن حياته الاجتماعية. أما حياته السياسية فكان يسيطر على فكره السياسي أحمد حسنين باشا وعلي باشا ماهر، كانا يوجهانه بما يخدم مصالحهما الشخصية وما يضمن بقاءهما في السلطة، هنا نسأل.. هل كان الملك فاروق بحكم سنة وتعليمه يستطيع أن يكون قائدا للدول العربية، ثم تعال لننظر إلى الجامعة العربية والتى أنشأها عبد الرحمن باشا عزام بإيعاز من الإنجليز، وكانت كل الدول العربية تقريبا محتلة، لم تكن هناك دولة واحدة

مستقلة بالمعنى الحقيقي، إيطاليا تحتل ليبيا، فرنسا تحتل تونس والجزائر والمغرب، إنجلترا تسيطر على العراق، وسوريا، ولبنان تابعة للانتداب الفرنسي، الكويت والخليج عبارة عن مشايخ، مصر والسعودية كانتا - اسما - مستقلتين لكنهما تحت السيطرة الإنجليزية.. كيف تكون هناك مجموعة من الدول العربية ترعى مصالح الدول العربية وهي غير مستقلة ولا تملك أمر نفسها، هذا بخلاف الفساد الذي استشرى وقتها وحرب 48.. كان لابد من وقفة.. من ثورة.

قبل أن نترك الملك فاروق ونتحدث عن الثورة وما بعدها، ما سر ارتباط فاروق ومن بعده ابنه أحمد فؤاد بإيطاليا تحديدا؟

هذه ملاحظة مهمة.. فرغم أن علاقة العائلة المالكة تبدو بفرنسا أقوى منذ أيام محمد علي الذي جاء بعد الحملة الفرنسية وتولى الحكم في 1805، وبدأت تظهر من خلال البعثات الثقافية لفرنسا ومن بعده الخديو إسماعيل، والعلاقة مع إيطاليا بدأت من وقت عزل الخديو إسماعيل وتولي توفيق الحكم، وقتها اختار إسماعيل إيطاليا كمنفى ورفض أن يلجأ لفرنسا، كما رفض أن يذهب لتركيا التي تسببت في عزله بناءً على توصية فرنسا وإنجلترا.. ذهب لإيطاليا وأرسل ابنه فؤاد الأول ليتعلم في جنيف وكان عمره 12 سنة، الذي التحق بعد ذلك بالمدرسة الحربية الإيطالية وكان زميلا للبرنس فيكتور عمانويل ولي العهد وقتها وكلمة السر في علاقة العائلة المالكة بإيطاليا، رغم أن فؤاد أكمل تعليمه ودراسته العسكرية والاقتصاد في تركيا فإنه ارتبط بصداقة قوية بـ «فيكتور» الذي أصبح ملكا لإيطاليا،

وبعد أن أصبح فؤاد ملكا استعان بإيطاليين في بناء القصور في مصر.. في السرايا.. وفى عمل شاطئ سيدي جابر بالإسكندرية، لدرجة أن فؤاد كان لا يجيد العربية مثلما يجيد الإيطالية، وفاروق ورث الجالية الإيطالية ولما خرج الملك فيكتور من الحكم بعد الحرب العالمية الثانية استضافه فاروق في الإسكندرية وعين له سكرتيرا خاصا من القصر وشيّعت جنازته جنازة عسكرية رسمية سنة 47، وظلت العلاقة موجودة رغم أن موسيليني تولى الحكم وتحولت إيطاليا إلى جمهورية وكان طبيعيا بعدما تنازل فاروق عن الحكم لابنه أحمد فؤاد أن يذهب لإيطاليا، ومن بعده الابن فؤاد الثاني.

هل لديك معلومات عن حياة أحمد فؤاد في جنيف الآن؟

لا.. للأسف.

ما رأيك في الكتابات الجديدة التي ظهرت أخيرًا لتدافع عن فاروق؟

فى تقديري.. أفضل اثنين كتبا عن فاروق الدكتورة لطيفة محمد الزيات، أستاذة التاريخ في جامعة بنها، ولها كتابان عنه، وسهير حلمي من الأهرام عملت كتابا من 800 صفحة «فاروق ظالما ومظلوما» به قدر كبير جدًّا من المصداقية.

السؤال للمرة الأخيرة.. هل قتلت فاروق؟

قلت إجابتي لك في البداية.

لنترك الملك فاروق وحياة الملكية إلى المخابرات.. وبحكم أنك أول جيل للمخابرات العامة التي قضيت بها على ما أظن ما يقرب من 10

أعوام.. ما طبيعة القضايا التي كانت تشغل الجهاز بعد الثورة؟

لا أذكر وجود قضايا بالمعنى المفهوم، وحتى لو كانت هناك قضايا محددة.. كل واحد منا لم يكن يعرف طبيعة عمل زميله في المكتب، والجهاز هو الذي يمتلك تقدير الموقف عن القضايا التي يمكن إذاعتها، لأنه قد يكون هناك ضرر من كشف أسرار الجهاز مثل؛ أن يكون بعض الأفراد لايزالون على قيد الحياة وغير مطلوب كشفهم الآن والإفصاح عن الدور الذي لعبوه، أو أن يكون في كشف القضية كشف لطبيعة عمل المخابرات الذي يعتبر على درجة عالية من السرية وليس من المصلحة إفشاؤها.

حضرتك كنت مسئولا في الجهاز عن ملف فلسطين وإسرائيل؟

كنت مسئولا عن الملف سنة 55.

ما أشهر قضايا الجاسوسية التي لم تعرف عنها شيئا بين مصر وإسرائيل؟

الجهاز وحده هو الذي يمتلك الحق في الكشف عنها.. والحقيقة أنا تركت الجهاز والسلطة من زمان وذاكرتي لا تسعفني!

لا تتذكر شيئا؟

طبيعة عمل المخابرات إنك تُكلف بمأموريات معينة باختيار شخص من رئاسة الجهاز، يعني مثلا كانت فيه مشكلة في الأمم المتحدة أظن سنة 64 وكانوا عايزين يعملوا اتصال مع حد في الأمم المتحدة بعيدا عن الشكل الرسمي.. بعيدا عن وزارة الخارجية أو عن طريق سفيرنا في الأمم المتحدة، وقتها على ما أتذكر المرحوم جمال عبد الناصر كان عارفا

بعلاقاتي بالخارج.. فطلب مني أروح وأقابل أصحابي هناك، وأيامها كان «يوثانت» سكرتير عام الأمم المتحدة، وهو من جنوب آسيا وكان مستشاره رمسيس نصيف، ونصيف أعرفه من أخبار اليوم لأنه كان محررا هناك سنة 47، 48، وأخوه كان مدير مكتب علي أمين، وبعدين أنا كنت في أمريكا من سنة 60 إلى 63 كنت قنصلاً عامًا في نيويورك لاكتساب خبرة في المجال الدولي، وقابلت رمسيس وقتها.

وما طبيعة المهمة؟

الحقيقة مش فاكر، أنا حبيّت أديلك مثالاً عن طبيعة المهام، وعموما عمليات المخابرات بتبقى بتكليف خاص لفترة زمنية قد تستغرق يوما، خمسة، عشرة.. حسب طبيعة المهمة.

لما حضرتك ما تعرفش طبيعة العملية.. مين يعرف؟

«يضحك».. رئيس الجهاز.

يهمنا أن نعرف حقيقة قضية أشرف مروان؟

لم تكن لي علاقة بأشرف، لم أقابله في حياتي ولا مرة، كنت أعرف والده لأنه كان زميلا في الجيش.

لكن من خلال خبرتك وعملك في الجهاز يمكنك أن تحلل لنا طبيعة عمله وحقيقة مقتله؟

هناك تضارب فيما قيل عن أنه كان يعمل لصالح مصر وإسرائيل، وبحكم خبرتي.. «مش داخلة دماغي حكاية عمله مع إسرائيل»..

صعب أن يذهب ويعمل لصالحهم؛ أما قضية مقتله فهى مثيرة للريبة، يعني «اسكوتلانديارد» لم تكشف مثلا عن سر اختفاء حذائه، و لم تعرف منها أقوال الفتاة التي كانت تعمل مديرة للمنزل، دا غير إنهم رفضوا اشتراك مصريين في جهة التحقيق على أساس أن الجريمة حصلت في لندن وهم مسئولون عنها.. الحقيقة لا يعلمها إلا الله.

ما نعرفه.. أنك درست صحافة.. هل هناك علاقة بين دراستك للصحافة وعملك بالمخابرات؟

أنا خريج تاني دفعة من آداب صحافة القاهرة عام 59، وكان من دفعتي إيريس نظمي وإنجيل زوجة موسى صبري، وأظن سهير بركات وعزت السعدني، أما سناء البيسي فكانت في الدفعة الأولى سنة 58، وكنت غاوي صحافة من زمان قبل الدراسة وعملت بمجلة «الفالوجا» في حرب 48 ولو رجعت لمجلة «آخر ساعة» ستجد مقالات منشورة باسمي سنة 49، وأنا من الأوائل الذين عملوا مع مصطفى وعلي أمين وكان معي موسى صبري وأنيس منصور وأحمد رجب الذي أعرفه من قبلها من إسكندرية قبل الثورة وكان معنا أحمد يوسف المصور وحسن دياب وكانت علاقتى بمصطفى أمين أقوى منهم جميعا بالمناسبة، وبعدين اشتغلت في الجيش سنة 53، ولما اتعملت المخابرات العامة سنة 55 انتقلت لها حتى عام 65 حين عينت محافظا للمنوفية، والعلاقة بين المخابرات والصحافة علاقة وطيدة لأن أساس العمل في المخابرات هو جمع المعلومات، والحصول على معلومات له طرق مختلفة أهمها الصحافة، يعني لو لديك العقلية

المخابراتية وأنت تقرأ الصحف تستطيع أن تخرج بمعلومات إذا قمت بوضعها بطريقة معينة خرجت بما تريد، هتلر سنة 33 كان يعرف معلوماته المهمة عن جيوش فرنسا وإنجلترا عن طريق تتبعه لأخبار الأفراح والمجتمع في الصحف، وأنت لو مسكت مثلا صفحة الوفيات في الأهرام تستطيع أن تجمع معلومات عن الشخصيات المهمة في مصر.

إذن.. أنت تمارس المخابرات من منازلهم؟

«يضحك» بيلفت نظري دائما المنشور في الصحف ومن خلال بعض العمليات البسيطة ووضع معلومات بجوار بعضها أستطيع أن أعرف كيف تدور الحياة السياسية في مصر.

وخارج مصر.. كيف ترى الحياة السياسية؟

بالرغم من انتهاء الحرب الباردة ما زال الاتحاد السوفيتي موجودا في الملعب السياسي، وما زالت أوربا موجودة في الملعب وأمريكا الشمالية والصين موجودة بقوة، أما دول عدم الانحياز فقد هبطت أسهمها تماما بعد وفاة القادة الثلاثة نهرو وتيتو وجمال عبد الناصر، أما الدول الإفريقية فبها صراعات حول الكرسي، وإذا نظرنا للدول العربية.. نجد أن كل بلد «قافل» على نفسه ولما «يتزنق» يطلّع قضية فلسطين من تحت الكرسي ويلوّح بها ويخبّيها تاني بعد كده، فلم يعد لهم وزن حقيقي في السياسة الدولية رغم امتلاكهم لإمكانيات تؤهلهم لذلك، على الأقل الطاقة «البترول والغاز» ولو أحسنوا استخدامهما لأصبحوا قوة ثالثة في المنطقة، ومثلا في القضية الفلسطينية يستطيع العرب الضغط على أمريكا وإسرائيل

بسلاح الغاز وبالضغط على القواعد العسكرية الموجودة بها.

صادقت جمالٍ عبد الناصر وزاملته في الفالوجا والحديث عن هذه العلاقة يحتاج لكتب، لكن لدي سؤال واحد عما أثاره أخيرًا حسن التهامي، مستشار السادات، عن أن محاولة اغتيال عبد الناصر في حادث المنشية بالإسكندرية.. مدبر؟

هذا ادعاء.. وعايز أقُولّه يا حسن أنت راجل دوغري ومتدين وحقّاني «ما ينفعش الكلام ده»، ولما الإخوان المسلمين ما حاولوش قتل عبدالناصر ولما هو فبرك حادث المنشية لماذا قبلت أن تستمر في العمل معه في رئاسة الجمهورية لغاية ما بقيت وزير رئاسة الجمهورية، ولماذا لم تقل هذا الكلام سوى الآن؟ يا ريت الناس الذين يحاولون أن يرتفعوا على أكتاف الآخرين.. يكفون عن ذلك، كتابة التاريخ تحتاج إلى أمانة في السرد بعيدا عن الشماتة والحقد الشخصي والكراهية الشخصية، وهناك من ينقل الآن عن مصادر لا يذكرون أسماءها أحداثًا تاريخية خاطئة وسخيفة خاصة في الصحف، وأنا أحترم مصطفى أمين لأنه حين أسس أخبار اليوم وأسس قسم المعلومات استعان بأساتذة تاريخ وجغرافيا من الجامعات لمراجعة مقالات الصحفيين لتفادي الخطأ.

كانت محافظة القاهرة.. آخر محطة لك في عالم السلطة.. كيف تراها الآن بعد مرور 36 سنة من تركك لها؟

كنت محافظا للقاهرة من عام 70 إلى 72، وبالمناسبة أنا صاحب شعارها.. حيث كان الشعار القديم عبارة عن باب زويلة وغيرته إلى مبنى الأزهر

الذي بني مع بناء القاهرة، وما يلفت انتباهي الآن في القاهرة زيادة نسبة العشوائيات والسبب الرئيسي فيها تخلف جنوب مصر «الصعيد» فمن أيام الثورة والصعيد مهمل.. عملنا مصانع في بحري وفى البحر الأحمر والسويس ولم نفكر في الصعيد حيث لا يوجد سوى مصنع الألومنيوم بنجع حمادي ومصنع السكر.. الأمر الذي أدى إلى ازدياد الهجرة بحثا عن عمل، ولأن المسافة بعيدة لا تسمح للمهاجرين بالعودة في نفس اليوم مثل أبناء الوجه البحري.. فالصعايدة يأتون إلى القاهرة ولا يعودون إلى بلادهم وهم السبب في إقامة العشوائيات.

كيف تمضي حياتك الآن بعيدا عن السلطة؟

أستيقظ الساعة 7 صباحا، لا أخرج من المنزل بسبب ظروفي الصحية إلا لزيارة الطبيب، تأتي إليّ الصحف الساعة التاسعة، أقرأ الصحف ثم أعيش مع الكتب.. والآن أقرأ كتاب «فاروق ظالما أو مظلوما».. ومن الصحف أدوّن أسماء الكتب الجديدة في نوتة صغيرة ليشتريها لي أحفادي.

أعرف أنك معتاد الذهاب إلى نادي الجزيرة؟

كنت أفعل ذلك حتى عام مضى.. فاحتياجي لأجهزة الاستنشاق يجعلني لا أستطيع ترك المنزل.

وماذا عن بناتك الثلاث؟

هدى أستاذة في جامعة «نورث كالورينا» في أمريكا ومسئولة عن الدراسات العليا هناك في الجامعة، وهالة عندها مركز تجميل في نفس العمارة، والثالثة تعيش معي وهي مديرة في بنك.

هل تحكي لأحفادك عن الثورة.. عن التاريخ؟

اهتمامات هذا الجيل مختلفة، لا يهمهم التاريخ.. لا يقرأون الصحف.

من أصدقاء إبراهيم بغدادي الآن؟

كتير.

من يتصل بك بشكل دوري ويطمئن عليك؟

الزملاء القدامى.. وعلى رأسهم أمين هويدي وعبد الفتاح أبو الفضل وبعض الأولاد الذين عملوا معي في محافظة كفر الشيخ.

هل لديك اتصالات بزملاء وأصدقاء ما زالوا في السلطة؟

لا أحاول الاتصال بأحد.

لماذا؟

لعدم الإحراج.. أنا مش عايز حاجة من حد.. وما فيش داعي أعطّل حد عن شغله، وبعدين الناس اللي اشتغلوا معايا طلعوا على المعاش من 20 سنة فاتت.

يغني.. يتكلم.. يبكي.. ويحلم

يبكي حين يستعيد كلمة إعجاب ضاعت من ألسنة الناس..يضحك حين يلتف حوله أحفاده وهو يجهز لهم الأكل..يحزن حين تموت وردة كان يرويها كل يوم في حديقة منزله..يغضب حين يسمع كلمة شفقة من سائق تاكسي قرر الركوب معه..يكره سهرات الوسط ويحب الشباب وأجمل لحظات حياته هي تلك التي يقضيها بصحبة النيل.

محمد رشدي هل أنت سعيد؟

فى بيت محمد رشدي ينتابك إحساس غريب.. رغبة ملحة في أن تتخلى عن جاكيت بدلتك وتفك رابطة عنقك بل والاستغناء عن حذائك ومن الجائز أن يتطور لديك الإحساس..فتسأله في لهفة طابخين إيه؟ إنها درجة الحميمية المرتفعة التي تسكن جدران بيته..التى تجعلك تضحك إذا ضحك.. تبكي إذا بكي.. تتذكر زمن بليغ حمدي وسعاد حسني وعبد الوهاب وعبد المطلب - وإن لم تعشه وكأنك جزء منه - تعرف

أبطاله جيدا انتابني في زيارتي لعم رشدي إحساس آخر جعلني أفكر جديًا في أن أهرب إليه كلما ضاقت بي الدنيا لذلك استبعدت ورقة الاسئلة التي كتبتها له ورحت أسأله عن كم هذه المشاعر ليضحك وهو يجيب عشان الأوضة دي مزروعة حب، كانوا كل ما يختفي بليغ حمدي ويدوّروا عليه يلاقوه هنا في هذا المكان والدفء الذي تشعر به جزء كبير منه بسبب بليغ حمدي الذي أنشأ مدرسة الصدق في مصر وأنا كنت أول تلاميذه.

الزمن اختلف؟

كتير..هذا الجيل لا يعرف الحب وهذا هو السبب في أن أغانيهم وألحانهم تسقط بسرعة..بليغ عمره ما لحن لحد ما حبهوش.. إنت عارف كان بييجي يطمن علي..ينده من بره البيت..وأول ما أنزل أفتح الباب يقول لي لا أنا جيت أطمنّ عليك وأمشي.

والجيل الحالي؟

بحبهم جدا لكن واخد على خاطري منهم لم يتصل بي أحد حين مرضت وأحمد شتا الوحيد الذي اتصل بي أما مصطفى كامل ويوسف محمود وحسن أبو الدهب فلم يتصلوا ولا أعرف لماذا تذكرت وقتها المرض الذي فاجأني عام 1992، بنزيف حاد وتذكرت معه بليغ حمدي الذي تناوب مع زوجتي وردية الوجود في المستشفى على مدار 25 يوما كنت بداخل غرفة الإنعاش إنت عارف زمان الجماعة النقاد يقولون لك رشدي مضيّع فلوسه على بليغ، أقسم لك إن بليغ لحد ما مات عمره ما أخد مني فلوس.

للدرجة دي؟

في يوم لفّيت 5 آلاف جنيه في ورقة، كانت فلوس شغل ودخل عليّ البيت وقبل ما أكلمه قال لي :خلي فلوسك معاك يا محمد أنا ما بشتغلش معاك بفلوس أقول لك إيه!

بليغ كان صديقك الوحيد؟

في الوسط الفني بليغ والأبنودي أقرب اثنين إليّ والأبنودي الوحيد الذي علم بأسرار مرضي كلها وكنت باحتاج علاجًا غاليًا نوع واحد منه بـ1000 في الشهر، عبد الرحمن الأبنودي كتب في الوفد عن الحالة وفوجئت بالدكتور عوض تاج الدين، وزير الصحة السابق، يتصل بي ويطلب تقريرا عن حالتي الصحية نفس الأمر تكرر مع صفوت الشريف الذي أمر لي بعلاج مجاني.

وإزاي عشت الفترة دي -أقصد – مصاريف العلاج والبيت؟

يبتسم عم رشدي وعيناه ممتلئتان بالدموع وهو يقول :ما اكدبش عليك لولا وقفة النقابة والوزير لكان الأمر اختلف، وقتها كنت لا أعمل، فحالتي الصحية لا تسمح لي بالمشاركة في الحفلات والأفراح، المهم العلاج تحملته الدولة ومصروف البيت مقدور.

وألبومك "دامت لمين"؟ كنت مسجله قبل المرض.. تقدر تقول إن ربنا ياخد من هنا ويفتح باب رزق من هنا.

وليه بعُدت عن الوسط الفني أقصد سهراته وصداقاته؟

أحب الأدباء والمثقفين أكثر فارتبطت بصداقة عمر مع صلاح حافظ وحسن فؤاد ورجاء النقاش ومحمد جلال ومجدي نجيب وعبد القادر حميدة وعبد الوهاب عبد ربه، ولي صديق شخصي هو المستشار أحمد سعيد عبد الخالق..راجل قلبه كبير باشيل مشاكلى وأروح أرميها في حجره.

عشان كده دايما حزين؟

في الخمسينيات الإذاعة رفضت لحنا لعبد المطلب ولم يكن يعمل وقتها..وكنت أنا ساكنًا في باب الشعرية فذهبت إليه وأخذته إلى بيتي وكنت اشتري كيلو لحمة ضاني وأسلقه عشان ياكل وأجيب له الجلابية والشبشب وأوفر له جو الراحة كنت بافرح لما أسلم عليه وأمسك إيده وأستفزه عشان يغني..وكنت سعيدا بكل ما كنت أقوم به مع الأستاذ عبد المطلب وللأسف زعلت لما ما لقيتش حد يعمل ده معايا.

وده سبب دموعك القريبة؟

شفت الحب من ناس كبار لمسته بإيديا وعشته بجد، ولما سمعت هالة سرحان بتقدمني بكلام كبير في روتانا بكيت لأنني من زمان ماسمعتش كلمة حلوة أنا مش عايز شفقة من حد مش عايز أكتر من كلمة حلوة، افتقدت الحب أخيرًا ولا أستطيع أن أعيش بدون حب زمان كان النقاد لما يكتبوا عني يقولون إن رشدي فحت في الصخر..أنا مش حاسس إني عملت حاجة.

إزاي؟

زمان كنت باخد 3 جنيهات من بديعة مصابني الكورال وكان المرتب 9 جنيهات في الشهر أبعت 4 جنيهات لأبويا وأدفع أجرة جنيه للبيت في حارة المغاربة رقم 18 و2 جنيه أعيش بيهم أبويا زارني في حجرة تحت بير السلم لم يكن بها شباك، بكى وقال لي إيه اللي جابرك على كده تعبت آه بس قلت له حب الناس اللي يخليك تعمل المستحيل وإنت بتضحك.

تقول إن حساسيتك المفرطة دفعتك للعزلة عن الناس أخيرًا؟

من زمان وأنا راجل بيتوتي..بحب مراتي وولادي أصحى بدرى أسقى الجنينة والزرعة تصور لما تكون وردة طالعة في طريق واحد ونحاول نعدلها تموت..عملتها وبكيت عليها بعد كده، إنت عارف بقعد أطبخ الأرز وأساعد في طلبات البيت وفي رمضان فيه وصفة خاصة أنا الوحيد اللي بعملها في مصر باجيب تفاح وفراولة وموز وأقطعهم على شربات وأقدمهم لاحفادي في رمضان..كل يوم أعمل دا وهما حواليا..وأوضب السفرة عيالي كلهم بيعملوا دا مع زوجاتهم لدرجه أن زوجتي تتهمني بأنني السبب في ذلك.

بتحب الغنا؟

أحب الغنا لأنه حياتي.. زمان كان بليغ يقول لك ما تركبش العربية مع رشدي لأنه هيكلمك في الغنا ويدخل في حيطة، بس دلوقت ما فيش حيطة علشان مافيش عربية.

ليه؟

العربيات غليت أوي باركب تاكسي أحسن بتضايق لما السواقين يزعلوا مني، وهما بيقولولي العيال بتركب عربية ومحمد رشدي بيقف في الشارع مستني تاكسي، هما زعلانين لما أركب معاهم ولا إيه؟

يتوقف عم رشدي عن الكلام مطالبا باستكمال زجاجة الكولا في الوقت الذي أتأمل فيه المروحة الصغيرة.. استوقفتني ووجدته يجيب على سؤال يلح عليّ ولم أستطع أن أطرحه.. ليقول: لا تسأل عن التكييف لنقول إن الحجرة صغيرة لا تتحمله.

عم رشدي لما تزهق من البيت تروح فين؟

باقعد على النيل بافتكر دسوق بلدنا وأبويا الراجل بتاع الطوب وأفتكر الفيضان لما بييجي يهدم مجهود السنة كله.. وأفتكر صراخ أبويا لما كان يلاقي البنات حواليا وأنا بغني كل ده بافتكره لما أعدي على شارع البحر الأعظم، وعلى فكرة ياريت المسئولين يعدلوا اسم الشارع يخلوه مثلا النهر الأعظم.

الفنان الكبير محمد رشدي هل تسمح لي أن أخبرك برأيي فيك؟

ده يشرفني.

إنت تستاهل تمثالاً كبيرًا في ميدان عام.

ربنا يسترك.. بس أنا نفسي الناس تفتكر رشدي بس، من غير تمثال.

الفصل السادس

أبويـــا

"يا قــبر جـايـلـك جــدع زيــن
خــايــل في لـــفّ الـعـمـامـة
وحــيــاة نــبـيـنــا.. نــبـي زيــن
مــا تحــاسـبــه يــوم القيامة"

عدودة من الصعيد

عطا اللـه

كان من المفترض أن أكون نائمًا في هذا التوقيت.

فقد تناولت وجبة عشائي منذ مايقرب من ساعتين، كما أن المؤذن أنهى نداءه بالصلاة منذ فترة، الساعة نفسها تقترب من العاشرة مساءً.

لكن النسوة اللائي اجتمعن أسفل بيتنا، بملابسهن المبهجة، وحكاياتهن القديمة المكررة، ومجاملاتهن لبعضهن البعض المشكوك في صدقها، وإصرار أمي للجلوس معهن، وهي تداري قلقها في عمل أدوار الشاي المتتالية، كل هذا جعل مسألة النوم بالنسبة لي مستحيلة.

لم يتوقع أحد من الرجال المنتظرين في المندرة بالخارج، ومن النسوة الجالسين في البيت أن تتحول الملابس المبهجة إلى سوداء، والقهقهات المنفلتة إلى نواح، بمجرد أن يصل والدي إلى ذلك الشارع الضيق الذي تراصت على جانبيه بيوت عائلتنا، والتى كان آخرها بيتنا.

قالت جدتي: "آهو جه"، وأكملت : "دا صوت عربيته ".

هرولت للخارج، لاستقباله، كانت لدي رغبة أن أفاتحه هذه الليلة فيما قاله لنا مدرس الألعاب بالمدرسة، لقد طلب أن يشتري كل واحد منا شورتا أبيض وفانلة حمراء، زيًّا.. يميز فصلنا وهو يلاعب الفصل المجاور في حصة الألعاب، ولم أتمكن من أنقل طلب الأستاذ إلى والدي، حتى يأخذني معه في سيارتنا ويشتري لي الزي المطلوب، كان والدي قد حضر متأخرًا ليلة أمس، ورفضت أمي أن أقوم بإيقاظه هذا الصباح لأنه متعب، بعد أن رأت أن الموضوع نفسه يتحمل التأجيل، فاليوم خميس، وغدًا الجمعة إجازة، وهو الأنسب لي وله في القيام بعملية الشراء.

حين أطفأت السيارة نورها العالي، ونزل منها الشيخ محمد، الذي قادها هذا اليوم في هذه الرحلة الغريبة، ووقف المتسامرون المنتظرون منذ فترة طويلة لاستقبال والدي ومن معه، سادت مساحة صمت غامضة، كنت أقف أمام السيارة مباشرة، حين وقف الشيخ محمد متسمرًا، وكأنه تحول إلى صنم لاحول له ولا قوة، فلا أحد يريد النزول من السيارة، لا والدي، ولا أولئك الذين يجلسون بجواره.

مرت دقيقتان كاملتان، والموقف كما هو، حتى خفت نور عامود الكهرباء المجاور، ضعف كعادته، وقبل أن يعود إلى حالته الصحية، كان ابن عم والدي "عنتر "..هو أول الخارجين من السيارة.

بدا لي "عنتر " كممثل سينمائي يؤدي دورًا ما، وسط جمهور صامت، حين تقدم خطوتين، وأمسك بفتحة جلبابه.. ليمزقه، وكجمل أنهكه

السفر برك على الأرض فجأة، وراحت يداه ترفع التراب لتضعه على رأسه في حالة تشنج هيستريه غامضة، لم يفهمها الجمهور، وإن كنت استقبلتها أنا بقهقهة بريئة طازجة، قبل أن يصرخ في وجه الجميع..فى وجهي.."مااااااااااات".

إنها الجملة التي قلبت كل شيء.

فى البداية أضافت الجملة مساحة صمت أخرى، بعدها.. بدت تتعالى أصوات الجميع، كل واحد منهم تحول إلى بطل آخر، كل واحد منهم بدا حافظًا لنص مليودرامي خاص به، يؤديه وحده، لا علاقة له بالنصوص الأخرى المجاورة، لا يراعي حتى وجودها بجواره.

وجدت نفسي، ليلتها..أقف وحيدًا، تتنقل عيناي من مشهد هنا لمشهد هناك، من نص لنص، وبطل لبطل.

والحقيقة أن المشاهد من كثرتها وتنوعها، أربكتني، وبدت مشاعري متناقضة لا تعرف هل تدفعني للبكاء؟، أم تقودني للضحك؟.

لقد وجدت في مشهد، عمي "جمعة "، يتحدث مع الله، كان مندمجًا جدًا وهو يصرخ في السماء.. " خد حد من عيالي..بس عطا الله..لأ".

وفى مشهد آخر، وقفت "الحاجة" – اسم واحدة من النسوه اللائي كن في البيت – في حيرة شديدة من موقفها، تبكي، وتحث في الوقت ذاته أختها "حنان" على ترك المكان فورًا لاستبدال ملابسها المبهجة، بأخرى سوداء.

أما جدي فكان قد وقع على الأرض، ممددًا قدميه، في مشهد خاص به، بدت تضاريس وجهه مرتبكة..تهتز، وصدره يرتفع ويهبط، صوته يعلو ويخفض، وهو يردد في ألم عميق "يا بووي يا ولدي .. يا بووي يا ولدي".

لم يحاول أحد من الأبطال، أن يتدخل في عمل الآخر، استمر الوضع لما يقرب ساعة هكذا، حتى وحّد "الشيخ محمد " النص، ومثل مُخرج بارع، راح يحث الجميع على نقل الجثة إلى داخل البيت، وجلب المغسِّل، والكفن، ..وتمت مراسم الدفن في جنازة مهولة، أصبحت فيما بعد مقياسًا لحجم وأهمية الجنازات المتتالية، حيث كثيرًا ما تسمع جملة " دي يمكن زي دفنة المرحوم عطا الله".

جرت هذه الواقعة في 27 أكتوبر 1992 - في الأوراق الرسمية في 29أكتوبر-، بالكاد كان عطا الله وقتها قد أكمل الـ 31 سنة من عمره، ولم يكن عمري قد تخط بعد الـ 11 عامًا، كان يومًا غريبا في كل الأحوال، يوم خميس.. سماؤه كانت ملبدة بالغيوم، رغم أن الشتاء لم يدخل بعد رسميًا، ولم يعتد أن يرسل غيومه في هذا التوقيت من السنة في سماء الصعيد..سماء قنا.

كل ما قاله عطا الله، صباح هذا اليوم، أنه يشعر بصداع صعب، صداع يداهمه من ليلتين، لكنه اشتد عليه للدرجة التي جعلت عينيه "مزغْللة"، وكل ماحدث أن أقرانه وأبناء عمومته أصروا على اصطحابه إلى طبيب، كانت..أقرب لرحلة ترفيهية، منها لرحلة يحوطها ثمة خطر، حتى اللائي

حضرن لمنزلنا جئنا في الأساس للتفريج عن أنفسهن، النساء عندنا تتلمس أقل الأحداث للخروج، في ظل وجودهن في مجتمع بخيلة الأحداث فيه، مجتمع يرفض خروجهن من بيوتهن إلا في حالات تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة، منها زيارة المريض، من شاع عنه الذهاب إلى طبيب.

في اليوم التالي، ضبطت نفسي متلبسًا بتلك الفكرة، وقفت أمام السيارة، أفكر في أنها الآن أصبحت من حقي، لي كامل الحرية في قيادتها، في الذهاب بها إلى أي مكان يحلو لي.

لم تنزل من عيني قطرة دمع واحدة لفترة طويلة، رغم أن البكاء في بيتنا لم يتوقف يومًا واحدًا لمدة عام، رغم أن مراسم أخْذ العزاء استمرت لمدة 15 يومًا متتالية، كانت تبدأ صباحًا من الساعة التاسعة وتستمر إلى الثانية عشرة صباح اليوم التالي، هذا بخلاف الأربعين والـ "الحولي" - الذكرى السنوية -، والأعياد والمناسبات الدينية المختلفة، التي يكون للميت نصيب مهم فيها، إنه مجتمع يعشق الحزن، يحبه، ويتفنن في الاحتفاء به.

حاولت أن أبكي، مجاملةً لمن يواسوني، ولم أجد في عيوني دمعا، حاولت أن أمثل ذلك.. ولم أعرف، حتى إنني جلست مع نساء البيت.. بجوار المعدِّدة، قبل أن يجبرها عمي على التوقف بدعوى أن ما تفعله حرام، جلست بجوارها وهي تنوح "يا قبر جايلك جدع زين / خايل في لف العمامة /وحياة نبينا.. نبي زين /ماتحاسبه يوم القيامة ".. ولم يحدث شيء، لأنني في الحقيقة لم أكن أصدق.

كل مافعلته، إنني ذهبت بعد أسبوعين تقريبًا إلى حجرة والدي الخاصة،

وبعد أن حصلت على المفاتيح من أمي، ذهبت لأعبث - في فضول ملحٌ - في شنط السفر الكبيرة، ثلاث شنط..لا تزال هواية فتحهما تراودني حتى الآن، كلما ذهبت إلى بيتنا، كانوا بالنسبة لي مثل مغارة علي بابا، صحيح..إنها مغارة خالية من الياقوت والزمرد، لكنها..مليئة بما هو أهم، مليئة بألبومات صور عديدة، بمجموعة كتب، بخطابات متبادلة بينه وبين أصدقائه، بمجموعة نادرة من العملات الفضية لبلاد مختلفة، بالإضافة لبدل وبنطلونات جينز وتي شيرتات كانت شهود عيانا على حياته في القاهرة، قبل أن يستبدلهما في سنواته الأخيرة بالجلابية البلدي.

على كل حال، كانت الحجرة كلها غريبة على الجميع، على أحد حوائطها الطينية، لوحة لفنان تشكيلي، ..إنها..لوحة سيريالية في قرية 70 % من سكانها - وقتها - لايعرفون القراءة والكتابة، بخلاف الكاميرا الفوتغرافية، وحاملها المعدني، وشرائط الأفلام السالب، وكاسيت قديم.. رصّت بجواره أغاني الست، وأعداد قديمة من الأهرام مرصوصة فوق بعضها - تخلصت أمي منها بعد ذلك في حربها ضد الصراصير- هي أغرب حجرة عرفتها في قريتي على الإطلاق.

هو أيضًا - بالنسبة لي - شخصية غامضة، تزداد غموضًا كلما حاولت التعرف إليه، إن المعلومات التي جمعتها عنه.. تقول إنه لم يكمل تعليمه، خرج من المدرسة دون أن يحصل حتى على الابتدائية، عاش فترة طويلة من حياته في المطرية بالقاهرة، حتى إنها كانت محل إقامته في البطاقة الشخصية، تم تجنيده في سلاح المخابرات الحربية، يعشق التصوير، ومهتم

بقراءة الأهرام يوميًا، مهنته الرسمية..سائق، وعمله الحقيقي.. صاحب شركة مقاولات صغيرة، أسسها في آخر سنواته.

محبوب إلى درجة كبيرة، إنه أشبه بحبة كريز وحيدة موجودة في تورته.

مرت ثلاث سنوات، حين بكيته لأول مرة، بكيته بحرقة وقتها..وكأنني كنت أجمع الدموع طوال الأيام الماضية، لأنزفها دفعة واحدة، كل ما أتذكره إنني في هذا اليوم وجدت سيارته تباع أمامي، سيارته الخاصة التي رفض بيعها أكثر من مرة، والتي تمنيت أن أقودها تقليدا لطريقته في القيادة وحبًا في طريقة تعامله معها، ولأنها كانت تريني دائمًا –معه– أماكن جديدة وبني آدمين آخرين غير المعتادين لي والمتوقعين.

بكيت يومها بحرقة، لأنني لم أستطع أن أحافظ له عليها.

ومن يومها، تعلمت البكاء عليه.

واليوم، وقبل أن أكتب هذا الكلام مباشرة، طلبته، و لم يستجب.

كنت أريد رأيه في زواج أختي، كنت أحلم أن أراه هو – لا أحد غيره– وهو يضع يده في يد عريسها، وهو يشاهدها وقد تخرجت في الجامعة، في قرية نصف ذكورها لم يتعلموا، كنت أريده هو لا أحد غيره.

و لم يجب.

وبكيته بحرقة جديدة، وحدي. بعد أن تذكرت أنه قد مات.

الفصل السابع

فال الله ولا فالهم(*)

«اصحى.. تغرّك وترميك
في بحر ماله سواحل
تندم ولا شيء ينجّيك
وتصير في الناس غافل»
ابن عروس

(*) لو صُدف تشابه أي مما جاء بهذا الفصل من وقائع أو أسماء مع نظائر من الواقع فسيكون ذلك بمحض الصدفة حسب الاتفاق مع المؤلف فيما يخص التحقيقات التي تمس الشرف كما يراه العقل الجمعي (المحرر).

بنـــات للإيــجار(*)

1

:2007

المستشفى الجامعي.. مركز السموم..مكتب الدكتور..مدير المركز.. كوب شاي وفنجان قهوة مضبوطة، وحوار مشترك بيننا عن الانتحار في مصر.

حوار غير رسمي، لكنه لم يخل من معلومات جديدة.."بنستقبل في اليوم ما بين 170 و200 حالة تسمم ، "80 %" من الحالات انتحار، "80 %" من حالات الانتحار بنات ، "أقراص السكر والريفو والمبيدات الحشرية وسم الفئران وصبغات الشعر وأقراص النيوفللين والبنزين والبوتاس.. أشهر طرق الانتحار في مصر".

(*) أجريت المقابلات في إحدى قرى الجيزة.

"ممكن أشوفهم وأتكلم معاهم"..طلب شخصي، والرد عليه.." ممكن بس إذا هما وافقوا".

2

عنبر 4 داخلي..4 سراير و4 بنات والملابس واحدة..زي المستشفى الأبيض ودردشة مستمرة..ضاحكة، عن الحب والزواج والفلوس والشبكة والمهر والانتحار والولاد اللي عايزين الحرق والآباء والأمهات والرومانسية..و...

دردشة ساخنة، استطاعت أن تجذب للعنبر بنات أخريات ليشتركن في الحوار المفتوح..بضحكة ونكتة وتعليق وحدوتة إلا....... "أميرة".

3

في سجل المركز كتب عنها.."أميرة – 17 سنة –انتحاري(*)–سم فئران".

ما لم يكتب.. أن "أميرة "من(...) أصغر أخواتها البنات اللائي تزوجن جميعًا من عرب وسافر للخارج.. واحدة منهنّ عادت بطفل وشوية فلوس.. خلاف تلك الـ(60) ألف التي استلمها والدها من العريس الكهل ليؤسس بها قواعد بيته ويبني منها الدور الأول بالمسلح.

(*) انتحاري: تكتب هكذا في الملفات الرسمية.

ولأن المسألة، بالنسبة له- للأب، سهلة ومربحة، وبصرف النظر عن مأساة ابنته التي لاتجد إجابة عن والد الطفل، حاول أن يزوّج أختها "أميرة" لثري عربي آخر جاء به سمسار.. والمقابل 25 ألف جنيه، والشروط.. أن تكون "بكرًا"، والموضوع.. زواج لمدة شهر في شقة بأحد الأحياء الراقية، والمهم.. السرية، والوقت.. يومين لتجهز نفسها.

وافق الأب، أما "أميرة".. فقررت الانتحار لأنها لاتملك قرار الرفض.

أسألها.."ها بعد اللي إنتي شفتيه.. هتنتحري تاني؟".

تأتي إجابتها مفجعة.."أنا مش عايزة أتجوز بره..ومش قادرة أقول لأ ولو غصب عليّ أبقى اقرأ لي الفاتحة".

4

خرجت "أميرة" من المركز..عادت إلى بيتها..إلى والدها..ورغم فشلي في الوصول إليها في القرية بإصرار من الناس على عدم التحسيس على تلك "البطحات" المنتشرة فوق رؤوسهم وحساسيتهم المفرطة تجاه كلمة "صحافة" فإنني وصلت إليها في مكان آخر..بعد أن غيرت اسمها وملامحها وطولها وعمرها ولهجتها وشكل والدها والحكاية التي ذهبت معها إلى مركز السموم.. وبعد أن تخلّيت أنا قليلاً عن لقب "صحفي"، تركته جانبًا.. تناسيته، وأنا أبحث عنها.

5

:2009

نفس السيارة التي تنقلك إلى القرية، نفس الأجرة (75 قرشًا)، نفس الوجوه الكالحة المنهكة التي يحرص معظمها على تفحصك جيدًا.. تفحصًا مبالغًا فيه، وكأن الجميع يريد أن يقول لك "لو جاي علشنا.. إحنا مش موجودين.. إحنا مش إحنا.. الفرق الوحيد أنك لن تكمل الطريق حتى نهايته، فالمطلوب منك أن تنزل "القرية" شارع الجيش.

6

على مدخل الشارع تقف عربات "التوك توك "، مترقبة زبائن جددًا، وعلى نفس المدخل يفترش بعض الناس أقفاص الفاكهة للبيع، الحياة تبدو عادية..لاتختلف عن أي قرية مصرية..غير أنك بمجرد أن تمضي في الشارع، شيء ما غريب..يوقفك.

معظم أبواب البيوت حديدية..مغلقة..لا تجد أمامها أحدًا، وكأن أهلها اختفوا..ربما يجهزون لمفاجأة ما من أجلك.. يتهيأ لي أنهم سيهجمون الآن.

أسأل إبراهيم سائق "التوك توك" على استحياء خائفًا من رد فعله.. "هو فيه سماسرة جواز هنا ".

يضحك.. وبعد سؤال منه.. أجبته "أنا معاي زبون خليجي"، رد إبراهيم.. "بص ياباشا أنت تستنى على القهوة تشرب شاي لحد ما أجيبلك عمرو ".

مين عمرو؟ أسأل ليجيب وهو يضحك.."لا مؤاخذة أكبر قرني في البلد دي".

سمعت الاسم من قبل، حكى لي أحد المترددين على القرية عن "عمرو" وأخواته البنات وتجارة البانجو وسمسرة الزواج.. وحكى لي عن "سعاد "التي تنافسه في المهنة.. وعن الشيخ حافظ الذي دخل القرية بـ"عجله".. حتى امتلك مصنعا في أولها و4 عمارات في آخرها وجراجا وسيارة، تحت عباءة فك الأعمال السفلية..وصرف الجان، ..وسمعت منه حكايات أخرى عن جماعات التبليغ والدعوة التي يخرج أفرادها في سبيل اللـه لمدة 3 أشهر متواصلة.

أفكر..كيف تجتمع تجارة الجنس بتجارة الدين مع البانجو؟

7

دخل إبراهيم سائق "التوك توك" وبصحبته عمرو الذي عرف نفسه باسم آخر "اسمي محمود.. أؤمر ".

معاي واحد صاحبي..عايز عروسة؟

موجودة.. بس نقعد معاه ونشوف دماغه عاملة إزاي؟ وهو منين الأول؟

من الخليج..وأنا اللي هاشوف بداله.

ما يجراش حاجة برضه، عايزها قد إيه..هتسافر..هتقعد.. طلباتك؟

إنت موجود عندك قد إيه وبكام.. أفهم الأول؟

أنا موجود عندي كل حاجة وإن شاء الله لو عايزها ساعة واحدة.. قوللي إنت بس طلباتك إيه..واحد اتنين..تلاتة.. وكله موجود وأمان يعني..خلي بالك (يشير إلى السائق) اسأل الراجل ده..أنا سايب شغلي.. أنا أصلي شغال نجار مسلح وجاي أقعد معاك ويوميتي 50 جنيهًا.

يهز سائق"التوك توك" رأسه مؤكدًا على كلام عمرو، قائلاً: "صح..وأنا والله قافل المكنة علشانك.. وخلي بالك الراجل ده هيخلصلك اللي إنت عايزه..بس قول له إنت عايز إيه؟"

ما الذي يمكن أن أقوله لهما؟

أسأل نفسي وأعود إليهما بإجابة: بص يا سيدي عايز واحدة كده في حدود 18 أو 19 سنة.. حلوة طبعا..أسبوع.

عمرو : ماشي 10 آلاف وأنا باخد ألفين والمحامي ياخد ألفًا للعقد. يعني 13 باكو.

أدّعي الفصال : ليه يا عم عمرو..دا أسبوع.

يرد : أيوه يا بيه إنت بتتكلم في جواز..مش رايح لامؤاخذه بيت دعارة..دا جواز على سنة الله ورسوله..وفيه عقد وشهود والبت بتاعتنا بنجهزهالك بنص الفلوس دي لبس وهدوم وإنت لو رحت تتجوز دلوقتي عايزلك مش أقل من 100 ألف جنيه وممكن لامؤاخذه يعني يوم وتطلق وتروح عليك فلوسك.. مش بيحصل الكلام ده يا عم إبراهيم؟!

قبل أن يجيب إبراهيم..تدخلت :ماشي أتفرج الأول..أشوف اللي عندك؟

طبيعي واللا صور؟ يسأل؟

أفهم قصده بعد فترة، وأرد : أعمل إيه بيها الصور.. أشوف على الطبيعة؟

"ماشي ألفي جنيه..تحت الحساب"، يقولها وهو يمد يده ناحيتي ناظرًا تجاه الترابيزة.

مش لما نشوف الأول..مش جايز ما تعجبناش.

لو ما عجبتكش..نجيبلك غيرها..وإحنا أصلا ما عندناش بنات وحشة.. عايز تشوف طبيعي تدفع ألفين تحت الحساب..صور 500 جنيه ودي معاك ودي معاك.

لا شيء معي.. المبلغ المطلوب غير متاح..لكن يمكن الهروب من المسألة بالتأجيل "طب خلاص..أنا أجيلك بالليل أجيب لك الفلوس معاي.. وخلينا على الطبيعة أحسن.. آخد تليفونك علشان أكلمك قبل ما آجي".

يرد "لا أنا ما معييش تليفون.. هات تليفونك إنت وأنا أكلمك الساعة 8 بس إديني دلوقتي يوميتي 50 جنيها ".

أحاول الإفلات منه :بقولك جايلك بألفين جنيه بالليل تقول لي عايز 50 جنيهًا.. فيه إيه يا عم محمود واللا عمرو!

يصمت ويطلب مني أن أحاسب القهوجي.. ويسلم عليّ مؤكدًا على اتصاله وانتظاره لي ليلا.

8

بجواري ما زال يقف إبراهيم يتابع ويستمع ويتدخل قليلاً دون أن يكف عن التدخين بشراهة و"طب ياباشا تأمرني بحاجة أنا كده..بس بعد إذنك آخد مواصلاتي 20 جنيهًا ".

ياخد الـ 20 جنيه أمام المقهى..يركب "التوك توك" الخاص به، ويمضي، وقبل أن أفكر في المضي والخروج من القرية ومع أول خطوة لي في اتجاه الشارع الرئيسي.. يقف بجواري "توك توك "آخر يطل منه سائقه مبتسمًا وهو يقول "فيه حاجة ".

ورغم أنني أجبت بالنفي، فإنه كان حريصًا على الدخول في حوار معي بقوله: " إنت عايز عروسة "؟

جاءت الجملة لتفتح حوارًا مختلفًا..ملامحه الهادئة دفعتني لأن أطلب منه شيئا آخر "عايزك تعزمني على شاي وأتكلم معاك شوية ".

9

على نفس المقهى جلسنا..اسمه خالد..يعمل بالتوك توك في القرية لكنه ليس منها..من قرية مجاورة..لا أتذكر اسمها الآن.. لكني أتذكر جيدا كلماته وجمله المحزنة التي قالها في بساطة أدهشتني بعد أن تخليت عن ملابس الممثل..قال: " عمرو ده يا سيدي بيشتغل كل حاجة..بانجو.. سمسار جواز..أية حاجة فيها فلوس".

وقال: "مش وحده..هنا فيه واحد اسمه صبري في سنُّه كده.. نفس الحكاية".

وقال: "يا عم بأى فلوس..لو فاصلت معاه يجيبلك واحدة ليلة..ليلتين.. بـ 100 جنيه، ويجيب لك مكان تبات فيه كمان في البلد".

وقال: "تعالى كده بعد المغرب وشوف العربيات المرسيدس والـ BMW مرصوصة هنا عرب، اللي عايز ياخد واحدة ويمشي، واللي عايز يبات.. وكده يعني".

وقال: "استنى أندهلك عم فرج..دا شغال بيركن عربيات عند الشيخ حافظ، هاقوله صاحبي..خلاص"

ينده.." ياعم فرج..ياعم فاااااارج".

10

يدخل فرج بجلبابه.

يرد بـ "تمام الحمد لله "..على سؤال خالد "ايه الأخبار؟"، يسلم دون أن تختفي علامات الاستفسار من على وجهه، إختفت الآن بجملة واحدة قالها:" دا خالد..صاحبى من الهرم ".

يمتد الحديث، يشتعل بأسئلة خالد وإجابات عم فرج.."والله العظيم اتحط لي فوق الترابيزة 40 ألفًا عشان ياخدو البت، وماكنتش لاقي لا مؤاخذه حق الدخان، لكن أبيع عيالي؟..مايحصلش".

و"طب أحكيلك حكاية، واحده جنبنا هنا اتجوزت واحد من الجماعة العرب دول، وسافرت معاه ورجعت على كتفها عيلين، واد وبت، وأهي قاعده هنا، لا عارفة تخلصّ ورق العيال، ولا لقيالهم أب وحالتهم تصعب على الكافر، حتى الجبنة مش لاقينها، وعيت (مرضت) بعيد عنك مرض وحش (لم يذكره)، ومش لاقية لاطب ولا دوا، واحدة زي دي تقدر تقولي تعمل إيه، يا راجل اسكت دي بلد جابت العار".

11

على الشارع الرئيسي أقف، سيارة مرسيدس تدخل القرية، على المقعد الخلفي يجلس بجلبابه وعقاله، أفكر.. ما الذى يدفعه لأن يأتي إلى هنا؟

كيف ينظر الآن إلى هذه القرية..إلى أهلها..إلى مصر؟

أسترجع كلمات خالد السابقة :"بيبقى جواز رسمي وورق حلال، طبعا فيه كده وكده، بس ده حلال".

أى حلال هذا الذي يتحدث عنه؟، إننا نتعامل مع الدين بالطريقة التي تريحنا، بالشكل الذي لا يؤرق ضمائرنا، كل واحد يرى اللـه من النقطة التي يقف فيها.

12

"......" أركب الباص، أفكر، أنظر خلفي.. لافتة القرية متسخه.

13

2010

نفس التفاصيل تتكرر، الشيخ حافظ مات أخيرًا. صحيح، لكن جاء آخر يكمل مسيرته، مثلما تكمل القرية نفس مسيرة إيجار بناتها، لتزداد – مع الزمن – لافتة القرية اتساخًا.

امرأة على ذمـــة رجلـــين (*)

إذا وجدت هذا الرجل في الشارع والأطفال يحيطون به، ويزفُّونه بـ"المجنون أهوه"..اعذره، ما حدث له يحرض على الجنون..وإلا بماذا تفسر ما فعلته معه زوجته؟

بعد 12 سنة عشرة أنتجت 4 أولاد قررت أن تخلعه، وبعد شهر واحد من حصولها على الخلع عادت تتوسل إليه أن يعيدها إلى ذمته!، وبعد شهر واحد من كتابة عقد زواجهما الجديد تركته وهربت لتتزوج بآخر وهي لا تزال على ذمته!

ألا يدعو الأمر للجنون؟

تبدو الحياة لدى البعض مثل ساقية ملاهي..تدور وتلف وتفقد الاتزان.. لا تملك معها سوى الصراخ بصوت عال، الفرق الوحيد بين ساقية الأطفال

(*) أجريت المقابلة في القاهرة.

وساقية الحياة أن الأولى تدخلها بقدميك..بكامل إرادتك..وأنت مستعد جيدًا.. وأنت تعرف ما الذي يحدث بها. أما الثانية فأنت معها مجبر..لا تعرف اتجاه اللفة..من أين تأتي الضربة المقبلة.

وإذا كانت "ضربتين في الراس توجع "..فالضربات التي تلقتها رأس "حسن" تقتل..تمَوت.

التقيته..يتحدث مع نفسه..تخونه عيناه ويبكي، تحت إبطه.. دوسيه بلاستيك مليء بالصور والأوراق، في يده.. عكاز يتسند عليه.

إنه مريض، :"كنت شغال حداد كريتال (أبواب وشبابيك).. فجأة لقيت نفسي مش قادر أرفع ضهري..رحت للدكتور..كشوفات وتحاليل وأشعات..قال لي: عندك ضيق في القناة الشوكية، وبعدين يا دكتور؟قاللي لازم تعمل عملية، ومن عملية واحدة لـ3 عمليات في الضهر..مصاريف وعلاج وبيت وعيال ومدارس، في آخر عملية خفت أموت..خفت أكتر على العيال من بعدي..، أصل الزمن اللي إحنا فيه دا زمن أغبر، المهم قعدت مع أم العيال واتنازلت لها عن عقد إيجار الشقة..حولته باسمها.. ما أنا مش ضامن..وخايف أموت من هنا..صاحب البيت يعمل مشاكل مع العيال..وأنا مش عايز عيالى يتبهدلوا معايا ".

وبعدين يا عم حسن (46سنة) : "ربنا وقف جانبي وأكرمني في العملية معظم الناس اللي بتدخل تعمل جراحة في المنطقة دي بتطلع مشلولة، أنا طلعت بإعاقة خفيفة..بامشي على عكاز..والحياة مشيت، بس بعد ما خرجت حسيت الجماعة متغيرين من ناحيتي، لاقيت مراتي فجأة مش

عاجبها الجلابية اللي أنا لابسها، طب أعمل إيه؟ مش هاعرف ألبس بنطلون وقميص تاني؟ ومش عايزاني أصلي.. طب لما ما أتقربش لربنا في الوقت ده هاتقرب إمتى والعمر بيعدي والدنيا تلاهي!"

"وفي يوم صحيت أنا والعيال.. ما لقيتهاش في البيت، راحت بيت أهلها كنا داخلين على عيد.. خدت فلوس العيد ومشيت، قلت يا واد سيبها يومين تلاتة وهي تهدى وترجع وحدها ".

ورجعت؟

"ما رجعتش.. أنا اللي رحتلها، جبتلها عباية ولا مؤاخذة.. جزمة، ورحتلها أنا والعيال، جيت على نفسي علشان خاطر الولاد.. أصل أنا معايا كريم (تالتة إعدادي) ومحمد (تانية إعدادي) ومها (أولى إعدادي) ويوسف (تالته ابتدائي).. المهم رجعت معانا، ويومين تلاتة.. طفشت من البيت ".

ليه؟

قالت: عايزة تقلع الحجاب.. قولت لها يا ستي إنتي كبرتي وبنتك بقت عروسة على آخر الزمن هتفرجي الناس عليّ؟.. هربت، وخدت عقد الإيجار معاها..إديته للمالك عشان يكرشنا من البيت، وأنا اتلهيت مع الراجل صاحب البيت، ولما فقت لقيت نفسي في الشارع أنا والعيال ولقيتها عاملة محضر جنحة ضرب ورافعة عليّ قضية خلع، اتجننت.. تهت..بقت الدنيا تشيلني أنا والعيال وتخبطني على الأرض، بس ربنا

وقف معايا خدت في القضية براءة..وقلت طالما هي مش عايزة تعيش معايا ورفعت قضية خلع..ماشي.. ارضى يا واد بقسمة ربنا.. ورضيت بالخلع وخدت ولادي وربنا كرمني ولقيت شقة على قدنا صغيرة في "بيجام "وقعدنا هناك.. ما فيش هي خدت حكم الخلع في 2007 ورجعت لي في2007.

عايزة إيه؟

"عايزة ترجع..قعدت تعيّط وتقول: سامحني ماكنتش في وعيي، كان يوم جمعة..وراحت لأهلي، أنا قلت لأ مش ممكن ترجع، قول الناس اتلمت..وكلمتين من هنا وعشان خاطر العيال.. وإنت معاك عروسة.. قلت ماشي.. وطلعنا على المأذون نكتب تاني.. المأذون سألها معاكي الصيغة التنفيذية لحكم الخلع؟! قالت: لأ أخويا ضربني وخده مني وخد مفاتيح البيت بتاع كفر الدوار، أصل هي كان معاها حتة أرض..ورث يعني وأنا بنيتها لها..قلت آهي حاجة تنفع العيال".

وكتب المأذون؟

"كتب..بس خد عليها تعهدًا إنها لازم تجيب الصيغة التنفيذية لحكم الخلع، ..ورجعت، ولقيت معها ورقة من عند دكتور.. سألتها دي إيه؟! قالت لي أصل أنا ركّبت لولب..كفاية علينا الـ 4 عيال..بس نربيهم كويس..قلت ماشي.. عين العقل، وخدتها على الشقة الجديدة..وجبت الجيران..يا جماعة دي أم كريم مراتي..كانت غضبانة ورجعت ".

توقف الرجل عن الكلام.. فجأه سكت..انتابته حالة من الصمت الممزوج بالحزن.. وانطلقت كلماته بعد ذلك مخلوطة بدموع غزيرة.. برعشة خافتة: "شهر ومشيت..لقيت ابن أخاها بيتصل بيا..قال لي الحق.. المعلمة إتجوزت، إتجوزت إزاي؟! دي على ذمتي.. طب لما هي عايزة تتجوز رجعت لي ليه؟ قلت له إنت كداب، واتصلت بمأذون بلدهم راجل محترم اسمه الشيخ محمد، قال لي: هي جاتني عشان أكتب لها وأنا رفضت، بس عرفت إنها كتبت في مكان تاني".

إزاي؟

"راحت بلد تانية وكتبت عند مأذون ما يعرفش الحكاية، والمأذون كتب.. واتقيّدت الوثيقة في سجل الأحوال المدنية في 2007 ما أنا رحت جبت الوثيقة.. ولاد الحلال طلّعوها لي من المحكمة..من الميكروفيلم.. خدتها وأنا مش مصدق اللي حصل..قلت بلاش فضايح..رفعت عليها قضية طاعة، قلت يلموا الموضوع ولما تجيني أطلقها وتروح لحالها تعمل اللي تعمله..الله يباركلها..ما أنا بنتي عروسة صحيح عندها 13 سنة بس تشوفها تديها 20 ومسيرها هيجيلها ابن الحلال..هاقول له إيه..أقول أم بنتي اتجوزت واحد تاني وهي على ذمتي؟"

وبعدين؟

"ما فيش..وكأن الطاعة ما حصلتش، وإخواتها محدش قادر عليها.. قلت ما فيش غير حل واحد..إني أرفع عليها قضية زنا".

تركت الرجل يلملم أوراقه التي فرشها أمامي وهو يدلل على صدق حكايته.. تركته يلملم معها دموعه بكبرياء يحاول التمسك بآخر خيوطه.. تركته يقول، وأنا معه: حسبي الله ونعم الوكيل.

3 ضحايا لـ 3 قصص خيانة (*)

كل واحد منهم وجد نفسه في المشكلة.

وحين حاول حلّها بالطرق المشروعة..فشل، وحين كرر..اكتأب، وحين طلب المساعدة من الأقارب..خسر أرضًا كان يقف عليها.

3 قصص لمشكلة واحدة. اعتدنا أن نضع أيدينا على أذننا حتى لا نسمعها، على أفواهنا حتى لا نتحدث عنها. لأننا "أحسن ناس".. و"كله تمام".. ولأن المشكلة حساسة جدًّا، حارقة، فهي عن الخيانة، خيانة المرأة..الأم..الأخت..زوجة الأخ.

هل لديك حل؟

(*) أجريت المقابلات في الزقازيق ومصر الجديدة و6 أكتوبر.

1

علا: فتاة رقيقة لم تتجاوز بعد الـ 23 سنة من عمرها.. تسكن المدينة.. وتعيش فيها، مشكلتها التي بدأت منذ 6 سنوات تقريبًا.. تتلخص في.. رغبات الأم وطناش الأب ولامبالاة الأخ ومطالبة الثلاث لها أن "تتعايش " و"تتعامل" و"تنسى" وإلا، وإلا..ستدفع الثمن.

وهي دفعته..غضب ثائر من الجميع، خروج من أولى معهد خدمة اجتماعية، حرمان من المصروف، معاملة سيئة. أضف على ما سبق..توترًا وقلقًا وخوفًا من سخط ربنا على البيت.

صوتها مهزوز..أسألها..إزاي؟..لماذا كل هذا؟

فترد :"المشكلة في صاحب أبويا".

ماله؟

"بييجي عندنا البيت ".

طب وفيها إيه يا علا؟

منذ 4 سنوات وصديق والدها يدخل البيت..ومنذ 4 سنوات وهو ينام مع الأم..يقتسم معها نفس سرير الأب /الصديق.

معقول؟

صمت..وخوف ويأس وعجز..الأب يعرف؟

"وقفت للراجل ده عشان ما يدخلش البيت..حاولت أكتر من مرة.. طردته..قفلت الباب في وشه..بس..".

بس إيه يا علا؟.."أمي عايزاه..بتضربني بالجزمة وتطردني من البيت.. حاولت أتكلم معاها بالراحة..و.."

قولتيله؟ "جابني وجابها وجاب صاحبه..واجهنا مع بعض..طلعوني أنا الغلطانة..مرة أبويا شافهم..".

دموع..

اهدي طيب.. "أهدى إزاي؟.. إذا كان أبويا سايبهم وضربني.. عشان بعت له..قال لي..والله إن ما قعدتي ساكته لأمشيكي من البيت، وطلعني من المعهد".

وأخوكي؟ "أخويا بيسكتوه..عنده 18 سنة، مخلص دبلوم صنايع، وشغال على عربية..أمي بتديله فلوس..وتعاملة كويس، وهو مش عايز يجرى له اللي بيجرى لي".

دموع..ومرة أخرى اهدي.

"أهدي إزاي ومعاي واحد في البيت عنده 3 سنين اسمه على اسم أبويا..ما جاش غير لما دخل الراجل ده بيتنا، الفرق بينه وبين أخويا 15 سنة..إزاي قول لي..أنا عايزة حل".

روحي لأهل والدك..والدتك؟

"هاااأ..رحت..بقالي 4 سنين بروح، والرد واحد ما نقدرش نقف لأمك..وفي كل مرة باخسر، هو مين الغلط أنا ولا هُمَا؟ دا حتى الولد الوحيد اللي أنا حبيّته وحكيتله على الموضوع ووافق على أنه يتقدم لي وقلت خلاص أسيب لهم البيت..رفضوه، قالوا له ما عندناش بنات للجواز، بيعذبوني ".

2

القصة الثانية..ضحيتها "لمياء "، بيبي سيتر..المهنة التي تعمل بها في إحدى الشقق بعد عام من تخرجها في معهد فني.

الوالد متوفٍّ منذ سنوات طويلة، والأم أيضا..لديها أخ واحد..متزوج ويعول 3 أطفال..تعيش معهم!

عادي..بتحصل في أحسن العائلات، لكن اللي مش عادي ما قالته لي لمياء :"أخويا سواق تاكسي..بيحب مراته بيحبها أوي..ودي المشكلة".

إيه المشكلة إن الواحد يحب مراته؟ "بتخليه يشتغل يمكن 15 ساعة في اليوم.. طلباتها ما بتخلصش.. تشوف "تايير" "عباية" لابساها واحدة صاحبتها.. عايزة زيّها.. وهو يشتغل ويجيب.. بس مش عايزة تقطع علاقتها مع المدرس".

مين المدرس؟ "مدرس ابنها بيجيلها البيت عشان دروس وكده..و.."

و.. إيه يا لمياء؟.."بينام معاها ".

أنت شوفتي بعينك الكلام ده؟ "شفت..كانت بتطلّع الولاد يقعدوا معايا في الصالة..وتدخّل والمدرس معاها أوضة النوم ".

وأنت بتسيبيها كده؟ "أعمل إيه؟ لو قلت لأخويا مش هيصدقني، وهى مش سهلة ممكن تقول له أي حاجة يطردني من البيت، المشكلة أنها بتقول لي على كل حاجة عن علاقتها بالمدرس، كل اللي بيحصل في أوضة النوم بتحكيهولي ".

معقول؟ "أيوه على أساس إن أنا صاحبتها.. هي يعني بتقول في نفسها إنها تقول لي كل حاجة علشان تضمن إني ما أقولش، وما أقعدش أقول لها غلط ".

بشيء من اليأس..بإحباط.."مش عارفة أعمل إيه.. أنا خايفة من ربنا أوي".

ما زالت لمياء تحتفظ بحيرتها..كل يومين تلاتة تحدثني عن نفس المشكلة.. تحكي لي واقعة جديدة..مشهدًا حدثًا في البيت ووقفت أمامه عاجزة.

3

هل ما زالت لديك القدرة على القراءة؟

عن نفسي لم أعد قادرا على الكتابة..لكن بقيت قصة..أختصرها لك.. فهي خاصة برجل..هو الضحية هذه المرة..تزوج وسافر لبلد عربي.. عاد..وسافر.. وهكذا حتى أصبح عمره 45 سنة..عمل الشقة وجاب

العربية واشترى حتة أرض.. وكوّن شركة هندسية صغيرة..ولأنه يحب زوجته كتب لها كل شيء.

آخر مرة.. آخر سفرية.. عرف أنها تخونه في شقته.. على سرير نومه واجهها.. اعترفت! هو عايز يطلقها..بس كل حاجة باسمها. عايز ربنا.. بس كمان عايز الفلوس. مضى 5 شهور وهو كما هو.. والخيانة أيضا مستمرة.. والاعتراف لا يزال يسمعه! أقولك حاجة: لا تعليق.

أستاذ جامعي.. يبحث عن بناته من 18 سنة (*)

الحكاية أقرب لنكتة..ومن النكات ما هو مؤلم ومزعج ومثير للشفقة.. خاصة إذا كان بطلها إنسانًا.. ذاق مرارة النكسة قبل أن يستطعم حلاوة النصر، هو ذاته أستاذ في الجامعة..له تلاميذ وعشاق ومريدون.

الحكاية النكتة تقول: "مرة واحد راح منحة أمريكا ورجع بعد 3 سنين بالدكتوراه مالقيش بناته ومراته في البيت، وبقاله 18 سنة بيدوّر عليهم". بايخة.. مش كده!

سلّم على زوجته قبّل ابنتيه، وعلى باب الشقة اقتسم معهن.. "لا إله إلا الله / محمد رسول الله"..أسابيع قليلة قضاها في أمريكا..ومع أول اتصال له ببيته..بأسرته..بزوجته وابنتيه..توقفت المسألة عند جرس يرن.. ولا أحد يرد.

(*) أجريت المقابلة في القاهرة.

ومع تكرار المحاولة..لا جديد.

أسابيع قليلة..ويستمع "هذا الرقم غير موجود بالخدمة.. من فضلك تأكد من الرقم المطلوب..هذه رسالة مسجلة"!

يتصل بالجيران..الجميع يؤكد "مافيش حد في الشقة"، يطلب الأهل "مانعرفش عنهم حاجة".

إيه اللي حصل بالضبط؟

سؤال لم يجد له إجابة حتى الآن.. يقف أمامه منذ 18 عاما تقريبا..منذ عام 1992 وحتى الآن وهو يبحث عن إجابة..والنتيجة:

لا شيء!

يحكي: "كنت سايب بنتي الكبيرة مخلّصة آداب إنجليزي، والصغيرة كانت بتدرس في مدرسة هاي كلاس لما رجعت مالقيتش حد في البيت.. التليفون متغيّر، البيت فاضي.. السكان مش عارفين حاجة، حسابي ملغي في البنك، ومعاشي متحوّل لبنك تاني بالتوكيل اللي كنت عامله لمراتي، دخلت الشقة لقيتها على البلاطة..حتى صورى وأنا ضابط مافيش ".

ثم..، "لما مراتك تسيب البيت وتمشي..تعمل إيه؟، طلقتها غيابيًا.. ألغيت التوكيل الرسمي اللي كنت عاملهولها..بس كان لازم ألاقي البنات".

ولقيتهن؟ "لأ رحت لخيلانهن قالولي همّا كويسين، ماتقلقش، يعني إيه ما أقلقش؟ دول بناتي..عايز أشوفهم..ماوصلتش لحل معاهم ".

وبعدين؟ "من ساعتها وأنا مش عارف أوصلهم. 18سنة ومش عارف أشوف بناتي..طب أرفع قضية عليهم علشان أشوفهم، الناس تقول عليّا إيه؟..أنا راجل محترم..ودكتور في الجامعة..ماينفعش..شكلي قدام الطلبة هيبقى إزاي؟..وما ينفعش كمان أحطهم في الموقف ده..صعب أوي".

هل يعقل أن تترك زوجة بيتها بدون سبب؟

هل يعقل أن ترفض ابنة – أي ابنة– رؤية والدها، بدون سبب؟

من المؤكد أن هناك سببًا قويًا..أسأل..وهو يجيب :"والله ما أعرف سبب، كل اللي عرفته من أختي أنها افتكرت أني اتجوزت عليها قال.. عشان أجيب الولد، طب بذمتك يعني هل يعقل إني أكون بفكر بالطريقة دي، يمكن تكون اضايقت عشان طلقتها غيابي..بس أنا مالقيتهاش..كان المفروض أعمل إيه ".

تخونه دموعه..يفقد السيطرة عليها.."سألت عنهم في كل حتة.. في سنة 2000 عرفت بالمصادفة أن الصغيرة عندها امتحان، رحت لها الجامعة،.. سألت عليها..قالوا لي "مشيت"، ومن الإنترنت عرفت في الفترة الأخيرة أن الكبيرة شغالة مضيفة على خطوط إحدى شركات الطيران، وأنها اتجوزت ".

يصمت قليلا.. ثم ينفعل.." مش عايز حاجة غير إني أشوفهم.. أشوفهم بس، هما لو عايزين أي حاجة أنا أعملها لهم، أنا عندي القلب، ووارد إني أموت في أي وقت، نفسي أشوفهم قبل ما أموت "!

نفسه!

ز ن ا الـ م ح ا ر م (*)

تخيّل نفسك.

آسف.

التخيل في حد ذاته مرعب، والمطالبة به - هنا - أمر صعب. فالجريمة التي ارتكبها الشباب الثلاثة.. لم تكن مجرد جريمة.. ليست تحرشا.. ولا اغتصابًا ولا قتلا.. ولا تجارة مخدرات. ومن الصعب أن تسامح نفسك إذا تعاطفت مع أي واحد منهم مهما كانت مبرراته..لأنها جريمة شرف.. اعتدنا على اختصارها في "8" حروف.. "ز ن ا م ح ا ر م".

ثلاث قصص عنها تتلاقى في مناطق تبتعد في أخرى، لكنها في النهاية تؤكد أن الفرق بين وقوع كارثة ووقوع حدث عادي خيط رفيع..فى غفوة ينتقل البني آدم من هنا إلى هنا، وحين يفيق يكتشف، أن خلفه تقف كارثة.

(*) أجريت المقابلات في القاهرة.

الاعترافات أمامك كما هي..بشوكها وخوفها وقلقها وندمها وظروفها ومقدماتها وتهورها وأحلامها وواقعها المؤلم..اقرأ وادع معنا بالستر، إنه الدرع الواقي في زمن كاد أن يتلاشى فيه الخيط!

1

كيف يقابل الآن صلاح أخته بعد أن جمعهما سرير واحد؟وكيف يستقبل محمد أخاه بعد أن عبث بجسد ابنته؟ وكيف يضع عصام عينيه في عيني خالته وهو الذي أجبرها على النوم معه؟

ثم ما الذي دفعهم للمجيء إلى هنا؟ كيف تقوى أقدامهم على دخول ستديو إحدى القنوات الفضائيه ليسجلوا اعترافاتهم – الكارثة– بهذه السهولة؟

الإحساس بالذنب؟ أم الاحتياج للفلوس؟

أسئلة كثيرة..تتصارع في عقلي..تتخانق..تلهث بحثًا عن إجابة منذ أن أخبرني أحد الأصدقاء بوجودهم للاعتراف بجريمة لم تحرر رسميًا في محاضر الشرطة، ولا يعرف تفاصيلها الحقيقية سوى الضحايا والشباب الثلاثة.

طلبت مقابلتهم، بعد أن رفض البرنامج التسجيل معهم، وبعد تردد ومفاوضات، وافقوا على الحديث، إنها الموافقة التي سبقت عاصفه من

الدموع، وتشنجات وإعلان ندم..ربما، أو الادعاء بالندم.. جائز، مع مجموعه من التفاصيل الصادمة التي تتسلل من كل حكاية في سهولة ويسر حتى تحدث الكارثة.

البداية مع محمد وحكايته مع ابنة أخيه.

2

غريب أمره! إنه يؤكد على أنه يحبها..يصر على ذلك، ولا يخجل من الإعلان عنه والتأكيد عليه كل كام جملة.. ألا يعلم أن ما يقوله حرام؟ ألا يعي خطورة أن يحب بنت أخيه وينام معها؟

كارثة أتركه يجمع تفاصيلها..يلتقط واحدة من هنا وأخرى من هناك ليرسم صورة قبيحة لحب حرام بقوله : "أخويا أكبر مني عنده 45 سنة، شغال بره مصر..فى دولة عربية..والبنت أدّي في السن بالظبط، زميلتي سنة بسنه دراسية، كانت معاى في إبتدائي وإعدادي وثانوي، ماكنتش بامشي مع أي حد غيرها..، أيام ثانوي..كنت بذاكر معاها، في ثانويه عامة جبت مجموع أعلى منها كنت ناوي أدخل جامعه الزقازيق.. دخلت تجارة بنها عشان أبقى معاها ".

وبعدين؟ أسأله..يصمت، ثم يعود مرة أخرى إلى القصة التي كان يحكيها: "..كنت أنا وهي عايشين حياة مستقلة بمعنى أصح، وفي يوم كنت سهران بره مع صحابي ورجعت متأخرًا، كتير بأرجع متأخر..أنا

معاي مفتاح البيت إحنا بيتنا دورين، الأول عايش فيه أنا وأمي وأبويا وهما كبار في السن، والتاني شقه أخويا ومراته، بس هي كانت دايما تقعد مع أمي على طول، بتعمل أكل..تنضيف الشقه وكده، وفي اليوم ده دخلت البيت كانت الساعة 1 الصبح..لقيتها نايمة على السرير بتاعي.. ناديت عليها عشان تطلع فوق..صحيت..قالت لي أنا مش جايلي نوم.. قعدنا أنا وهي، فتحنا التليفزيون، وقعدنا نهزر مع بعض..لقيت إيدي غصب عني لمست صدرها، قالت لي فيه إيه يا محمد؟..قلت لها لأ ما فيش حاجة..باهزر معاكي".

يتلع ريقه..يصمت..يكمل: "إحنا طبعا كنا قاعدين ع السرير قدام التليفزيون، هزرنا تاني..وفـ المرة دي.. لقيتني فوقيها بابوسها و. بامارس معها ".

أساله..وهي ما اعترضتش؟..يجيب :" ما اديتهاش فرصة تعترض، بعد نص ساعة تقريبا، فقت..لقيت نفسي غصب عني باعيط وهي بتقولى.. ازاى عملت كده؟، مش عارف أرد أقولها إيه؟ كل اللي قلت له بعد شوية اوعديني ما تجيبيش سيرة لحد قالت لي.. ماشي، المشكلة إنها ما بقتش بنت..بسأل ناس صحابي على دكتور..عايز أوديها بس مش عارف أوديها لمين؟

حدثت الكارثة..لكن بقيت علاقه محمد بأخيه وابنته كما كانت؟ هو يقول: "اتصل كام مرة أخويا وأكون في البيت ما أردش، هو بيعاملني زيي

زيها، ..وبيبعتلي حاجات من الخارج..هدوم وفلوس برضه، ودى أكتر حاجة محسساني بالذنب".

وعلاقتك بيها؟

"باروح معاها الجامعة، بس ما بقدرش أكلمها، أنا بحبها، هي بنت أخويا بس بحبها، أنا لحد دلوقت مش عارف عملت كده إزاي؟!

3

مندفع.

يبكي بسرعة..ويضحك بنفس السرعة، ينتقل من هنا إلى هنا في غمضة عين، منذ دخولنا المقهى وعيناه تتلفت يمينًا ويسارًا، يضع رأسه بين كفي يديه..ثم فجأه ينظر للتليفزيون..وفجأة يدخل في نوبة سرحان.

عم صلاح..خليك معاي بس شوية؟ أقول لها له، يطلب سيجارة.. يشعلها، ويطلب أخرى قبل أن تنطفئ الأولى بعد أن ألقاها على الأرض.. الآن يتكلم :"أول مرة أشرب سجاير في 3 ثانوي، اتعلمت في السنة دي حاجات كتير..شربت بانجو وبيره وحشيش، أبويا متوفٍ..أمي متجوزة واحد تاني، معاي أخ شقيق بيشتغل مع جوز أمي.. ومعاي "سهام" أختي من أمي، عايز تعرف إيه؟"

أنهى جملته بسؤاله لأضع أنا سؤالي.. نمت مع أختك؟يسرح..أكرر السؤال مرة أخرى..يلتفت لي. يحكي بعد أن خرجت منه دمعة شاردة:

"كان مرة أخويا عليه وردية، وأمي كانت نايمة، وجوز أمي في الشغل، دخلت عليّ "سهام" -أخته - أوضتي..، الأوضة دي ببات فيها أنا وأخويا.. كنت يومها جايب سيجارتين بانجو ملفوفيين من صاحب ليّ اسمه "إسلام"، ولعت واحدة في الأوضة.. دخلت عليّ، قالت لي إنت بتشرب إيه؟ قلت لها سجاير، قالت لي..لا دي مش ريحة سجاير، سجاير..مش سجاير، قالت لي والله لأقول لأمك، رحت قمت..ومسكتها بسرعة وأنا مضايق وضربتها بالقلم، أول مرة أمد عليها إيدي، لقيتها سكتت..حطت إيدها على خدها، ودموعها نازلة، هى لما بتعيط مابتعملش صوت، اضايقت جدا..مسكتها، وقعدتها على السرير، قلت لها..معلش مكنش قصدي، وهي ساكتة، حضنتها، فضلت حاضنها كتير، وبدل..ماعرفش اللي حصل بعد كده".

إزاي يعني؟ يطلب سيجارة أخرى، يشعلها من سيجارته السابقة، ينظر للأرض.."فضلت ساكتة، جسمي سخن أنا مش عارف إزاي، نفسها لسعني، بوستها، وهي ساكتة، وحصل اللي حصل".

وبعد كده؟

مساحة صمت.

طب..وهي؟

بسرعة :ساكتـــــــة.

4

ليست لدي قدرة على كتابة القصة الثالثة، أقولك: عصام اغتصب خالته وبس.

بس.

نفســي أبقى ولـــــد(*)

تحية طيبة وبعد.

اسمي "منى"، في البطاقة النوع .. أنثى، عمري 23 سنة، حكايتي بدأت من وأنا عندي سنتين.. إزاي؟ هقولك.. عمر سنتين هو بداية كل طفل إنه يستوعب اللي حواليه بطريقته، أنا استوعبت إني بنت بس مش عايزة أكون بنت ولازم أبقى ولد.

وحبِّيت نفسي في شكل الولد، ومقدرتش أكون غير كده. لما دخلت المدرسة الابتدائية قربت لمصاحبة الولاد، وكانوا بيعاملوني على إني صاحبهم، وكانت البنات بتحبني وبتبعت لي جوابات غرامية، ويجيبوا لي حاجات حلوة.

في الوقت ده، والدي كان مريضًا بالقلب، وهو صاحب محل، وطبعًا لازم المحل ده يفضل مفتوح، ماما كانت بتنزل تساعده، وأنا مكنتش

(*) أجريت المقابلة في الإسكندرية.

بحب ماما تنزل المحل، فاتعلمت الشغل.. وساعدتها، ولما بابا نزل ولقاني كده..شيّلني مسئولية كبيرة، وهي إني أمسك معاه المحل وأنا كان عندي 8 سنين، كنت بفتح لوحدى واقفل لوحدي، لما المرض بيشد عليه ويقعد في البيت ميقدرش ينزل، وكانوا إخواتي البنات في مدارسهم ومشغولين بالدراسة وفي سن العرايس اللي مينفعش يتبهدلوا فيه، وأخويا أصغر مني بـ 4 سنين، يعني كان طفل أيامها.

المهم، سنة ورا سنة، بقيت أنا المسئول الأول عن المحل والمخازن، أشيل البضاعة فوق كتفي وأروح أجيب بضاعة بعربية جرار بالشولة اللي وزنه ما يقلش عن الـ75 كجم، وأفتح الباب الصاج كل يوم الصبح وأطلع الحاجة برا والعكس بالليل، وفي نفس الوقت اللي كنت ببقى طول الوقت في الشارع، كان عندي هدف إني أنجح في دراستى وأجيب مجموع حلو كل سنة، وده حصل فعلاً، في الابتدائية جبت مجموع حلو ودخلت إعدادي.

كنت حاسس إني بقيت راجل، وكنت بنبسط أوي لما راجل نظره ضعيف كان كل يوم يشتري مني حاجة وينادينى "حمادة"، كان فاكرني ولد، وأنا كنت فرحان ومبسوط.

والغريب أني كنت بحب واحدة ساكنة في وش الدكان، كانت كبيرة، في سن الـ 20 وأنا 8 سنين وعيني مكنتش بتتشال من على شباكها، لأنها كانت واخدة بالها من نفسها ورشيقة وشعرها مصبوغ أصفر وكانت بتلبس قصير والشارع كله عينه عليها، إنما أنا كان بييجي في خيالي إني

أنا كبير وبحبها وبتحبني وكان بيتهيأ لي إننا بنخرج وبنتقابل وبنتكلم في التليفون.

مرحلة إعدادي، كانت مرحلة مهمة بالنسبة لي أوي كان فيها غراميات وحب بزيادة مع البنات لأن المدرسة كانت بنات بس وكل سنة تقع واحدة في غرامي، في سنة أولي إعدادي حبيت م . ن، بنت زي القمر العيون العسلي والشعر الكستنائي وهي كمان حبتني أوي وطول الوقت كنا مع بعض، واما نروّح البيت نتكلم في التليفون لحد ما حصلت بينا مشكلة بسبب واحدة تانية، ولأنها كانت بتغير عليّا جدًا راحت ضربتني بالقلم وده عمري ما هنساه لانه رن جامد أوي على وشي.

هههههههههه.

بعدها، في ثانية إعدادي، ارتبطت بـ ن.ر، ودي بقى بنت دلوعة متربية على العز والدلع، أنا حبيتها ولكن هي مكنتش حاسة، يعني ماكنتش من النوع اللي بيحبني، بس كان بينا صداقة جامدة أوي.

ولما دخلت ثالثة إعدادي، حبيت أ.م، ودي سمراء اللون، عشنا قصة بقى شوية أيام إيه؟ مقولكوش عليها، كانوا مسمّينا ناعسة وأيوب، وفي الوقت ده بقا جت ن.ر، الدلوعة، اللي لسه كنت بتكلم عنها، جات مغرمة بيا بعد ما كرفتها، على رأي تامر حسني "اكرف البنت تحبك.. حب البنت تكرفك"، وكانت كل يوم تعيط، كانت هتموّت نفسها عشان اتغيرت معاها.

... عجيبة الدنيا دي!

دخلت ثانوي بنات، وكانت تراودني فكرة إني ليه بنت مش ولد؟ دخلت الثانوي العام، وأمي وإخواتي وأبويا فرحوا بيا لأني أول حد في الأسرة دي يدخل ثانوي عام، وجه بابا وماما اتكلموا في أنها مدرسة صعبة ولازم لها تفرغ تام، لأن مصاريفها باهظة كمان، فقرروا إني أقعد من الشغل، وأتفرغ للمذاكرة عشان ادخل الجامعة زي ما بيحلمولي، وفعلا.. قعدت، وبعدين أبويا تعب ودخل المستشفى تاني، فنزلت بس مش زي الأول كنت في الفترة دي بجيب أخويا أعلمه أنا بعمل إيه عشان هو يكون مكاني.

نسيت أقولك..

الناس كانوا مسمِّيني الدكر، وكنت وصلت لمرحلة فوق الفظيع في اللبس والطريقة والكلام والمشي والحركات، كنت بعمل اللي بحبه وبس، وفي البنات بقى أوووووووووووه، جت أ.م دخلت مدرسة غير اللي أنا دخلتها فكان عندي تعب جامد من الحتة دي، وإن الحب اللي بينا إزاي يضيع هدر كده؟ومكنش عندها تليفون في البيت ولا بتحاول تتصل بيا من الشارع، فضلت كده أكثر من 3 شهور، نفسي أرجع معاها زي زمان، لغاية ما ظهر بقى الحب الكبير م،ع ودي القصة اللي لسة عايشها لحد النهارده، بقالنا 9 سنين بنحب بعض، وهي تعرف حكايتي كلها، ونفسنا نكون لبعض ونفسنا نحقق حلمنا، وإني أكون اللي هي بتحبه.. الراجل اللي شافته فيا، عمرنا ما فكرنا إننا نوصل لكده.. بس وصلنا، ولو حد جه حتى بالهزار يقول لي أسيبها، أحس إني قلبي بيقف مني وبينزف دم.

أول بوسة شفايف كانت معاها.

كنا بنذاكر مع بعض، وعشنا شوية تسبيل ونظرات عاطفية، كنا في أوضة مقفولة علينا، قمت مرة واحدة بُوستها من شفايفها، هي اللي ارتبكت جامد واتوترت، وتاني يوم قولت لها.. أنا آسف ماتزعليش، قالت لي لأ ليه تتأسف أنا كنت مبسوطة أوي.. أنا بحبك أوي أوي، ونفسي أترمي في حضنك واترمت فعلا ومسكت إيدي باستها من تحت وكتبت لي عليها بصوابعها ب ح ب ك...

الله على حبك إنت!

أول مرة أنام في حضن حد كان معاها هي برضه، وكانت لحظة رقيقة جدا، كنت حاسس برجولتي وكياني لما كنت بلاقيها مبسوطة وطايرة من السعادة ولغاية دلوقتي لما أقولها حاجة أو أمسك إيدها أو آخدها في حضني أو أي حاجة تقولي أنا اتخطفت، وأنا بكون مبسوط أوي لأنك لما تلاقي تصرفاتك مجدية مع البنات تفرح بشبابك.

بس يا ريتها كانت فرحة حقيقية مش في الخيال!

على أد ما كان فيه بنات بتحبني وبتموِّت بعضها عشاني برضه كان فيه اللي بينتقضولي ويجرحوني بكلامهم ويقولولي" إنتي راجل متنكر ولازم تروحي مدرسة البنين مش البنات".

تابعت مع أكتر من دكتور نفسي، وكان همهم الأول والأخير الفلوس، ويبيعولي الكلام وأما آجي أتصل بيهم يكونوا نسيوني، وأبدأ من الأول معاهم، لحد ما اتخنقت وفكرت كتير في الانتحار، والمرة اللي كانت

جامدة ونفذت فيها كنت هموت، ولكن للأسف..ماموتش، حطيت سم في السندوتشات ووقعت في الحمام وأنا قافل عليا الباب بالترباس، لكن والدتي لحقتني وجبتلي الإسعاف ونقلوني المستشفى وعملت غسيل معدة، و بعد ما كنت بودع الحياة.. ربنا ما أرادتش..رجعت لها تاني.

وأنا في عربية الإسعاف بين الحياة والموت كنت مبسوطًا وحزينًا في نفس الوقت، مبسوط.. عشان همشي من الدنيا دي اللي معرفتش أحقق أحلامي فيها واللي أنا مش مرتاح فيها، وحزين.. عشان ربنا غضبان عليا وإني كفرت كفرًا شديدًا.

يارب سامحني.

الولد اللي عايش جوايا نفسه يطلع بقى، أنا مسجون جوه نفسي، ونفسي أظهر بقى تعبت من اللي أنا فيه، نفسي أرتاح يارب.

والدتي لما عرفت، وأنا عندي 19 سنة، ودَّتني لدجالين وجابت لي منهم البيت، بس مافيش فايدة.

كان في الوقت ده، متقدم لي عريس، شافني يا سيدي في فرح ..وكنت لابس جينز..ايه التخلف بتاعه ده ما عرفش.

المهم، كان الشاب اللي ماينفعش حد يرفضه من البنات، والكل وقف ضدي وإني لازم أقبل وأعدى من المحنة اللي أنا فيها بكده وأني مسيري هنسى وأعيش كبنت، مكدبش عليك.. أنا فكرت كتير، وحاولت كتير أكون البنت دي لكن مقدرتش.

اتخطبت 3 شهور، وكانوا أصعب 3 شهور مرت عليا، وأنا مجبر أعمل

حاجة هتوقف حياتى اللي بحبها، لكن وقفت وصرخت بأعلى صوت إني لازم أفسخ الخطوبة، وده كله كنت في ثانية كلية حقوق، ومن كتر التعب اللي أنا فيه سقطت في سنة تانية.. وعدتها.

فضلت م.ع معايا ووواقفة جنبى، لحد ما جه واحد ابن......

زن في دماغها بكلام فاضي، وخدها مني وقوّاها عليا، ولكن كان قلبها معايا، وأنا كنت مجروحًا جرحًا جامدًا أوي، وفي الوقت ده أهالينا عرفوا باللى إحنا فيه وقرروا يبعدونا عن بعض.

في الفترة دي، كنت بكلم بنات وستات من على النت على إني ولد، واتكلمت مع بنات كتير منهن واحدة كانت متزوجة وعندها ولد وبنت وكانت مش طايقة جوزها، ودخلت معايا في حوارات حب وكلام من ده، وكان كل كلامها في الجنس وكانت بتعيشه في التليفون من خلال الكلام لغاية لما تهدى وتقفل، ومرة جت قالت لي..قول لي مبروك أنا اتطلقت يا حبيبي، قفلت موبايلي وإيميلي شهرًا كاملاً لأن هي كده بتفكر في حاجة فوق المستحيل ولما فتحت لاقيتها بتعيطلي وبتقول لي إنت بقيت بعيد عليا أوي، أنا عايزة أشوفك وتعالا لي، طبعا أنا اتاخدت.. أروح إزاي؟

يا لسخرية القدر، لما تتحب وإنت مش إنت..تعمل إيه؟

تاني واحدة هي س.ي، ودي بقى اللي عرفتها الحقيقة، بعد سنة مغامرات تليفونية وشات على النت، ولما لقيتها بتضيع بسببي وهتموت عليا قلت لها..إني مش ولد، وإني بنت، وإني عندي اضطراب الهوية الجنسية.

في الأول ماكنتش مصدقة، كانت فكراني بهزر، وقالت لي صوتك مش صوت بنت ولا إنت مش اللي بيكلمنى في التليفون كمان، قولت لها لا.. أنا بس صوتى كده، مصدقتش غير لما نزلت، وقضت يوم معايا لكنها مبعدتش عني، بالعكس دي قربت لي أوي، كانت بتحاول تساعدني ومرة عرضت عليا مبلغ كبير أروح أديه لدكتور جراحة معين هي عارفاه المبلغ ده كان 15 ألف جنيه، أنا استغربت وقولت لها.. لا طبعا، أنا مش هاخد فلوسك وأضيعها، عشان أنا أفرح بنفسي إنتي أهلك يقتلوكي أنا متعودتش آخد فلوس حد.

لكن ساعدتني في حتة مرواحي المستشفى العام ولأنها كانت ممرضة وعارفة دكاترة كتير، و كانت بتجيب لي أسماء هرمونات عشان آخدها وكانت مستعدة تنزل كل أسبوع تديني الحقن بنفسها، لأن نفسها تشوفني، فارس أحلامها اللي لاقت فيه مواصفات هي بتحبها وده اللي كان بيتقالي من كل واحدة تقرب لي إني أنا الفارس اللي كان نفسها فيه.

للأسف فارس عاجز!

كنت بتردد على القسم النفسي في المستشفى العام اللي ناس كتير رشحتهولي، والناس دي صاحبة تجارب سابقة، فيهم اللي عمل جراحة التحويل من بنت لولد ومن ولد لبنت، وفيهم اللي لسه، ولكن الدكاترة هناك في قمة قلة الذوق اتنين دكاترة ستات لكنهم لا يستحقان لقب دكاترة، كل ما تديني واحدة منهم ميعاد ترجع فيه لحد ما يئست منهم على الرغم من إني كنت حابب أكمل علاجي معاهم وكنت بتعب جدا

لما بسافر القاهرة كل أسبوع من غير ما حد يعرف كان أملي إنهم يدوني تقريرًا طبيًا بحالتي الحقيقة، وهي اضطراب الهوية الجنسية والميل نحو الجانب الآخر والجنس الآخر تساعدني في إجراء الجراحة الحاجة الصعبة أوووووووووي دي، اللي حتى الآن عمري بيضيع مني مش عارف أوصل لها، عشان أكون الراجل اللي الناس حبته واللي هو تعب من حبسته.

ياااااااااه، هو ده أملي في الحياة، بس إزاي أحققه؟

كل الناس شايفة إني لو كنت راجل أو ولد كنت هبقى أفضل من كده، لإني جدع أوي، وهواياتي وميولي ولبسي ومشيتي وطريقتي وكلامي ملهاش علاقة بالجنس الناعم (البنات).

يعني هواياتي الغناء والعزف على الجيتار والكمبيوتر والإنترنت وسواقة العربيات وركوب الخيل وركوب العجل، أما اللبس فأنا بلبس الجينز والكوتشيات والتي شرتات القطن والشرابات القطن والإكسسوار الرجالي (الساعة–الحظاظة– الانسيال الفضة)، دا غير البرفانات الرجالي اللي بحطها، وبحط كمان جل وكريمًا للشعر المبلل.

حتى مشروباتي المفضلة هي مشروبات رجالي.. يعني بحب القهوة المظبوطة والشاي التقيل والنسكافيه والكاكاو والشيشة، وفي الشغل بحب المحاماه وتصليح الموبايلات وإدخال برامج ونغمات وتصليح السوفت وير لاي جهاز كمبيوتر وبعض الهاردوير.

أتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يقف جنبي، ويحقق لي أملي، ويرضى

عني، وأني أعيش الحياة اللي بحبها زي منا عايز. أصعب إحساس لما تدوّر على حاجة وماتلاقيهاش.

تخيل.. الحاجة دي نفسك. يعني تدور على نفسك وماتلاقيهاش.

دماغك إيه..ذكر ولّا أنثى (*)

لا أحب "البدل ".

دائمًا أجدني متوتر إذا إضطررت لارتدائها، في مقابلة رسمية، أو حفل زفاف صديق، لذلك، أتحيّن فرصة الانتهاء لأتخلى عن "الكرافت" فور الخروج، مع ثني أكوام القميص، والإسراع في العودة إلى البيت للعودة إلى "الجينز". ساعات قليلة، مع البدلة، تصادفني 15 مرة بالكثير في السنة كلها، تسبب لي القلق. تخيل، أنك تعيش عمرك كله مسجونًا، ليس في "بدلة" لا تحبها لمدة ساعات، ولكن في جسد تكرهه العمر كله تلك هي القضية الموجودة في رسالة مي السابقة، والتي أرسلتها لي عبر الـ e–mail.

أن يكون عقلك ذكرا وجسدك أنثى. أن تكون دماغك امرأه، وجسمك رجلا.

(*) أجريت المقابلات في المهندسين ووسط البلد ومدينة نصر.

أنهيت منذ دقائق رواية (mam I need to be agirl)، رواية واقعية، كتبتها أم "جيست إيفيلين "، عن تجربتها الحقيقية مع ابنتها التي سجنت 17 عامًا من عمرها في جسد ولد، حتى أجرت عملية تصحيح جنس.

بعيدًا عن تلك الرواية الإنسانية الممتعة، سأقول لك إنطباعاتي الأولى والسابقة عن الذين يجرون عمليات تحويل.

إنهم "سيس"، مش مضبوطين، شواذ، يستحقون الإعدام في ميدان عام، بالضبط مثلما يستحق نفس الحكم الأطباء الذين يجرون هذه الجراحة.

منذ 4 سنوات تقريبًا، وأثناء مشاركتي في إعداد برنامج "الناس وأنا " الذي كان يقدمه الفنان حسين فهمي للتليفزيون المصري ويرأس تحريره الصديق حازم الحديدي – وبسببه أرسلت لي مي الـ –e– mail، طرحنا فكرة "المتحولون "، وبعد البحث والسؤال، كانت لدي قائمة بأسماء عديدة، أجرت الجراحة.

.بمزيد من القراءة، ومقابلة الأطباء، والعديد من الحالات، بدأت أفرّق بين 4 مشاكل جنسية خاصة بالنوع.

1 – مشكلة التوجه الجنسي، وهي التي تدفع أصحابها للميول إلى نفس الجنس، ما يطلق عليهم الشارع.."شواذ "، وما يسميهم الأطباء "مثليين"، الأنثى تميل للأنثى، والذكر يميل للذكر، والأمر يحتاج لاستعداد وراثي، مع بيئة خطأ (كأن يعيش ذكر مع أمه فقط ويتأثر بتصرفاتها وحركاتها)، مع وقوع حادثة (تحرش من ذكر لذكر، أو كراهية أنثى لذكر تدفعها لحب أنثى مثلها).

2 - مشكلة تشوّه الأعضاء، أن تكون الأعضاء التناسلية للذكر مختفية في جسده، غير مرئية أثناء الولادة، يتسرع الاطباء بإعلان أن المولود أنثى، يتعامل بهذا المنطق الأهل، بعد فترة - تصل أحياناً إلى 7 سنوات - يحدث ورم وألم شديد في منطقة الأعضاء التناسلية، مع الأشعات وقليل من التحاليل، يتم اكتشاف أن الأنثى هي في الأساس ذكر، ليتم إجراء عملية التصحيح.

3 - اضطراب الهرمونات، وفيها تكون هرمونات الأنوثة أكبر عند ذكر، أو العكس، مما ينعكس ذلك على الشخص، في صوته، والشعر الذي يغطي جسده و..و...، وهي أبسط المشاكل وأشهرها وأكثرها سهولة في العلاج.

لكن، المشكلة الكبرى، هي اضطراب الهوية الجنسية.

عقل أنثى في جسد ذكر، والعكس.

والموضوع ببساطة، هو أقرب لكارت التعريف الخاص بالكمبيوتر، هل يمكن أن يتعامل أي كمبيوتر مع أي برامج، دون أن تدخل له c.d (كارت تعريف) يؤكد له، أنه كمبيوتر، وأنه مجهز للتعامل مع برامج مختلفة؟

تلك هي القضية.

التعريف الخاطئ للجنين وهو في الرحم، حالة تحدث نادرًا، لكنها تحدث.

لن "أذوشك" بمعلومات طبية، تبدو ثقيلة ومعقدة وتحتاج إلى متخصص،

كل ما أقوله لك، أن الاختلاف بين مخ المرأة والرجل – حسب إجتهادي وقراءاتي – يبدأ منذ تكوين الجنين داخل الرحم، حيث يفرز الجنين الذكر مادة تسمى "التوستسرون"، التي تذهب لمخ الجنين لتقول له إنه ذكر.

الذكور، يمتلكون 20 مرة أكثر من النساء هرمون التوستسيرون.

مشكلة كبيرة جداً، إذا لم يتم إرسال هذه المادة الذكورية إلى المخ، كارثة إنسانية بكل المقاييس.

بعد معرفتي بهذه المعلومات، بالتأكيد، أفكاري تغيرت.

لكن المعلومات الطبية، تبدو مثل الأرقام الحسابية، جافة، القصص الإنسانية أكثر ثراء، وأكثر تأثيرًا.

شروق، واحدة من هذه القصص، أتذكر أنني حين قابلتها أول مرة، وكانت في الطريق إلى إجراء جراحة تصحيح، من ذكر لأنثى، كدت أتقيأ.

المعلومة، أصابتني بالاشمئزاز، لم أكن على استعداد بالاقتناع بأنها أنثى، خاصة أنني رأيتها في ملابس الرجال، في بدلة كاملة، وبدت لي ذكرًا "متنشون"، ذكر "سيس".

وحين رأيتها بعد ذلك، في ملابس أنثى، بدت لي، رغم الـ (mak up)، وطلاء الأظافر، أنثى مسترجلة، أنثى غير مضبوطة.

لكن متابعتي لها على مدى الثلاث سنوات الماضية، كثيرًا ما أثارت

فضولي، وفتح شهية عقلي لمعرفة المزيد، خاصة والكوارث تلاحقها أينما ذهبت.

رغم امتلاكها لجسد ذكر، الأنثى التي تتحكم في عقلها وتقوده، أرهقتها كثيرًا، كانت تدفعها لأن ترتدي "السنتيان" خلسة بعيدًا عن الأهل، ووضع أحمر الشفاه في حجرتها، البحث عن ملابس أنثوية في محلات الـ"لانجيري"، تشعرها بحقيقتها.

في وقت كان كل شيء يتعامل معها على أنها ذكر، الأوراق الرسمية الحكومية، تؤكد لها أنها خالد، سكنها في مدينة الطلاب مع أولاد أثناء دراستها في الجامعة، معاملة أهل قريتها الريفية لها، قبل أهل بيتها.

لقد تخرجت ذكرا، وتم تعيينها في معمل تحاليل على أنها ذكر، والمجتمع والقانون والناس والتقاليد..كل شيء يقول إنها ذكر، إلا عقلها..يؤكد أنها أنثى.

والدتها كانت تنهرها، إذا رأتها تلعب مع البنات، والدها يضربها إذا وجدها تمشي بطريقة فيها ميوعة، زملاؤها يسخرون منها لأن دموعها – مثل كل أنثى– قريبة، ..وعقلها يقول لها: أنت أنثى أنثى أنثى.

كان يدفعها أن تتخلى عن البدلة ليلاً، وترتدي ملابس من في سنها من البنات، وتذهب إلى وسط البلد، بحثًا عن معاكس، عن مغازلة، عن كلمة رجل يخاطب عقلها.

حين صرخت الأنثى، وحين سيطر عقلها، ظلت 5 سنوات في تحد لكل شيء، 5 سنوات ضد القانون والأهل والعادات والتقاليد والناس والأوراق الرسمية.. بحثًا عن اعتراف من الجميع بأنها أنثى.

روتين وبيروقراطية موظفون، من المستشفى العام، وأطباء في الأساس مرضى حتى يمنحوها تقريرا حقيقيًا يقول إنها أنثى، ووقوف في طوابير أمام لجنة الإفتاء، حتى تبدي فتواها – بناء على التقارير الطبية المقدمة – بـ: لا مانع من إجراء عملية تصحيح.

وتحولت. وكانت النتيجة، رفتًا من العمل، مقاطعة من الأهل..وناس فاهمة غلط، ودنيا تشيل ودنيا تحط. وهروبًا. هروب من مجتمع، غير قابل للاقتناع، غير قادر على الفهم، هروب إلى مدينة جديدة عليها تشاهدها لأول مرة، لا تعرف ماضيها، ومن لوكاندة إلى بنسيون، من مدرسة رياض أطفال إلى مترجمة في مركز ترجمة، ومن كل ذلك إلى إفلاس، ومنه إلى عودة إلى الأهل.

حالة رفض تام لما حدث من الأهل، رفض يتحول إلى سجن حيث لاخروج لها من حجرتها، ممنوع أن يراها الضيوف، ممنوع الخروج.. ممنوع فتح الشباك..الأكل في المطبخ..اللي عايز يتسمم يتسمم، ما فيش كمبيوتر ومسخرة، من الآخر..أكلك ونومتك، لحد ما تموتي أو نموت إحنا.

هروب، من شخص أحبها، بعد ما اقتنع أنها أنثى، وهي أحبته بعد أن شعرت بأنوثتها معه قبل أن تشعر برجولته، فضلت الهروب على أن تقول

له الحقيقة، لقد قالتها لمحب سابق، وهرب و لم تره، تهرب هي بإرادتها هذه المرة.. أفضل من أن يهرب هو ويسبب "كولكيعة" نفسية أخرى.

هروب، ومحاولة انتحار، في جيم مستمر..يبدو أن مراحله لا تعرف "game over ". ومن شروق إلى مي، صاحبة الرسالة، لا اختلاف. عقل رجل في جسد أنثى..قمة الألم.

جملة أخيرة، أستعيرها من مي، الولد الذي يسكن جسد أنثى : "أصعب إحساس لما تدوّر على حاجة وما تلاقيهاش، تخيل إن الحاجة دي نفسك، يعني تدور على نفسك وماتلاقيهاش، ويضيع عمرك هدرًا".

خمّن أين يذهب الأطفال (*)

وزارة الداخلية/ محضر تحقيق.

فتح المحضر بتاريخ ... الساعة 11 مساء.

س: ما تفصيلات بلاغك؟

جـ : اللي حصل اليوم.

عند رجوعي من عملي حوالي الساعة 9 مساء، وعند دخولي الشقة محل سكني تبيّن عدم وجود أولادي الأطفال وزوجتي والمنقولات الزوجية خاصتي، وبالاستعلام من الجيران قالوا: إن زوجتي أخذتهم اليوم.

س: ما سبب قيام المشكو في حقه بعمل ذلك؟

جـ : علي إثر خلافات زوجية.

س: ما هو اسم وعنوان المشكو في حقه؟

(*) أجريت المقابلات في القاهرة وفيصل و15 مايو.

جـ : اسمها / يسرا، وما اعرفش هي فين حاليا

توقيع/ أحمد...

وأُقفل المحضر في ساعته وتاريخه عقب إثبات الحالة.

البطل: أحمد ...

قصته مثل فيلم عربي، الفرق الوحيد أن الأفلام العربي تبدأ بخناقة وتنتهي بقبلة، أما قصته هو فقد بدأت بالقبلة ووصلت الآن لأن يبحث عن أولاده وزوجته في شوارع القاهرة.

لنسميها.. قصة هبوط.

... شاب يتزوج.. ينجب أطفالا، يطلّق زوجته، أهله يتخذون منه موقفًا مضادًا، يقرر ترك مصر بكل ما فيها

1980، العراق، الشاب يبحث عن عمل.

1986.. الشاب يستقر.

1990.. يمتلك مصنعا صغيرا لعلب الذهب، مصنع به 12 عاملا. من بينهم يسرا.

1998، أحمد يرتدي بدلة، يسرا بفستان أبيض.. وزفاف يحضره الأصدقاء.

كل ما سبق كان «أفان» تتر، والمشهد الأول في القصة يبدأ من 2003، بالأدق.. قبل الغزو الأمريكي بـ 6 شهور، معظم البنوك تعلن إغلاق

أبوابها، الباقي يفرض السحب المحدود علي عملائه، الجميع في وضع صعب.. وأحمد واحد من الجميع.. أغلق المصنع لا فلوس، لا عمل.

«لو تقدر تمشي.. امشي». نصيحة له من أحد الأصدقاء.

18 مارس 2003، السادسة مساء، أحمد، بعد أن جمع ما استطاع أن يجمعه، ومعه زوجته الحامل، وابنته، على الحدود.. إنه يغادر بغداد.

فجر 19 مارس أمريكا تدخل العراق.

القاهرة 20 مارس. شقة متواضعة تضم الأسرة.. لكن عائل الأسرة بلا عمل. شهر آخر، الأسرة في مدينة أخرى، بعد أن انضم إليها.. المولود الجديد، والفلوس لا توجد، ورحلة البحث عن عمل مستمرة.. بعدها نرى المشاهد التالية:

أحمد في فرن بلدي، يعمل مقابل 5 جنيهات في اليوم. أحمد في محل فراشة، يعمل من 10 صباحا حتى 10 مساء، والمقابل10 جنيهات. أحمد ينصب فرشة خضار بالقرب من المجاورة 4، وآخر النهار يدخل البيت بـ 25 جنيها. والحياة تبدو أفضل.. أكثر استقرارا. حتي ظهرت نوجا.

نوجا هي الجارة، هي ابنة لرجل ضرير، وسيدة مسنة، وهي أيضا في نفس سن الزوجة.. السن 33 سنة، لكنها لم تتزوج.

والعلاقة بدأت طبيعية، رجل ضرير.. يخرج من بيته، يساعده صاحب «فرشة» الخضار في عبور الشارع.. في الذهاب إلى المسجد، وفي الطريق.. تبدأ الحكايات، وتتحول الحكايات إلى صداقة، وبصداقة الأب

الضرير بالزوج.. تبدأ صداقة البنت بالزوجة.

من بعيد تفوح رائحة عفنة عن «نوجا» وأختها، فقد والدهما بصره، وفقدت والدتهما صحتها، وكسبت الأثنتان مع الحرية سمعة سيئة.

ونتيجة صداقة نوجا بزوجة أحمد، بدأت الخلافات تدب بين الزوج وزوجته، تعلن الزوجة إحساسها بالملل، وعدم قدرتها على الحياة بهذا الشكل، ويطلب الزوج شوية صبر، فالحياة في طريقها للتحسن.

.. وتحسنت الحياة بقطع علاقة نوجا بالزوجة، تحسنت بزواج «نوجا» نفسها وانتقالها إلى الحياة في «القاهرة» بيتها الجديد.

مرت شهور، دخل رمضان، نحن الآن في 2008. والتليفون يرن.. «نوجا» تتحدث مع الزوجة، «نوجا» تعيد العلاقات.. «نوجا» تعرض: «ما تجيبي العيال وتيجي تقعدي يومين عندي»..

«نوجا» تلح.. يزداد الإلحاح.

وفي العيد.. تأخذ يسرا العيال وتذهب إلي الصديقة «نوجا»، لقد وافق الزوج أحمد، أسباب الموافقة متعددة، أولها وأهمها وأبسطها، أن زوجته عراقية. يعني ما لهاش أهل هنا، وهو علاقته بأهله مقطوعة من زمن.

ذهبت الزوجة، ذهبت يوم الخميس، اليوم الثالث، ربما الرابع، من العيد، والاتفاق بينهما واضح. هو أن تعود يوم الأحد، وأن تترك الولد معه وتأخذ البنتين علي أن تعود يوم الأحد.

الأحد الولد يبكي. الزوجة الأم لم تعد، الأب يتصل بها.. هي ترد «هاجي بكره.. ما جتش من يوم». الاثنين.. تأتي الأم، ينشب خلاف بينها وبين زوجها و«طلقني». «نوجا». تتصل، الخلافات تزيد و«طلقني»! 3 شهور من الخلافات. و «أنا طلاق مش هاطلق عشان مش هاسيب العيال يتبهدلوا.. ومافيش «نوجا» دي تاني». والأم تضرب الأولاد، «نوجا» تتصل والأم تترك البيت تأخذ معها إحدى البنتين وتحديدًا الصغيرة. والزوج يذهب إلى قسم شرطة 15 مايو ليحرر محضرا بغياب الزوجة في 2010. 5 شهور مضت، والزوجة لا تريد العودة، والزوج يريد أن يصل لعنوانها ولا يعرف. الوحيدة التي تعرف «نوجا». والوحيدة التي تعرف عنوان «نوجا». هي أختها، وأختها لا تريد أن تقول عليه، والمحضر الذي حرره من قبل تم حفظه إداريا، وهو لا يستطيع أن يترك «أكل عيشه»، ففي رقبته طفلان، يقسم يومه بينهما وبين «فرشة» الخضار. والسؤال عن الزوجة وعن ابنته ما زال مستمرا. حتي ظهر «حامد»، طرف آخر في القصة، و«حامد» يعمل بالخارجية، مطلّق، يسكن في نفس المدينة الأخرى. جاء «حامد». ليخبر أحمد أنه رأى زوجته، قابلها في «الخارجية» وقد تخلت عن النقاب، قابلها وهي تسعى لأن تستخرج أوراقا رسمية تؤكد أنه خارج مصر، وتحاول استخراج قسيمة تثبت زواجها منه، والهدف الطلاق.

هذا ما قاله حامد له فقط.

وخارج هذه المقابلة، حامد بدأ يحكي قصصا أخري. الكلام ينتشر، والزوج يسمع، ثم يترك المنطقة كلها هاربا من الكلام، ويترك «فرشة»

الخضار، وتبدأ رحلة البحث عن عمل آخر مع البحث عن الزوجة، وفي رحلة البحث يذهب بصورتها إلى جريدة الأخبار، التي تضعها تحت بند «مفقودين». وتظهر الزوجة، ويطلب الزوج تدخل رجال الدين، وحدث ويجلس الجميع في المسجد. وبدأ التفاوض، هو يطلب أن تتنازل له عن الأولاد والمقابل طلاقها، تفاوض يقبله الأطراف.. لكن القانون لا يعترف به، لا يوجد أي نص من نصوصه فيه تتنازل الأم عن أبنائها.

والحل.

رجال الدين، يقترحون أن تعود إلى منزلها تربي أولادها، وهو ينام في الجامع، أو يجد له منزلا آخر. وتم الاتفاق، ووجد هو عملا، حارس أمن، يخرج مساء، ويعود في الصباح إلى أولاده ـ وليس الجامع ـ وهي تخرج في الصباح وتعود في المساء. ولا أحد فيهما يعرف أين يعمل الثاني. هي لا تريده وهو لا يريدها. والاثنان يريدان الطلاق، والأطفال في المنتصف. أيام مملة، لا تخلو من الألم، ولا ينقصها الكره المتبادل، الذي وصل كثيرا إلي شجار سمعه الجيران، وسجلته محاضر الشرطة.

وفي 3 يونيو 2010، عاد ولم يجدها، ولم يجد عفش البيت أو الأولاد، ولا يعرف لها عنوانا. والبحث عن الأولاد مستمر. والنهاية لم تكتبها الحياة بعد. والسؤال هو: أين يذهب هؤلاء الأطفال في هذه القصة؟

ملحوظة: نوجا، وحامد ـ ضيفا شرف القصة ـ اسمان وهميان.

"ونختم القول قاصدين
مدح النبي سيد تهامة
من شرف الكون بالدين
والمعجزة والكرامة"

ابن عروس

نشرت هذه التحقيقات والحوارات في مجلتيّ "الإذاعة والتليفزيون" و"إحنـا"وفي جريدتيّ "الخميس" و"عين" (2004 – 2010).

المؤلف في سطور

أحمد عطا الله

- مواليد 10/ 11/ 1980 قنا.
- ليسانس آداب / صحافة 2002 .
- كاتب وصحفي في مجلة الإذاعة والتليفزيون .
- يكتب مقالاً ثابتًا في مجلة "إحنا" الشبابية.
- عمل وكتب في صحف:

صوت الأمة - عين - مجلة أكتوبر - الخميس - الأخبار - الغد - مجلة الشعر - اضحك للدنيا - وغيرها.

- أعد برامج :

الناس وأنا (حسين فهمي) - التليفزيون المصري والأوربيت والـ(show time).

المخرج (ساندرا نشأت) - التليفزيون المصري .

لأجلك فلسطين (منى عبدالغني) - قناة القدس.

- كتب وقدم وأعد الفيلم التسجيلي "الأرض الغاضبة " - قناة الجزيرة 2010.

- شارك في كتابة العرض المسرحي "بعي" - عرض في الأوبرا 2010.

صدر له:

- "دم العروسة"، (أشعار بالعامية المصرية) - دار أثيل، القاهرة، 2002.

- "صعيدي في الجنة و3 في النار"، دراسة عن النكتة الصعيدية ومقالات ساخرة، كنوز للنشر، القاهرة، 2006.

- "4 بوسات"، (أشعار بالعامية المصرية)، دار كنوز، القاهرة، 2007.

- "الحتة بتاعتي"، "مقالات"، دار ليلى، القاهرة، 2009.

- له تحت الطبع "فاطمة وجرجس: الحب في زمن الفتنة".

البريد الإلكتروني :

ah3at@yahoo.com

الناس دول

تختفي العبارة الشهيرة "صدق أو لا تصدق"، فكل ما ورد في الكتاب من واقع في الحياة جسدته مقابلات حقيقية. "الناس دول" كتاب يكشف عن واقع يفوق الفنتازيا، واقع تتصارع فيه المشاعر والأفكار والأحلام والخيبات. في حكايات الصحافي الشاب "أحمد عطا الله" سوف تدرك، عزيزي القارىء، أن الخيال "راحت عليه" في سبعة فصول من لحم ودم، يضعها قطعة بجوار قطعة، ليشكل من مسافة بعيدة مربع لعبة "ميكانو".. عندما تدخل إليه تكتشف الجانب الغائب من المجتمع المصري، وتطل على واقع يهزم الخيال بالضربة القاضية.

هنا ناس غلابة، ورجل يمارس حياته الطبيعية بينما تسكن قلبه رصاصة حقيقية منذ حرب يونيه 1967، وحكايات خفيّة عن مسجد "حنّا" في إحدى قرى القليوبية، وعادات وتقاليد سكان حلايب وشلاتين، وصوت الجماهير الفقيرة "ياسين التهامي"، وخط الصعيد، والبلياتشو "عم مشمش"... إلخ، ومعهم آخر شهادات أدلى بها الكاتب الصحافي الأستاذ "محمود عوض" والفنان الراحل "محمد رشدي"، و"إبراهيم بغدادي" رجل المخابرات الغامض المتهم بقتل الملك.

الغلاف: بسمة صلاح


9 789774 900235

